دروب أندلسية



عبدالوهاب محمد الحمادي



تتداعى الذكريات، ينفخ الخيال بالروح بين السطور، فتدب فيها الحياة؛ هنا ينزل صقر قريش على الساحل قادماً من بلاد المغرب، وهناك خلف تلك الشجرة جلس ابن زيدون ينشد ولادةّ شعراً، وعلى هذا الطريق تتطاير ذرات الرمل، تثير الغبار، على وقع أقدام جيوش عبدالرحمن الناصر، وهي تجوب الأندلس لتدعيم أركان الدولة. اعتماد تودّع بعين دامعة المعتمد وهو يقود جيشه نحو الزلاقة. قصر الحمراء الشامخ، المسجد الكبير و... غيرها من ذكريات وصور، تلوح بضبابية في الذاكرة التي أشبعت بتاريخ الأندلس، وفي العينين اللتين أُجهدتا من النظر في سواد مجلدات الكتب.

دروب أندلسية

يتبادر سؤال إلى الذهن:

ماذا بقي من كل هذا؟

هل بقي شيء؟

أم ذهب الجميع كأوراق الخريف إذا هبت بواكير الشتاء؟

هل ابتلعت القرون الطوال وتاريخ إسبانيا الحديث... الأندلس؟!

هل هذا الكتاب كتاب أدب رحلات؟

نعم ولا!

هل هو كتاب تاريخ؟ نعم ولا!

هل هو كتاب مصور؟ نعم ولا!

هل وهل وهل وسيظل الجواب بنعم و.....لا، شيء من هذا وذاك..

عبدالوهاب محمد الحمادي

كاتب من الكويت

من إصداراته:

الطير الأبابيل، رواية 2012

لا تقصص رؤياك، رواية 2014

@qdmos


www.kuttab.ae

ISBN 978-9948-22-828-8



دروب
أندلسية



دروب أندلسية

رحلة في أندلس الماضي والحاضر

عبدالوهاب محمد الحمادي



دروب أندلسية

تأليف: عبد الوهاب الحمادي
الغلاف: Kuttab Team
تصوير: عبد الوهاب الحمادي

نشر في دولة الإمارات العربية المتحدة
الطبعة الثانية: 2014



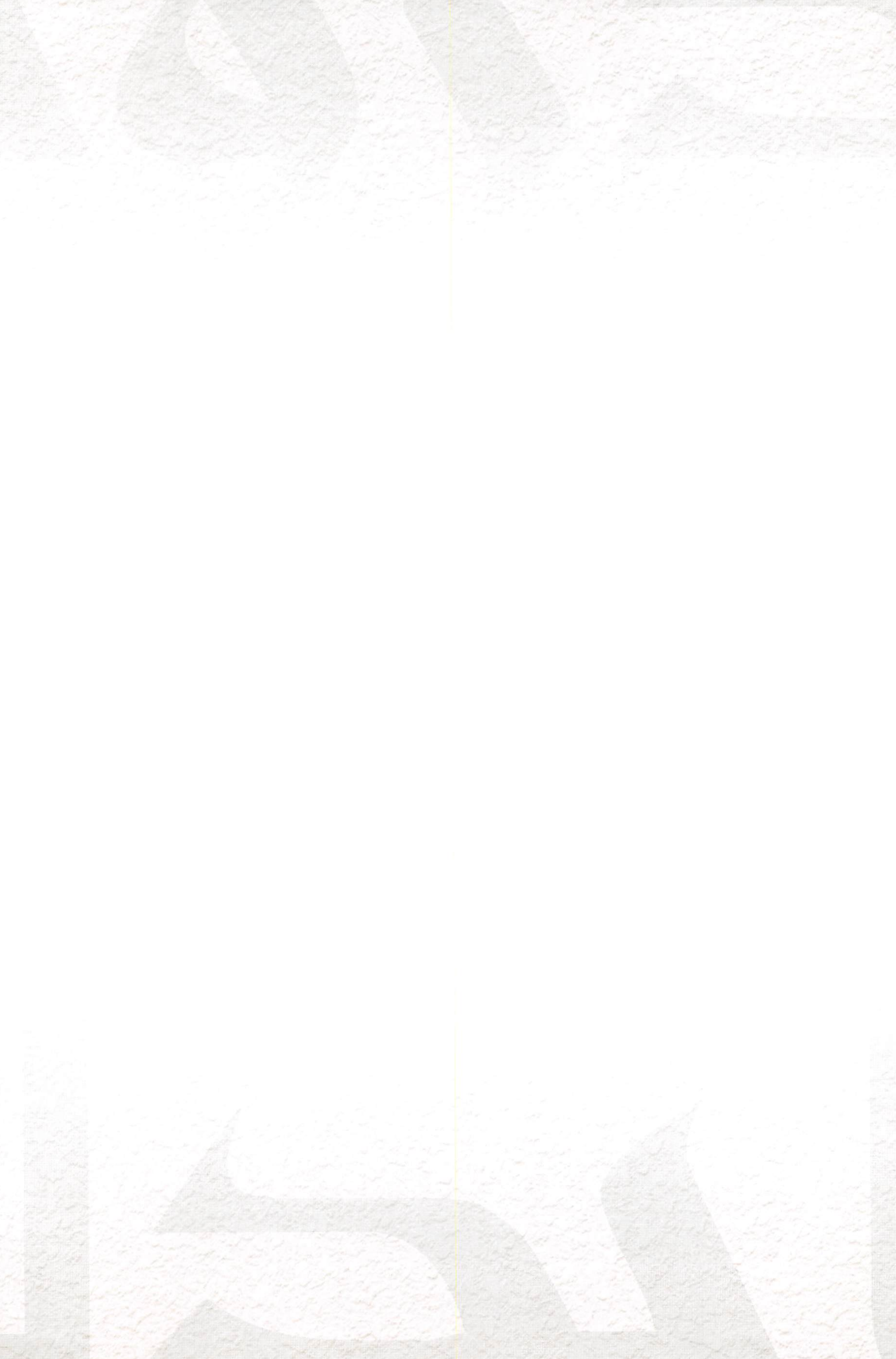
info@kuttab.ae

تمّت الموافقة على الطباعة من المجلس الوطني للإعلام.
ISBN 978 9948 22 828 8

الطباعة
www.upp.ae
UAE



الفهرس



الإهداء

وعدتني فيروز يوما:

«مهما تأخر جاي..

ما بيضيع اللي جاي..

ع غفلة بيوصل من قلب الضو..

من خلف الغيم»

إلى التي تأخرت ثم جاءت..

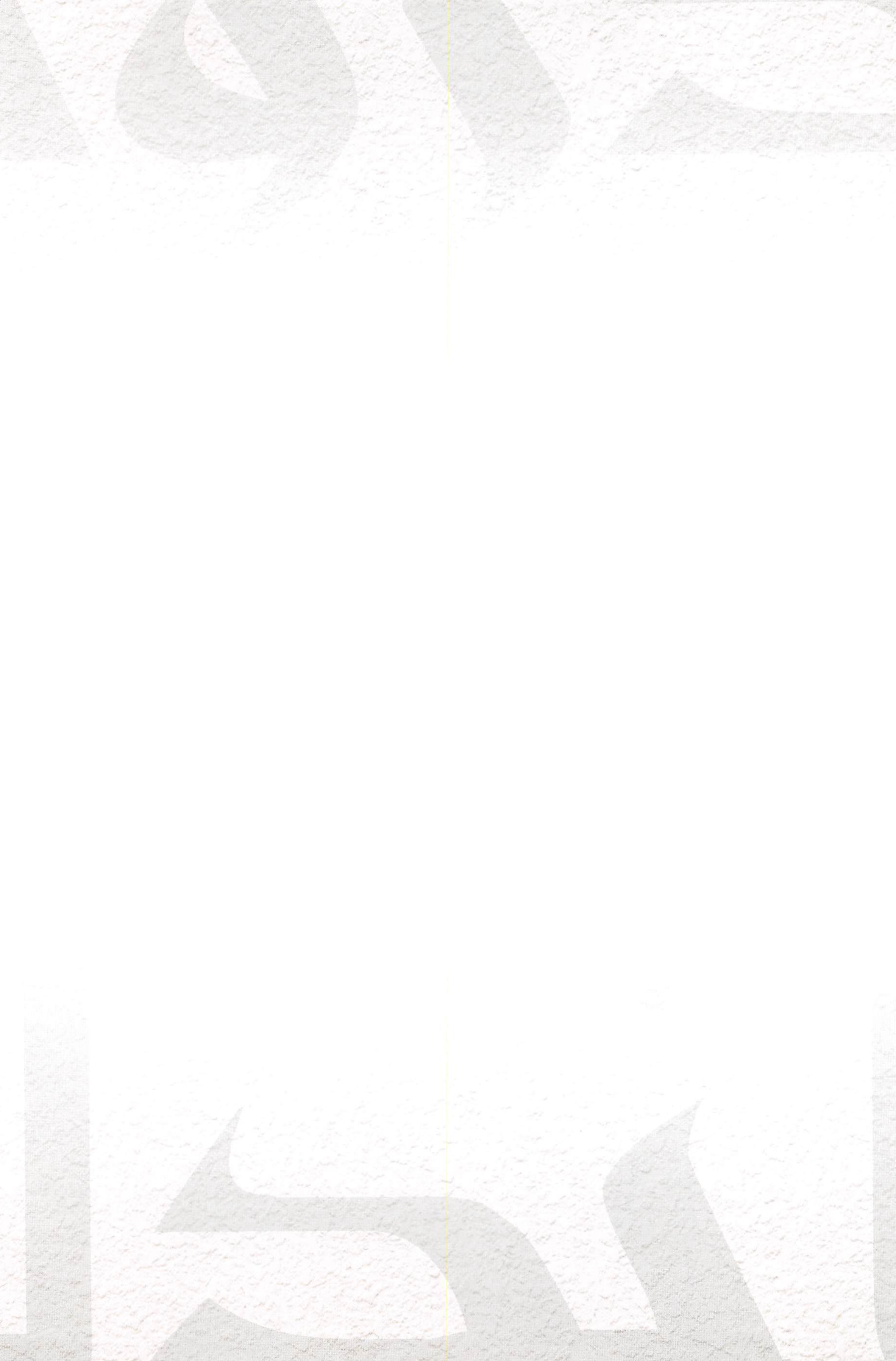
إلى تسنيم خالد المذكور أهدي هذه الدروب.



شكراً... لهؤلاء وهؤلاء

لكنّي رأيتُ قبيحاً أن يُجاد لنا
وأننا بقضاءِ الحقِّ بخّالُ

الشكر موصول لكل من ساهم وأشاد وشجّع، كما هو موصول - أيضاً - لكل من حاول أن يحبط أو يسدّ الأفق بسراب اليأس.
الشكر لا يوفي حق والديّ، اللذان زرعا فيّ حبّ الكتاب. فربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا.



المقدمة

لماذا؟

جلست في يوم من الأيام مع لفيف من الأصدقاء نخوض في شتى نواحي الحياة، فانبرى أحدهم وأخبرنا أنّه من زوّار إسبانيا الدائمين، فلمعت عيناي ببريق الابتهاج، هيّأت نفسي واعتدلت في جلستي ناظراً إلى ساعة الحائط وقلت في نفسي «هلّت ليالي الأندلس» وأملّتّها بوجبة أندلسية كاملة الدسم! نطوف بها على تاريخ وحضارة الأندلس وما تبقى من آثار دالة عليها، فسألته مبادراً: هل زرت غرناطة؟ فقال: أين؟! قلت: غرناطة! قال: وأين تقع هذه المنطقة؟! في إسبانيا؟! قلت:نعم!، فقال:لا... توالت الأسئلة عن قرطبة، اشبيلية، ملقا،.. الخ...؟ وهو يرد: لا، لا، لا حتى خلتها لاءات الخرطوم الشهيرة! أعقبتها لحظة صمت... عدت خلالها لوضعية الاسترخاء.. مستغرباً!، وقلت له بنبرة أبوية حانية: لماذا لم تزر هذه المناطق؟ خصوصاً مع نمو الاهتمام بالآثار الأندلسية في إسبانيا؟ وتواجد درر الزمان الأندلسي في تلك الديار؟ وأخذت أقصّ عليه طرفاً من التاريخ الأندلسي مستدعياً - بواسطة الحاسوب - الشيخ غوغل، وسألناه أن يأتينا بصور لتلك الديار، فأجابنا كلمح البصر- مشكوراً-، فأخذنا نقلّب الصور، فأعجب صاحبنا بها، وقال في المرة القادمة سأقلل من أيام إقامتي في برشلونة ومدريد وماربيا، وأضع هذه المناطق على جدولي السياحي، لكن... هل أجد كتباً تروي هذا التاريخ بشكل مصوّر؟ فوعدته بأن أحضر له أجودها. ووفيت بوعدي، وأحضرت له كتب الأمير شكيب أرسلان وعبدالله عنان المطبوعة في خمسينيات القرن المنصرم!. فتغيّر لون وجهه ومال إلى الصفرة، وأسرّ لي بصوت خفيض: هل سرقت هذه المخطوطات من أحد المتاحف؟! فتبسمت ضاحكاً وقلت: لا، لكن الجود من الموجود.

ومن يومها وأنا أفكر بوضع هذا الكتاب ليكون دليلاً خفيفاً مصوّراً لزائر الأندلس، يطوف فيه على حواضر الأندلس الكبرى والتي شهدت المحطات المفصلية في ذلك التاريخ، وعليه بعض التعليقات الخفيفة، راغباً منه أن يكون كالمقبلات التي تهيئ المعدة للوجبة الرئيسة الدسمة، مثل كتب عبدالله عنان، وحسين مؤنس، وشكيب أرسلان وغيرهم من أرباب الفصاحة والبيان، أو يكتفي القارئ الكريم بالمقبلات، إن كان يتبع حمية عن الكتب ذات الأغلفة البنية السميكة!.

غايتي من هذا الكتاب أن يشعر قارئه بمتعة فكرية ذات أسلوب سلس، وأقول:

هل هذا الكتاب كتاب أدب رحلات؟ نعم، ولا!

هل هو كتاب تاريخ؟ نعم، ولا!

هل هو كتاب مصوّر؟ نعم، ولا!

هل وهل وسيظل الجواب بنعم... ولا، شيء من هذا وذاك..

أتمنى أن يكون خفيفاً على القلب، مؤنساً للعين، في زمن استحوذ الإنترنت والفضائيات على العقول وسلبتها. لكّن الكتاب سيظل هو الكتاب، قال شاعر العربية المتنبي:

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

هذه مجمل الأسباب التي دعتني إلى وضع هذا الكتاب، وقديماً، أنشد المتنبي، صادقاً:

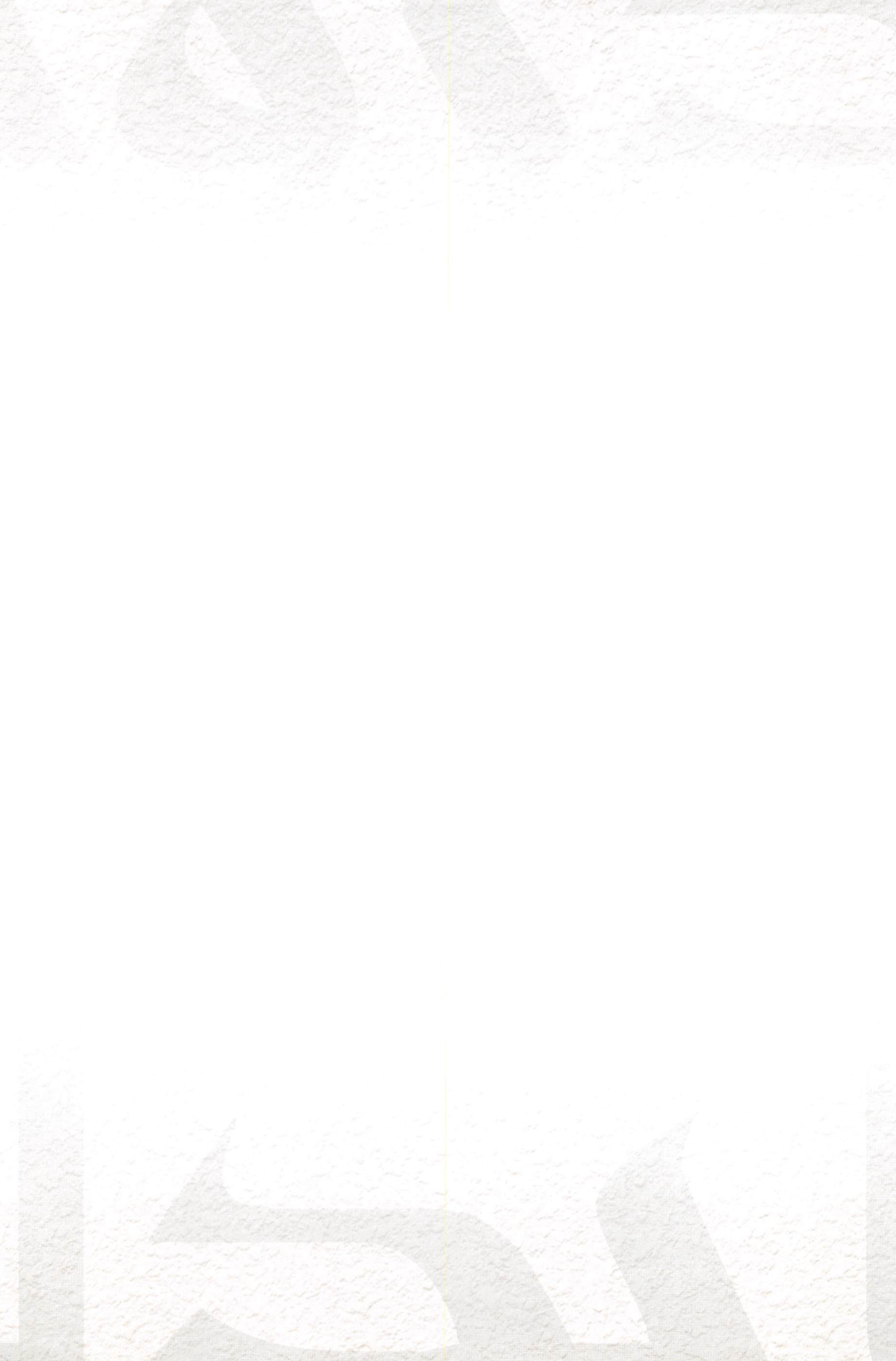
لـهوى النفوس سريرةٌ لا تعلمُ

عرضاً نظرتُ وخلتُ أنّي أسلمُ

عبدالوهاب محمد الحمادي

الكويت 2011

رَبِّ.. يسّر وأعن



مدخل

عندما أبصرت الدرب

الأندلس..

ما أن تَمُرُّ هذه الكلمة/ الغيمة..

ويلتمع سناها..

حتى يدوي رعدها في الذاكرة العربية..

فينهمر الغيث..

فتنبت وتزهر أجمل الذكريات ..

يهنأ بها المرء للحظات..

يفلت بها من قيود الزمان والمكان..

حيث أبيات الشعر تتقافزن كالغزلان..

أوتار الذاكرة تدندن موشحاً..

والشعراء مصطفين كالخميس على أبواب الأمراء..

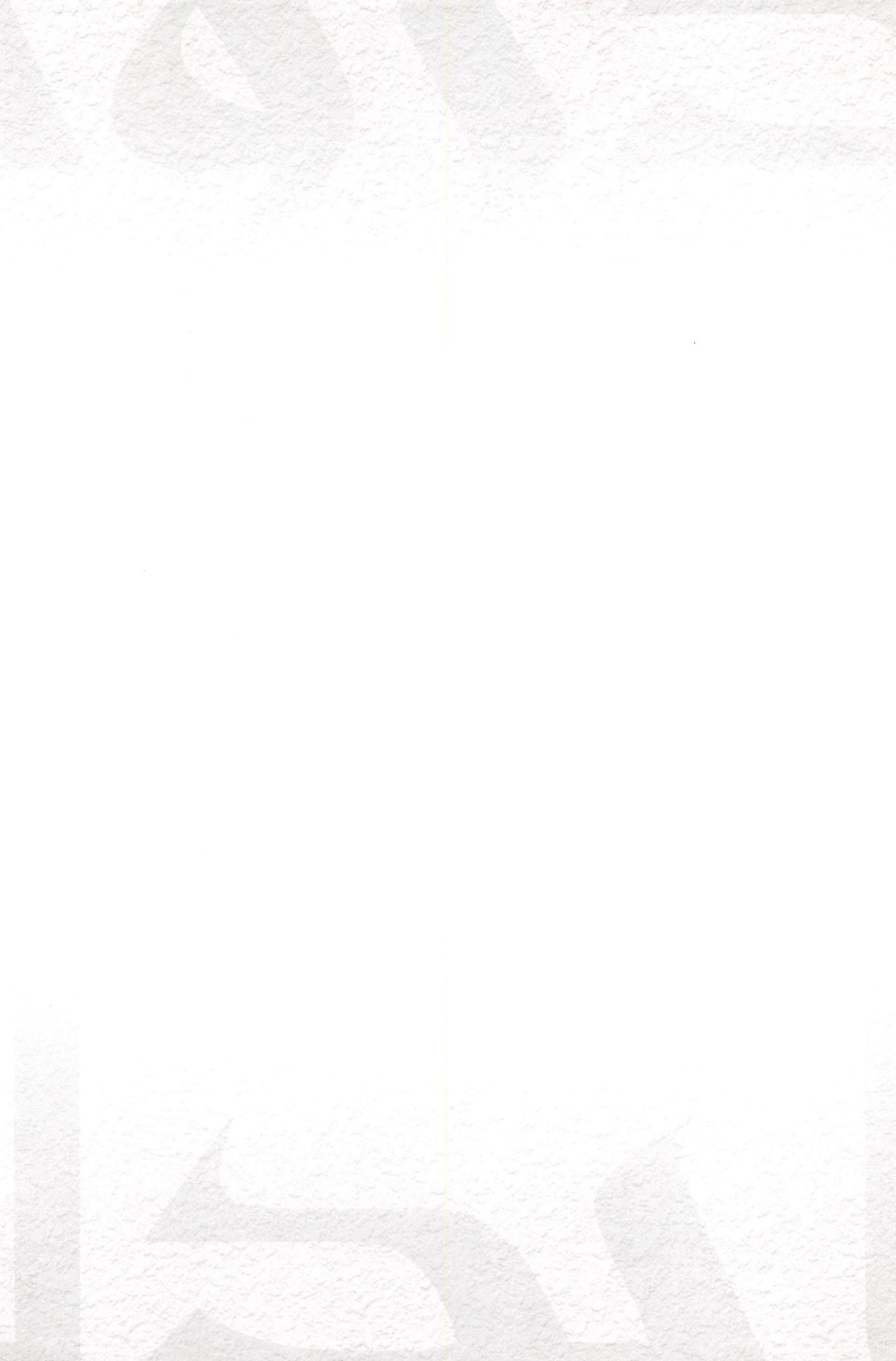
والغواني كالنجوم في ليلة صيفية..

وحلقات الفقهاء في المساجد تحفهم أجنحة الملائكة..

وحضارة نسجت غزلها على امتداد ثمانمائة عام..

من خيوط الفن والعلم والجهاد..

ليكون رداء، ارتداه الغرب بعد أن أفاق من عصور الظلام..



تتداعى الذكريات، ينفخ الخيال بالروح بين السطور، فتدبّ فيها الحياة، هنا ينزل صقر قريش على الساحل قادماً من بلاد المغرب، وهناك خلف تلك الشجرة جلس ابن زيدون ينشد ولّادة شعراً، وعلى هذا الطريق تتطاير ذرات الرمل، تثير الغبار، على وقع أقدام جيوش عبدالرحمن الناصر، وهي تجوب الأندلس لتدعيم أركان الدولة. اعتماد تودّع بعين دامعة المعتمد يقود جيشه نحو الزلاقه. قصر الحمراء الشامخ، المسجد الكبير و... غيرها من ذكريات وصور، يلوحون بضبابية في الذاكرة التي أشبعت بتاريخ الأندلس، وفي العينين اللتين أجهدتا من النظر في سواد مجلدات الكتب،... يتبادر سؤال إلى الذهن: ماذا بقي من كل هذا؟ هل بقي شيء؟ أم ذهب الجميع كأوراق الخريف إذا هبّت بواكير الشتاء؟ هل ابتلعت القرون الطوال وتاريخ إسبانيا الحديث... الأندلس؟!.

كل هذه التساؤلات تحوّلت طائراً عملاقاً له أجنحة من الشوق، حملني إلى هناك وبيتٌ لابن خفاجة الأندلسي... لا يغادر ذاكرتي:

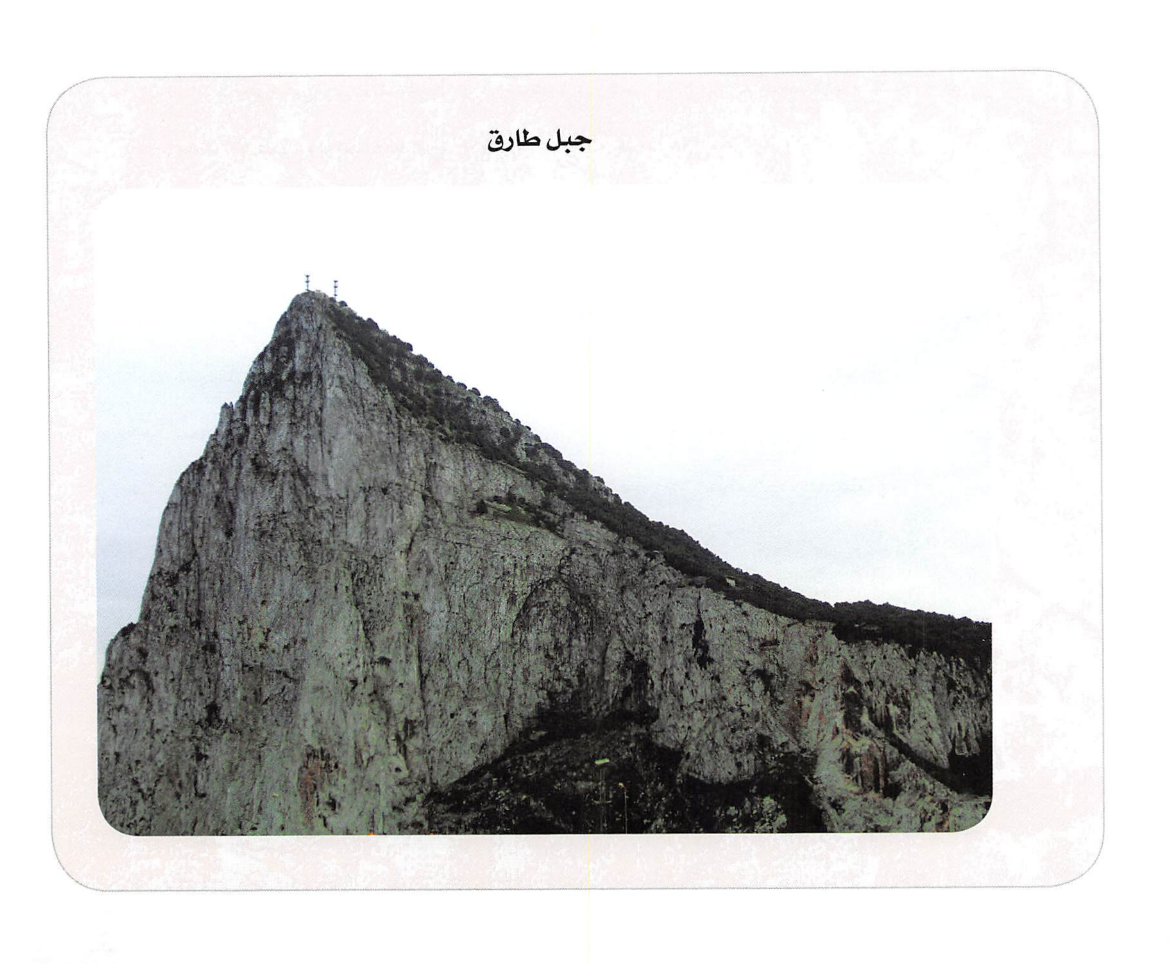
فإذا ما هبت الريح صبا

صحت وشوقي إلى الأندلس

الساعات الطوال بين السماء والأرض... انصرمت، وزال تعبها عندما تراءت لنا أرض الأندلس في الأفق. وما أن لامست أقدامنا أرضها، شهقت، لأستنشق الهواء وأملأ رئتي منه، أحاول أن أشتّم عبق التاريخ!. نستقل المركبة سالكين الدرب المفضي إلى قرطبة، ترشدنا لها أجهزة الملاحة الحديثة، مستأنسين باللوحات الإرشادية، التي نقرأ عليها أسماء مناطق نقشت بالذاكرة، لا تزال أسماؤها الأصلية موجودة، وقد فوجئنا بأن هناك الكثير من هذه اللوحات قد كتبت باللغة العربية، وعرفنا بعد السؤال أنها وضعت لأهل المملكة المغربية، القادمين من جميع أنحاء أوروبا ومن إسبانيا، ليعبروا إلى بلدهم.

في رجب من عام 92 للهجرة النبوية الشريفة 711 م عبر نداء الله أكبر البحر المتوسط إلى القارّة الأوربية، وصدع به جيش المسلمين الذي قاده طارق بن زياد عبر

جبل طارق



المضيق إلى جبلٍ خلّد ذكره حتى اللّحظة مضيق جبل طارق GIBLTAR. ومنه جاز المسلمون إلى هذه الأرض التي أسموها الأندلس[1]. عندها بدأ عصر جديد، غيّر وجه العالم القديم. حلقة مفصليّة من حلقات الحضارة الإنسانية... لن تُنسى.

الأندلس صارت اليوم مملكة إسبانيا KINGDOME OF SPAIN، وعاصمتها مدريد MADRID تقع في قلبها، في المنتصف[2]. نظام الحكم في إسبانيا ملكي، لكن السلطة بيد رئيس الوزراء، وإسبانيا دوله متقدمة، ومن الدول المؤثرة في عالم اليوم، ودخلها السنوي قارب مدخول جلّ الدول العربية بما فيها الدول النفطية لسنوات عديدة قبل ارتفاع أسعار النفط!. وإسبانيا وإن كانت متصلة حالياً بأوروبا جغرافيا واقتصادياً وسياسياً فإنها منفصلة بتضاريسها وتاريخها انفصالاً عبّر عنه كاتب فرنسي بقوله: «إن حدود أوروبا تنتهي عند جبال البرانس». يقطن المملكة خمسة وأربعين مليون نسمة، ونسبة المسلمين فيها 2.5%. طوال الطريق، تحفّنا على مد البصر عن يميننا وشمالنا أشجار الزيتون، بشكل كثيف لافت للنظر، والمسافات بينهم منتظمة، كأنما خطت بمسطرة، تدعوك للعجب، الذي يزول، عندما نعرف أن إسبانيا هي الأولى في إنتاج الزيتون ومشتقاته، ويمثل إنتاجها ربع الإنتاج العالمي، كما تشتهر بجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة، وشهرة منتجاتها الزراعية لا تحتاج إلى تبيان فأرفف المتاجر حول العالم تغصّ بها، وإسبانيا هي مهوى أفئدة عشاق كرة القدم، فالدوري الإسباني للمحترفين، تتسمّر أعين الملايين كل يوم على الشاشات، لمتابعة أحداثه. وريال مدريد ونادي برشلونة لهما من الشهرة ما بلغ الليل والنهار في جميع الدول، يتساوى في ذلك غنيّها وفقيرها!. وإسبانيا اليوم هي وجهة السفر المفضلة للملايين حول العالم، فشواطئها الزرقاء المشمسة كالمغناطيس تجلب عشاق الأمواج. وتاريخها الروماني والأندلسي والحديث، يأتي بالسائحين ليروا بأم العين إبداعات إنسانية، قلمّا اجتمعت في أرض، تجاور بعضها البعض!. كما أن المتاحف الحديثة التي تحوي نفائس اللوحات لأشهر الفنانين الإسبان بالعالم مثل بيكاسو، وغويا، وسلفادور دالي تجتذب الملايين. وتحلّ مدينة برشلونة Barcelona ثانيةً بعد باريس في الكثافة السياحية حسب أحدث الإحصاءات.

---

1 نسبة لقبائل الفاندلس (VANDALS) التي سكنت بها

2 مدريد مدينة قد حرف اسمها العربي «مجريط» أي مجرى المياه إلى اسمها الحالي.

علم إسبانيا



الطريق إلى قرطبة مبسوط مذلل وسهل، إلا من بعض الوديان الجميلة التي تود لو تقف بها لتلتقط لك صوراً تكون للذكرى مصباحاً منيراً، والطرقات في إسبانيا جيّدةٌ جداً والزحام فيها – خاصة بمحافظة الأندلس – نادرٌ جداً، وتلحظ احترام السائقين للطريق والقيادة بذوق. فأصل القيادة عندهم التزام الحارة اليمنى وتكون الحارة اليسرى فقط للتجاوز، وليست لهواة الفورمولا – وان! والحديث عن المقارنات بين بلاد الغرب وبلادنا يطول...!

تنقسم مملكة إسبانيا إلى 17 محافظة، لا تزال ثلاث منها تحتفظ بأسمائها الأصلية وهي: فالنسيا أو بلنسية VALENCIA، ومرسيه MURCIA، والأندلسANDALUSIA وعاصمتها أشبيلية SEVILLA، وهي التي تحوي معظم حواضر الأندلس التي سنزورها. وأغلب مدن إسبانيا الرئيسة تجري أنهار قطارات الأنفاق من تحتها، كما تحتوي على مطارات دولية أو محلية وترتبط بشبكة حديثة من القطارات.

واللغة الإسبانية هي الثانية من حيث الانتشار على هذا الكوكب الأزرق، وتحتوي على أطنان الكلمات ذات الأصل العربي، إذ أن ثمانية قرون لا تضيع هكذا بجرّة قلم من محكمة تفتيش. ومن كلمة ola= أهلاً... التي تستقبل بها أينما وجهت وجهك، إلى أصناف الطعام والشراب والمباني والألبسة وأسماء المدن، كثيرةٌ هي الكلمات التي ترجع أصولها إلى لغة الضاد، وحصرها هنا، صعبٌ مستصعب في هذا الحيّز الضيق على الورق.

واشتهر طبق الباهيّا PAELLA كطبق ابتكره الأندلسيون، وهو ممّا اشتهرت به مدينة


الزيتون على مد البصر

إسبانيا ومحافظاتها



بلنسية وتعُدّه من أطباقها القوميّة. وقد رُوي في أصل ابتكار هذا الطبق، أنّ فقراء الأندلس، كانوا ينتظرون عند أبواب القصور، ما سيُلقى من فضلات طعام الأثرياء. وعندما يُكبّ الطعام خارجاً، يختلط ببعضه البعض، فلذة لحم هنا، قد جاورت ثمار البحر، وبينهما قطع الدجاج... والكلّ اختلط مع الأرز واشتبك، فيفرح الفقراء لهذه الوليمة من بواقي الطعام الفاخر. بعدها صارت شيئاً فشيئاً طبقاً شهيّاً، وحرّف اسمها من البقيّة... إلى البابيلا أو الباهيّا!.

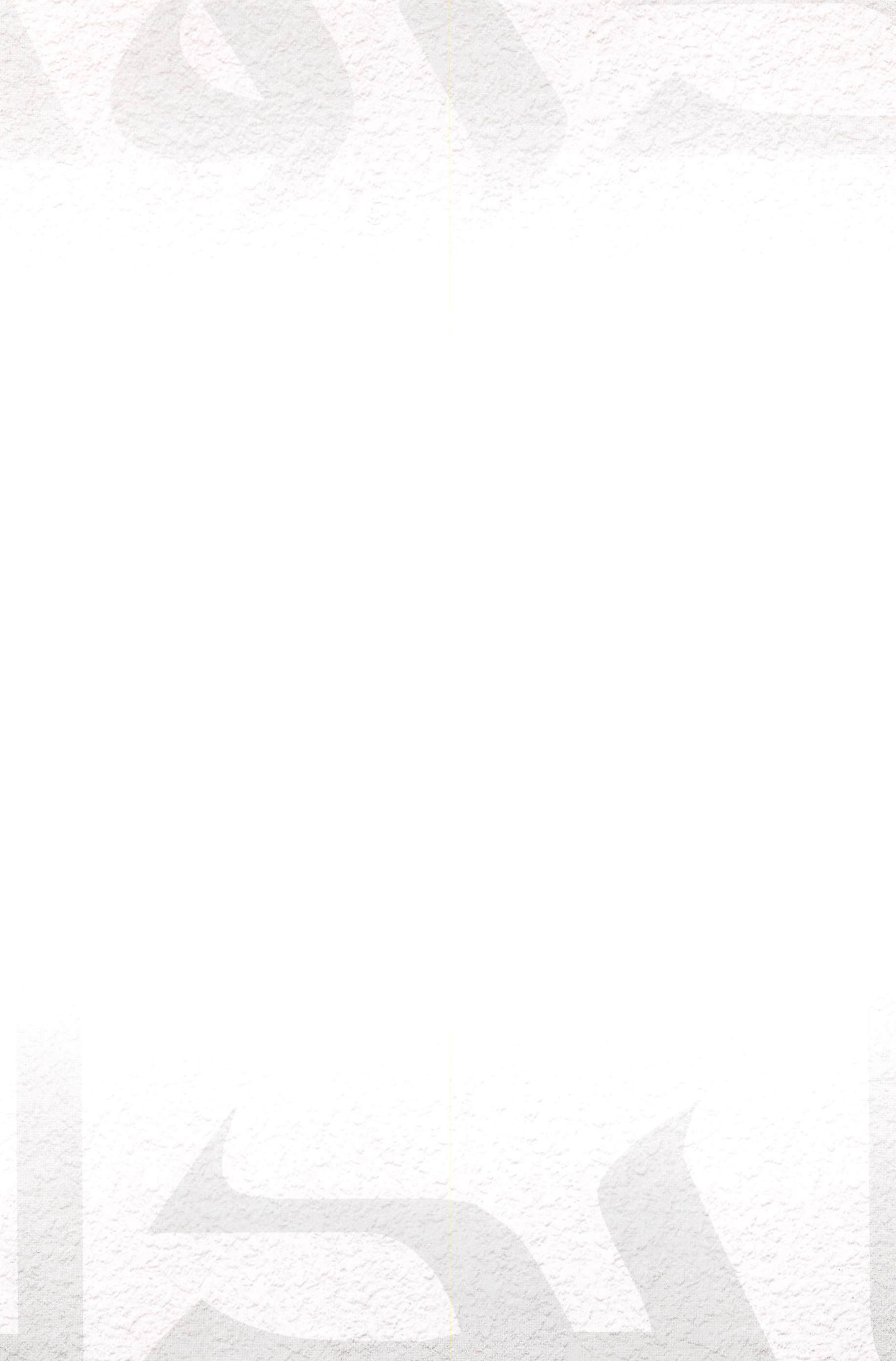
ندنو من قرطبة، فهل يدنو لنا ذلك العهد؟!

طبق الباهيه





قرطبة.. قبلة التاريخ



قرطـبة

CORDOBA

أقرطبة الغرّاء هل لـــي أوبةٌ

إليك وهل يدنو لنـــا ذلك العهــد

ابي بكر المخزومي

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع

وهـــل كبد حـــرى لبينك تنقــع

وهـــل لليـــاليك الحميدة مر

إذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع

أبو زيدون

شعرك شجرة زيتون ســوداء

تنبت كــل زيتــون قـــصيدة

وتنبت كــل قصيدة جنــاحــاً

يحملني الـــــى قـــرطبة...

غازي القصيبي

لم يبقَ من قرطبةٍ

سوى دموعُ المئذناتِ الباكية

سوى عبيرِ الورود، والنارنج والأضالية

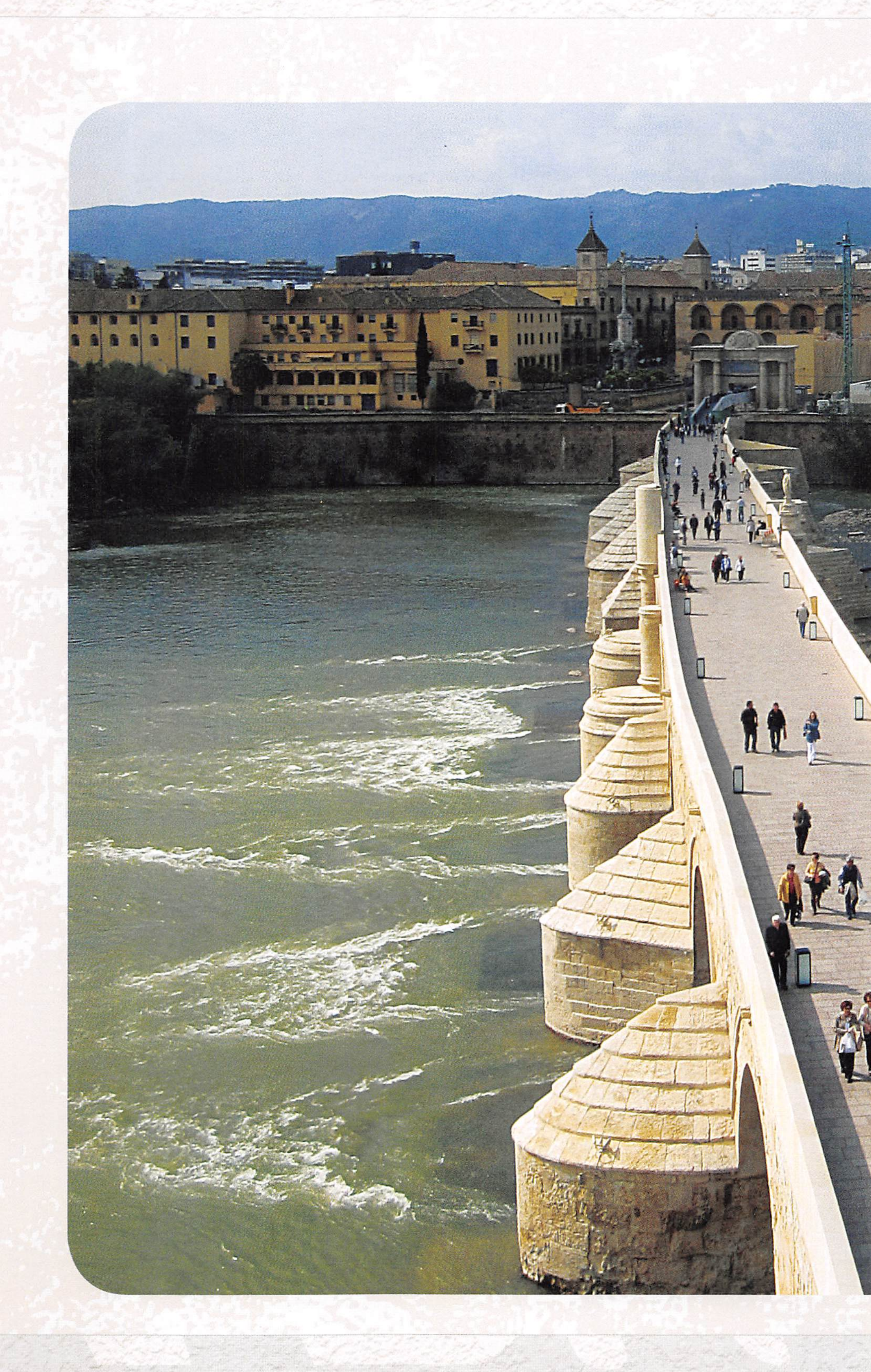
لم يبق من ولاّدةٍ ومن حكايا حُبها..

قافيةٌ ولا بقايا قافية..

نزار قباني

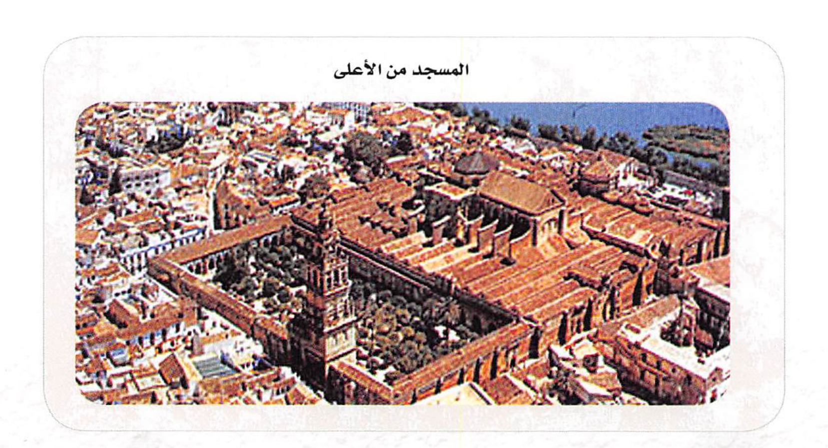
قنطرة قرطبة والنهر والمسجد من خلفه





عندما نقترب من قرطبة، يلّوح لنا التاريخ منادياً، فنلبي النداء، تتراءى لنا بيوت المدينة من بعيد، نقترب أكثر... فنرى النهر الشاحب بلون الطين يهدر. يرتفع في السماء منارٌ منيف، وسط مدينة من البيوت والمباني المكونة في الغالب من ثلاثة طوابق وما دون ذلك، إنها مئذنة مسجد قرطبة الجامع الكبير، محج طلبة العلم لقرون خلت. مع كل خطوة نخطوها مقتربين، تزداد ضربات القلب، ويقفز إلى الذهن فوراً عبدالرحمن الداخل، عندما دخلها عام 138هـ - 756م، و بدخوله قرطبة أشرقت شمس بني أمية من جديد في الغرب بعد مغيبها في الشرق، على يد بني العباس، الذين قضوا على آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد (الملقب بالحمار) وسمي بالحمار لشدة بأسه ولخصلتي الصبر والجلد.. لا لشيء آخر!، وقد قُتل بمصر طريداً بعدما هُزم بمعركة الزّاب التي كانت هي النقطة الفاصلة، بين تاريخ الدولتين الأموية والعباسية. أعمل بني العباس السيف في رقاب بني أمية، لم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمّة، ولم ينجُ منهم إلا أقل القليل، وكان ممن كتبت لهم النجاة، فتى يبلغ من العمر 21 سنة اسمه عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان. توفي أبوه في رحلة صيد، فكفله جدّه داهية بني أمية هشام بن عبد الملك في كنفه، وقرّبه منه ولقّنه فنون السياسة والفروسية، وكأنما كان يعده لأمر ما!.

المسجد من الأعلى

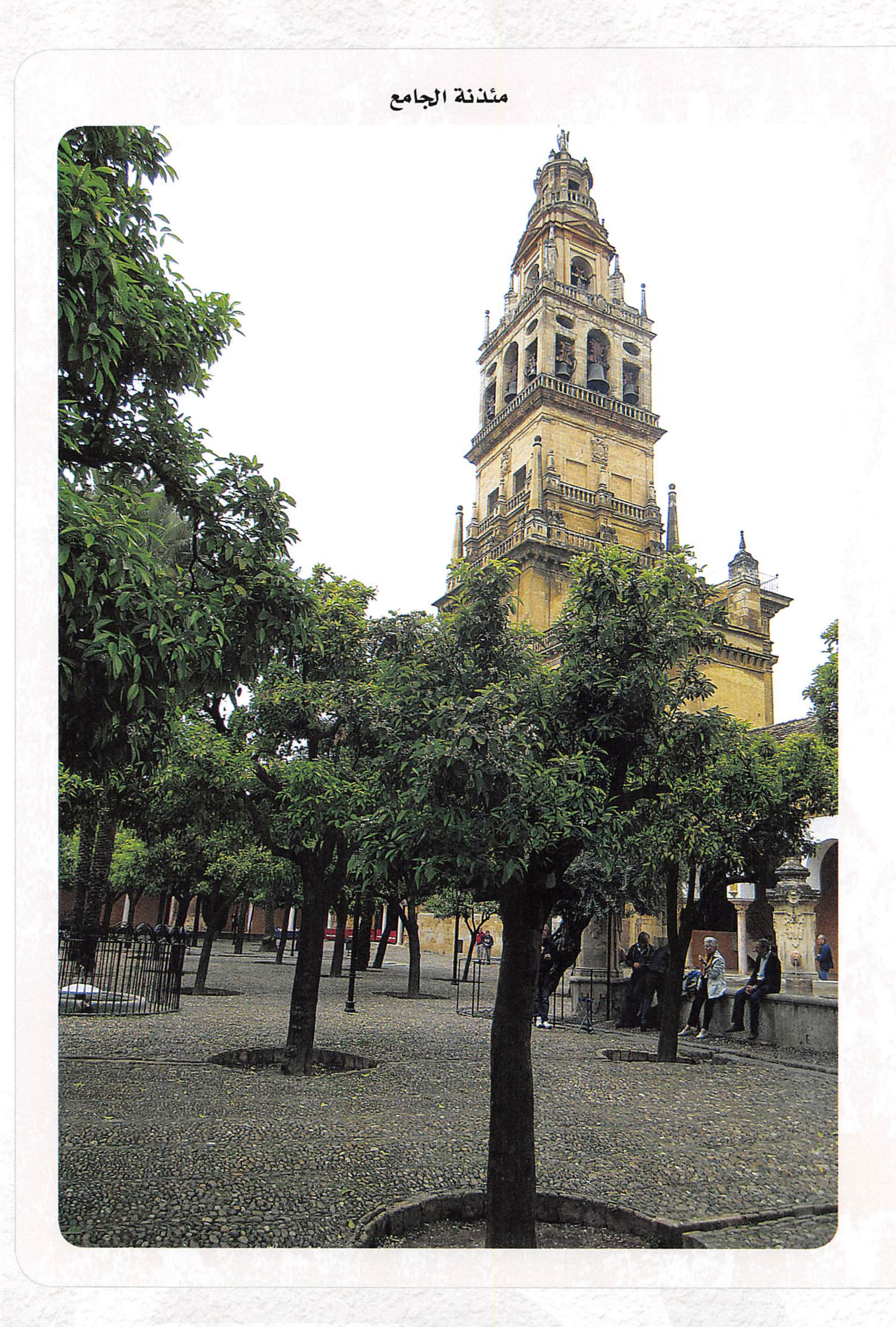


132 للهجرة الشريفة - 750 للميلاد

فتى للتوّ بلغ العشرين من عمره، أرمد العينين، تطارده الرايات السود، وهو يفرّ منها، حتى وصل إلى الفرات يلهث. أبصر الرايات السود تقترب أكثر فأكثر، فقذف بنفسه في اليم مقامراً... إما لهذا وإما لذاك، وأخذ وأخاه يسبحان، للوصول إلى ضفة النجاة. النهر العريض، زادهم وهناً على وهن، أخاه يتعب، يكاد يغرق، يتشبّث بالحياة، يضرب سطح الماء بكل ما أوتي من قوة، الجند يدعونه للعودة، مقسمين له بأغلظ الأيمان بأنهم لن يمسّوه بسوء، وعبد الرحمن... يدوي صوته كالنذير: لا ترجع، ويحثّه على مواصلة السباحة، تخور قواه. متشبّثاً بالحياة وبوعود الجند يعود أدراجة إلى الضفة السوداء، بلون الرايات، وما كاد أن يصل حتى تلقفه الجنود فأخرجوه وأحكموا وثاقه... فضربت عنقه!. ينظر عبدالرحمن إلى المشهد الرهيب، ويلتف ضارباً صفحة الماء بكل ما أوتي من قوة هرباً منهم، ودموعه على أخيه يكاد يفيض منها الفرات. بعد اجتيازه النهر أسرع متخفّياً.. ميمّماً وجهه شطر فلسطين، حيث لحق به مولاه بدر، والرايات السود خلفه قد سدّت أفق السماء.. وحجبت شعاع الشمس!. يفرّ الرفيقان إلى مصر يطويان المفازات، ومنها إلى تونس، التي كانت بقبضة عبدالرحمن بن حبيب الفهري الطامع في أن يقتطعها له ولأبنائه من بعده، خارجاً على سلطةبني العباس. فضاقت به الدنيا بعد علمه بوصول أحد أحفاد هشام بن عبدالملك، وأراد التخلّص منه حتى لا ينازعه الحكم، وما أن علم عبدالرحمن بما يعتمل في صدر الفهري تجاهه، حتى سارع بالفرار إلى المغرب، حيث لاذ بأخواله من قبيلة نفزة البربرية، وأقام على ساحل طنجة لاجئاً لديهم، محتمياً عندهم كريماً لديهم..، ذلك بعدما عرفوا أنه سليل الخلفاء وأمه منهم!.

على ذلك الساحل، توالت النداءات الداعية له للعبور إلى الضفة الأخرىحيث الأندلس.. حيث الأمل، وقبائل موالية لبني أمية ستنصره، إن لجأ إليها. فأرسل مولاه بدراً ليلتقي رؤوس القبائل ويؤلف بينهم تحت رايته، راية بني أمية، ذلك أنّ الدول لا تولد إلا من رحم العصبيّة. كانت الأندلس عندئذ تعيش عصراً من الاضطرابات المستمرة منذ الفتح، سمّي بعصر الولاة، حيث استقلّت كل قبيلة بمدينة وما جاورها، وساهم في هذا التشتت بُعد الأندلس عن قبضة الخلافة، فلا توجد سلطةٌ مركزية

مئذنة الجامع



يعودون إليها في حال الاختلاف. نجح بدر في مهمته موحداً أنصار بني أمية وممهداً الطريق لقدوم.. الداخل، وعاد ليصطحب الأموي الشاب إلى الأندلس، عبروا البحر، ونـزلوا في ميناء قرية المنكب ALMUNECAR[3]. وبعد أحـداث متشابكة، خَلُص لعبدالرحمن من الأعداء أعتاهم، الصميل بن حاتم وحليفه يوسف الفهري، فنازلهم الداخل في معركة المصارة ALMAZARA – التي سميت باسم الأرض التي وقعت فيها المعركة قريباً من قرطبة – وهزمهم، فدخلها حاكماً ولذلك لقّب بـ«الداخل»، فهو أول من دخلها من بني أميّة حاكماً. و بدأ بتوطيد أركان حكمه بما توارثه من سياسة ودهـاء اشتهر بها بني أمية! حتى لقب بـ«صقر قريش»، وقد خلع عليه هذا اللقب من قبل غريمه بالمشرق الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، لمّا كان في مجلسه يوماً.. تحفّه الحاشية، عندما بادرهم سائلاً: أتعرفون من هو صقر قريش؟ فأجاب الحاضرون على الفور: أنت يا أمير المؤمنين !، فقال: لا! فقالوا له: هو أخوك السفاح! فكرّر جوابه الأول!، واستمرّوا بإجابته بكل ما ترميه لهم ذاكرتهم من أسماء الخلفاء، وهو يرد عليهم بالنفي! حتى أسقط في أيديهم وقالوا: لم نعرفه، فمن هو يا أمير المؤمنين؟! فقال: إنه عبدالرحمن بن معاوية.. أحقّ الناس بهذا اللقب، خرج شريداً طريداً، فمصر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، ونال ملكاً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدّة شكيمته. وقد حاول المنصور فيما بعد تأجيج الأندلس على الداخل، بتمويل أحد رؤوس الخوارج، واعداً إياه بإمارة الأندلس إن هو نجح بإقصاء الداخل، سحق الداخل بدهائه وسعة حيلته حركة التمرّد العباسية، وبعث برؤوس أهل الفتنة بعد أن حشيت بالملح والكافور في صناديق إلى مكة، حيث كان المنصور يؤمّ الناس بالحج ذلك العام، فلما رآها قال: «الحمد لله، الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»... يقصد الداخل!

نعود إلى قرطبة الحاضر. مئذنة الجامع على مقربة.. شامخةً، تكاد تلامس السماء. هذا الجامع الذي كان لقرون خلت، أكبر جامعة في أوروبا بل في العالم! يحجّ إليه آلاف من طلبة العلم ويقصده العلماء من مشارق الأرض ومغاربها، وهو يعد أكبر مسجد في العالم الإسلامي بعد المسجد الحرام، في زمنه!. أراد الداخل ببنائه لهذا المسجد مضاهاة المسجد الأموي في دمشق. ولربما يفسر لنا التفكير المادي الغربي،

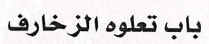
3 قرية صغيره قرب مدينة MALAGA مالقة ، وقد وضعت الحكومة الأسبانية تمثالاً له يلبس فيه اللباس العربي حيث نزل. .

قيام الداخل ببناء هذا المسجد بتكلفة عالية، وإحضار الصنّاع والمواد اللازمة له من أنحاء المعمورة، كرغبة منه بتأسيس هيبة وسلطة، تضخم قوته، وترهب أعداءه، ويكون آيةً على فترة حكمه. عندما ننظر إلى بناء هذا المسجد الضخم من الخارج، تبهرنا الجدران العالية التي تقضم الفراغ فلا يحيد البصر عنها إلا إليها. نلمس الأبواب النحاسية المنتشرة على جانبي المسجد ونتفحصها، ونحن نجيل النظر إليها، خصوصاً ما كان على الجانب الشرقي والغربي والتي تعلوها أقواسٌ مزيّنة بالزخارف والنقوش الأندلسية الباهرة بألوانها، وقد غلب عليها اللون الأحمر - وهو لون النقوش في الدولة الأموية الأندلسية - وما تزال تحتفظ ببريقها، والجُدر بهيبتها، رغم مضي أكثر من مائتين وألف عام على بنائها!.

ندخل إلى فناء المسجد فناء البرتقال Patio de los Naranjos المزروع بأشجار البرتقال والنخيل، الذي أهدي للداخل من أخته في الشام، وزرع في الأندلس في عهده. تتوسط هذه الباحة نافورةٌ ذات حوض كبير، شباك بطاقات الدخول يقع بجانب الحائط الشمالي، وهو غير مزدحم، فأغلب السيّاح قد أتوا كمجموعات منظمة. المئذنة تقع في الزاوية الشمالية الغربية، تعلوها صلبان وأجراس، وضعت بعد احتلال

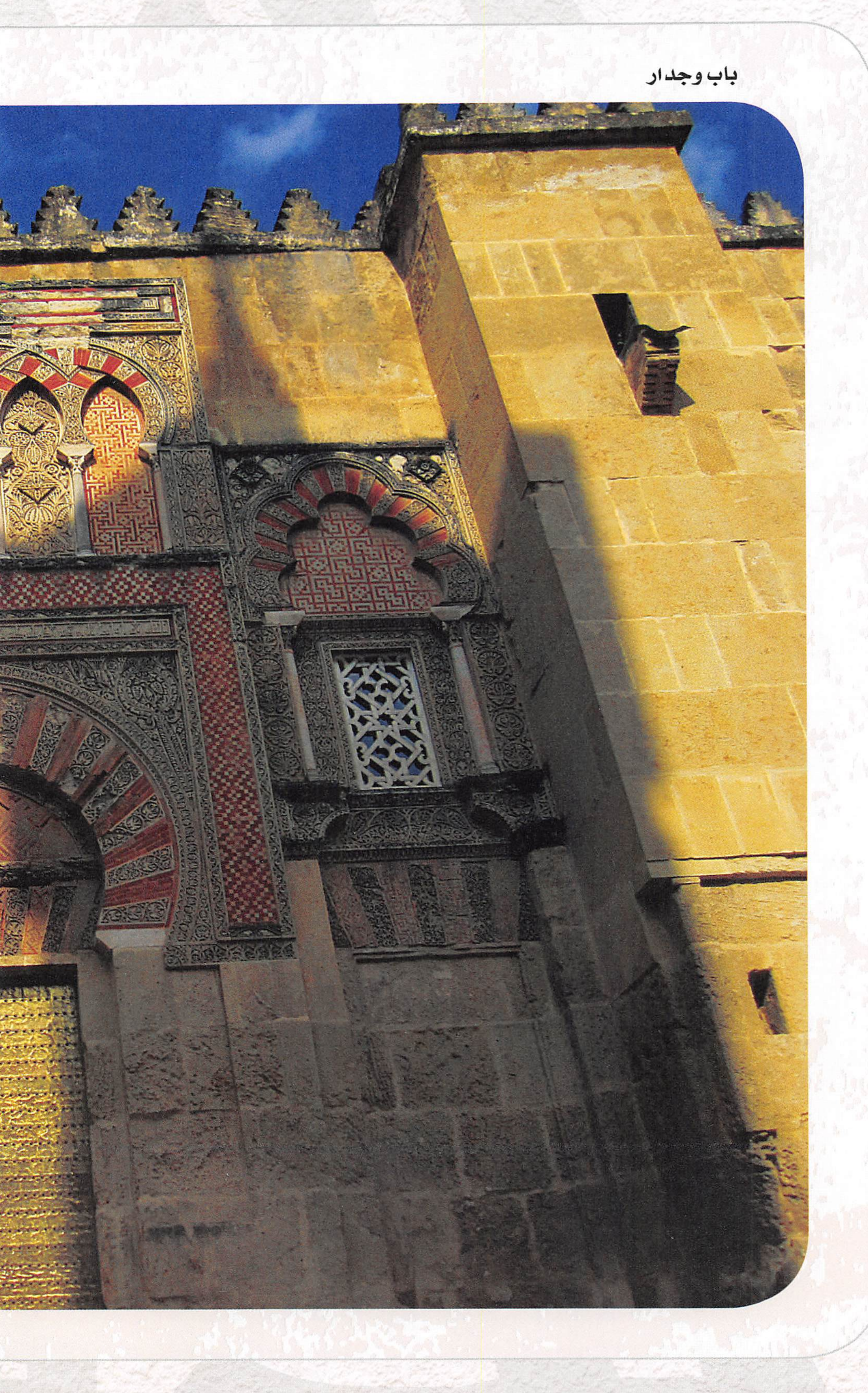
نقوش





باب تعلوه الزخارف

باب وجدار





الأبواب النحاسية



قرطبة من قبل النصارى سنة 1236 ميلادي في إحدى المعارك التي تسمى في الفكر الغربي بمعارك الاسترداد Reconquista، بعدها تم اغتصاب أرض المسجد، وتحويله إلى كنيسة بشكل تدريجي.

بُني هذا المسجد على أنقاض كنيسة صغيرة، اشتراها الداخل من النصارى، ودفع إليهم مقابلها كثيراً من الأموال، وأقطعهم عدداً من الأراضي، ليقيموا عليها كنائسهم. وسوف تجد عند دخولك حفرة استكشافية محاطة بسور حديدي عندما تنظر داخلها ستجد أرضية الكنيسة القديمة واضحةً للعيان . جامع قرطبة تغيّر إسمه إلى مسكيتا كاثيدرال، أي المسجد الكاتدرائية MEZQUITA CATHEDRAL، ومن الملفت للنظر أنّ اسم المسجد MEZQUITA غلب على لسان السُيّاح والمقيمين بالقرب منه متناسين الكاتدرائية، التي كانت بمثابة وصمة عار على جبين التسامح بين الأديان. يُعد المسجد من الآثار المنضوية تحت رعاية منظمة اليونسكو في برنامجها لحماية التراث العالمي.

ندلف من الباب الرئيس للمسجد، تمتلئ أعيننا بمنظر يقف السياح أمامه مندهشين... إنها غابة الأعمدة والأقواس الشهيرة، منظر يسلب الألباب، يحلّق بك في سماوات

نقوش



التاريخ مزهواً بالفخر، كلّ هذا السحر وجد قبل أكثر من ألف عام؟!.

رفع الداخل قواعد المسجد في العام 785 للميلاد. خضع المسجد لعمليات توسعة على امتداد فترة الحكم الإسلامي، لمجاراة الازدياد المضطرد في عدد سكان المدينة، واستمرت عمليات التوسعة بعد عهد الداخل وأحفاده وصولاً إلى عهد الحاجب المنصور الذي ضاعف من حجم المسجد، وردد آمين خلف الإمام 80 ألف مصلٍ. على أنّ الجزء الخاص بالعهد الأموي كان يتميّز جمالياً وهندسياً عن بناء المنصور.

نكمل المسير متوجهين نحو مكان تحتشد أمامه المجموعات السياحية بكثافة ملفتة للنظر وتلمع فلاشات التصوير، إنه المحراب الذي زيّن بنقوش فسيفسائية لآيات قرآنية بغاية الإبهار، وعلى جوانبه نقش اسم الحكم المستنصر الخليفة الذي بُني المحراب في عهده، تقول النقوش: بسم الله الرحمن الرحيم «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين» أمر الإمام المستنصر بالله، الحكم، أمير المؤمنين أصلحه الله، بعد عون الله فيما شيّده من هذا المحراب، بكسوته بالرخام، رغبةً في جزيل الثواب، وكريم المآب فتمّ ذلك على يد موليه وحاجبه جعفر بن عبدالرحمن رضي الله عنه، بنظر محمد تمليخ، وأحمد بن نصر، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب، عبيدة، في شهر ذي الحجة من سنة أربعة وخمسين وثلاث مائة، ومن يسلم وجهه إلى الله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور.

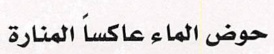
لضخامة الجامع، بلغ عدد العاملين فيه إبان عهد الحاجب المنصور قرابة المائة وستون عاملاً، وبلغ عدد ثرياته حوالي مائتين وأربع وعشرون ثُرية، حملن آلاف الشموع لإضاءة المسجد. ولا يزال المحراب القديم إلى اليمين من المحراب الرئيس، وأيضاً تحيط به النقوش والفسيفساء الرائعة.

نقف أمام المحراب الذي وقف فيه خلفاء بني أمية وكبّروا فكّبر المسلمون خلفهم، ومنه انعقدت ألوية الجيوش التي جابت شبه الجزيرة الأيبيرية... الأندلس.

قرب هذا المحراب جلس العالم الجليل - ابن حزم - هذا الفقيه الظاهري، صاحب كتاب «الإحكام في أصول الأحكام»، و«المحلّى»، أحد أشهر كتب الفقه الإسلامي، وكتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» الذي يعد من أشهر الموسوعات المختصة بالفرق والمذاهب الإسلامية والملل الأخرى، وهو صاحب كتاب «طوق الحمامة» الذي

فناء البرتقال وأشجاره





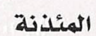
حوض الماء عاكساً المنارة

سبر فيه أغوار الحب بكل أصنافه مستخدماً أدوات عرّفها الغرب لاحقاً بالتحليل النفسي. والقصص التي ساقها للتدليل عن أفكاره في الكتاب، كانت معبّرةً بوضوح عن نمط الحياة القرطبية الأندلسية وطرائق عيشهم ويومياتهم. وقد نال هذا الكتاب حظاً وافراً من الشهرة، كما دُرّس بالجامعات، وكُتبت عنه رسائل لنيل الدكتوراة. وصنّف أيضاً إحدى أشهر موسوعات الأنساب العربية، «جمهرة أنساب العرب»، وله من الكتب والرسائل عدد ضخم، ذهب معظمه في غياهب التاريخ ولم يبقَ لنا إلا النزر اليسير. تعرّض هذا الفقيه الكبير في حياته الطويلة لمحنٍ كثيرة، كان أصعبها على نفسه عندما رأى كتبه تحرق أمامه وتستحيل رماداً تسفعه الريح، تنفيذاً لحكم جائر... فأنشد يومها قائلاً:

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معـــي حيث استقرت ركائبـــي
وينزل إن أنزل ويدفـــن فـــي قبري

اشتهر - رحمة الله - بمناظراته، ودفاعه الشرس عن مذهب الظاهرية ضد المذهب المالكي الذي كان سائداً في الأندلس. كما اشتهر بحدّة الطبع جريئاً.. لا يخاف في الحق..أحداً، حتى قيل في وصفه لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان.

نلامس بأنامل الحنين عموداً رخامياً هنا.. ونستند إلى جدار هناك.. استند عليه يوماً محمد بن أحمد الأنصاري صاحب أحد أشهر التفاسير على الإطلاق، «تفسير القرطبي»، ليجيب على أحد طلبة العلم. ويخيّل إليك وأنت تنظر إلى أحد أركان المسجد أن بقي بن مخلد الأندلسي جالسٌ هناك يتحلّق حوله طلبة العلم، ليصب في أذهانهم ما حباه الله من كنوز الأحاديث الشريفة، وكان قد حفظ الآلاف المؤلفة منها عن ظهر قلب حتى لقّب بـ«الحافظ» وذاع نبأ رحلته التي سلك فيها طريق العلم يلتمس العراق حيث الإمام أحمد ابن حنبل، ليرتوي منه ويروي. رحلة طوى فيها بوادي وعبر بحاراً وخاض أنهاراً، ليصل إلى بغداد عاصمة العباسيين. وما أن وصل إلى بغيته حتى فوجئ بأن الإمام الحبر أحمد بن حنبل قد مُنع من التحديث، ووضع تحت الإقامة الجبرية! فضاقت عليه الأرض بما رحبت. لكنه لم ييأس ولم يقنط، واستمرّ يحاول ويحاول إلى أن التقى بالإمام وأخبره بخبره، وأنه أتاه من أقاصي



المئذنة

الأرض طالباً لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فرّق له الإمام وتفرّس في عينيه الذكاء المتقد، فطلب منه أن يرتدي ملابس الفقراء، ويأتي إليه بُعيد كل صلاة، يسأله الصدقة، فيدخله إلى بيته ويتصدّق عليه ببعض الأحاديث التي أخذ يخطّها بيمينه وفؤاده. واستمرّ ينهل من المنبع ويقول: هل من مزيد؟. حتى جمع أكبر مسند في تاريخ الإسلام مسند بقي بن مخلد، وقفل راجعاً كأنما حيّزت له الدنيا بحذافيرها، ميمماً وجهه شطر الأندلس يحمل ميراث الأنبياء، وفي الطريق، حدث ما لم يكن بالحسبان... فقد ضاع أكثر هذا السِفر العظيم!. فكان حزنه شديداً تتصدّع له الصخور الصم. ومرةً أُخرى لم يدع اليأس يظفر به، وفور وصوله لقرطبة أخذ يملي على طلبته ما حفظه عن ظهر قلب، وما تبقى له من صفحات حوت الأحاديث. فكان لرحلته اليد العليا في إثراء علم الحديث بالأندلس. وقريباً من المحراب كان يقف أبو بكر بن العربي صاحب «العواصم من القواصم» متأملاً، ينسج أفكاراً لمصنف من مصنفاته التي سارت بها الركبان.

جامع قرطبة لم يكن مسجداً للصلاة فقط، بل كان جامعةً للعلوم بشتى أنواعها من دينية وعلمية تطبيقية مثل الطب والهندسة التي اقتبسها المسلمون من الكتب اليونانية المترجمة للعربية، سواءً هنا في الأندلس أو تلك التي ترجمت في بغداد. لم يكتفِ المسلمون بالترجمة بل أضافوا لها من ما فتح لهم من علم، وقاموا بتطويرها. في وقت حجبت غيوم الجهل أوروبا، في زمان عرف بعصور الظلام أو ما يسمى اصطلاحاً العصور الوسطى. وعندما بدأ الأوروبيون بالتنبه لأهمية العلم لم يكن من بدّ لهم سوى إرسال البعثات العلمية إلى الأندلس وحاضرة علومها قرطبة، حتى وصل عدد الطلاب المبعوثين في أيام عبدالرحمن الناصر قرابة الـ 700 طالبٍ أوروبي، وبالفعل.. ولأن قرطبة صارت شمس العلم قصدتها الوفود لإقتباس نور العلم منها ومن هناك عادت بقبس وهدى أقام أود الجامعات التي نمت في أوروبا، بل إنّ بابا الفاتيكان، البابا سيلفستر الثاني Pope Sylvester II، كان قد طلب العلم في قرطبة في صدر شبابه، وتدرّج في مدارجه إلى أن وصل للمرتبة البابوية في الفاتيكان!. والآن تبعث البلدان العربية والإسلامية البعثات إلى الغرب لنهل العلوم وكأنّ بضاعتنا ردّت إلينا، وهذا لا يعيب في شيء فطلب العلم هو الشرف الحقيقي.

النقوش داخل الحفرة الاستكشافية



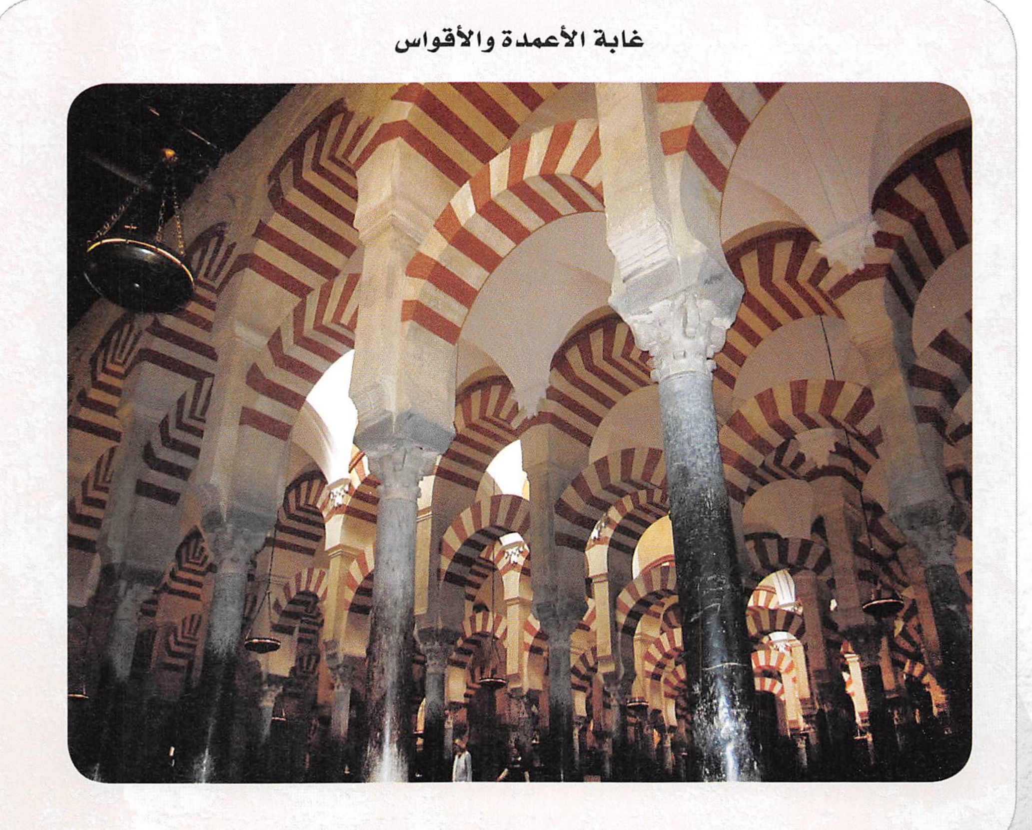
نمرّ بين هذه الأعمدة الرخامية الرشيقة التي تحمل الأقواس الملونة باللونين الأبيض والأحمر بإبداع متقن ونقوش فتّانة. تعلو المحراب قبّة مذهبة بديعة يحار المرء في وصفها، تحملها أعمدة زيّنت بعقود ذات زخارف تسر الناظرين. في وسط هذا المسجد نبتت كنيسة تكاثرت فيها الصلبان حاملة مسيحاً - مزعوماً - يقطر دماً، تحس بغصّة في الحلق تزول بمجرد تذكرك أن الأيام دول، والأمم تتقدم بدراسة تاريخها وتمحيصه ووضعه تحت عدسة النقد واستيعاب ايجابياته والتخلّص من سلبياته، وليس التغنّي به والقعود ورفع الصوت بالأنين والشكوى من الزمن والآخرين، وسكب أنهار الدموع على ما فات.. قال الإمام الشافعي:

نعيب زماننا والعيب فينا

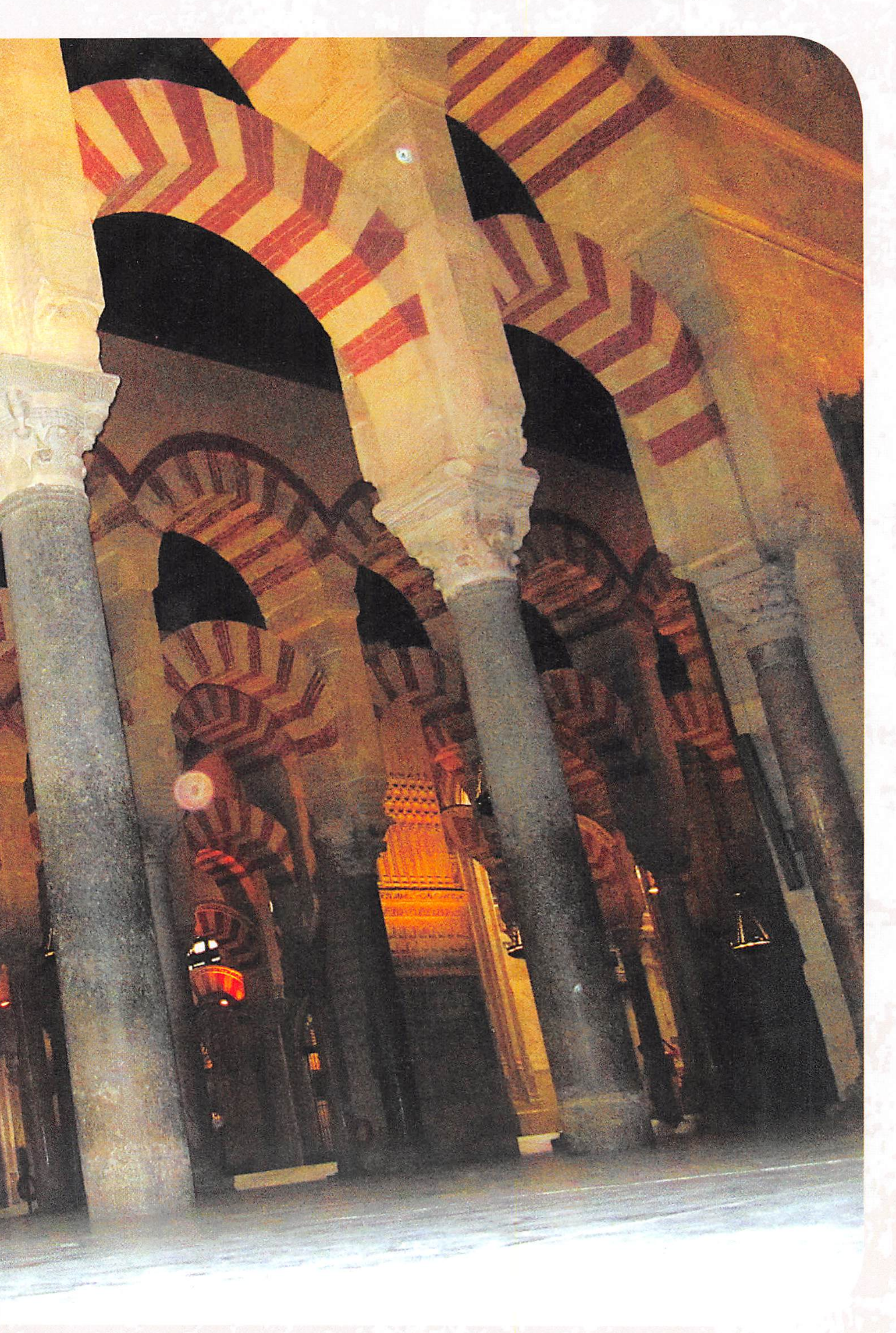
وما لزماننا عيب... سوانا!

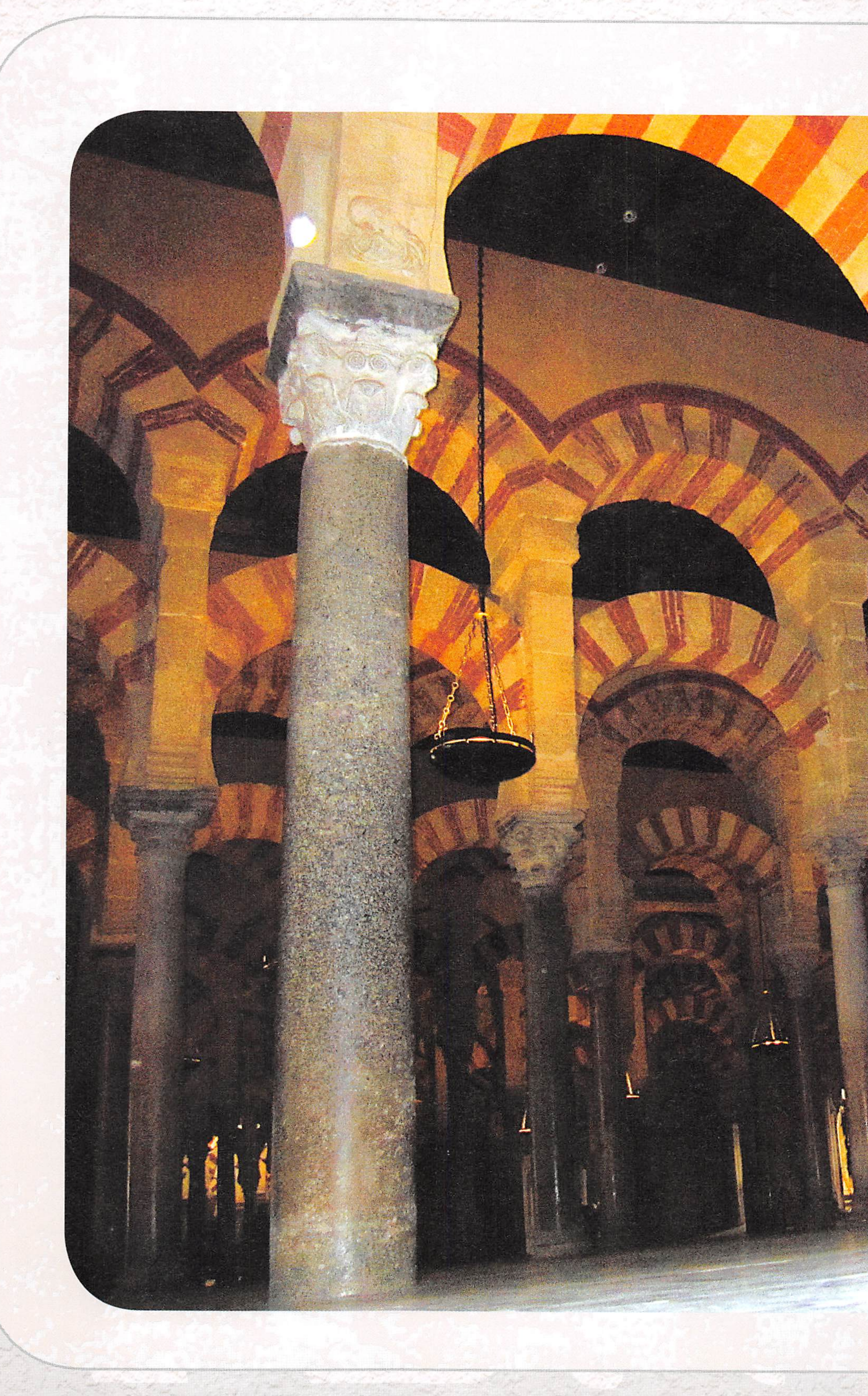
بين المحراب والصليب، فسحةٌ للتأمل بتلك الحروب التي قامت بين البشر، والدماء التي سالت على إثرها، ودوافعها من طمع وجهالة.. وتعصب! في سبيل الغايتين

غابة الأعمدة والأقواس



من أروقة بناء الداخل





العظيمتين.. النفوذ والمال.

نخرج بعد انتهاء جولتنا بين أرجاء المسجد إلى باحته متأملين المنارة، التي علمنا، أنها محدثةٌ بعد سقوط قرطبة، لكنها قد بُنيت على نمط أختها ،ونغادر من الباب الذي في أسفلها والذي سمي بباب الرحمة.

في الجنوب الغربي للمسجد يقع قصر الملك النصراني (Alcazar of the Christian Kings) وهذا القصر بني مكان قصر الداخل. وقد توالى عليه الحكام بتوالي العصور حتى آل للنصارى، وكان حجمه الأصلي أكبر مما هو عليه ومجاوراً للجامع وبينهما ممر يسمى بـ«الساباط»[4]. في هذا القصر كان قد أُسر أبي عبدالله الصغير لفترة من الزمن في أحد معاركه مع النصارى إبان محاولته استعادة بعض الحواضر الأندلسية.

في الجانب الغربيّ من هذا القصر، توجد حديقة غنّاء ذات تنسيق خلاب ونوافير جميلة، يتوسطها نصب تذكاري يصوّر الملكة إيزابيلا والملك فرناندو يقف أمامهما كريستوفر كولومبس طالباً الإذن والدعم له بالانطلاق لاستكشاف طريق جديد يوصل إلى الهند، وعندما حصل على التمويل اللازم انطلق باتجاه الغرب عابراً المحيط الأطلسي... مكتشفاً بالصدفة الأرض الجديدة... القارة الأمريكية!. وهناك من المصادر ما تخبرنا أنّ فكرة كروية الأرض لم تكن متداولة آنذاك في الفكر الجغرافي الأوروبي العام، ولكنها كانت متداولةً في الفكر الجغرافي العربي. وأيضاً تخبرنا بعض المصادر بوجود محاولات عربية لخوض غمار هذا البحر الكبير.. وتبديد ظلمته[5]

طابع أصدرته إسبانيا في ألفية ابن حزم

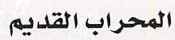


4 وهو الممر الذي يجوز منه الخليفة إلى المسجد .

5 كان العرب يطلقون عليه .. بحر الظلمات .

المحراب والنقوش الذهبية تحيط به





المحراب القديم

والتي بالفعل وصلت لجزائر في وسط المحيط وجاءتنا أخبارها متفرقة في الكتب. كما كانت هناك محاولات أخرى طواها النسيان واختفت، ولا أحد يعلم هل وصلت أم لا؟! لكن الثابت أنّ نسبةً كبيرة من البحارة الذين كانوا برفقة كريستوفر كولومبس كانوا من المسلمين الفارّين.. الهاربين من جحيم محاكم التفتيش، وربما هذا ما يفسر امتلاك الكثير من سكان أمريكا الجنوبية للسحنة العربية المميّزة!.

كان القصر والمسجد الجامع يُزوّدان بالماء عبر قنوات مخصصة لذلك بواسطة طاحونة ALBOAFIA WATER MILL أبو العافيةوهي ساقية تقع إلى الجنوب من قصر الملك النصراني على ضفاف نهر قرطبة يفصلها عنه شارعٌ صغير، وقد تمّ ترميم الطاحونة على مراحل، وتستطيع بوضوح رؤية النقوش الأندلسية على مبنى الطاحونة التي توقف عملها - كما يروى -في عهد الملكة إيزابيلا، عندما أبدت انزعاجها من صوت جنزير الساقية المزعج في الليل، والذي كان يقلق منامها!.

تمتاز المنازل المحيطة بالمسجد الجامع في قرطبة بالطابع العربي والدمشقي تحديداً. حيث الحارات الضيقة والبيوت ذات الأحواش الواسعة التي تتوسطها النوافير وتكسو

الأقواس



رواق وأقواس



جدرانها البيضاء الورود والخمائل. جنّةٌ صغيرة، لا تُرى إلا عندما يُفتح باب المنزل

وتدلف إليها. التأثير الدمشقي جليّ واضح، ومردّ ذلك إلى رغبة الداخل ومن ورائه أهل الشام ببناء مدينة على غرار دمشق، لعلّهم يشعرون بالألفة في هذا البلد البعيد عن موطنهم، هذه الألفة التي أججت الحنين في قلب الداخل.. ففاض الدمع.. شعراً:

أيها الراكب الميمم أرضـــي

أقري من بعضي السلام لبعضي

أن جسمي كما علمت بأرض



وفـــؤادي ومـــالـكيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنـــا

وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا

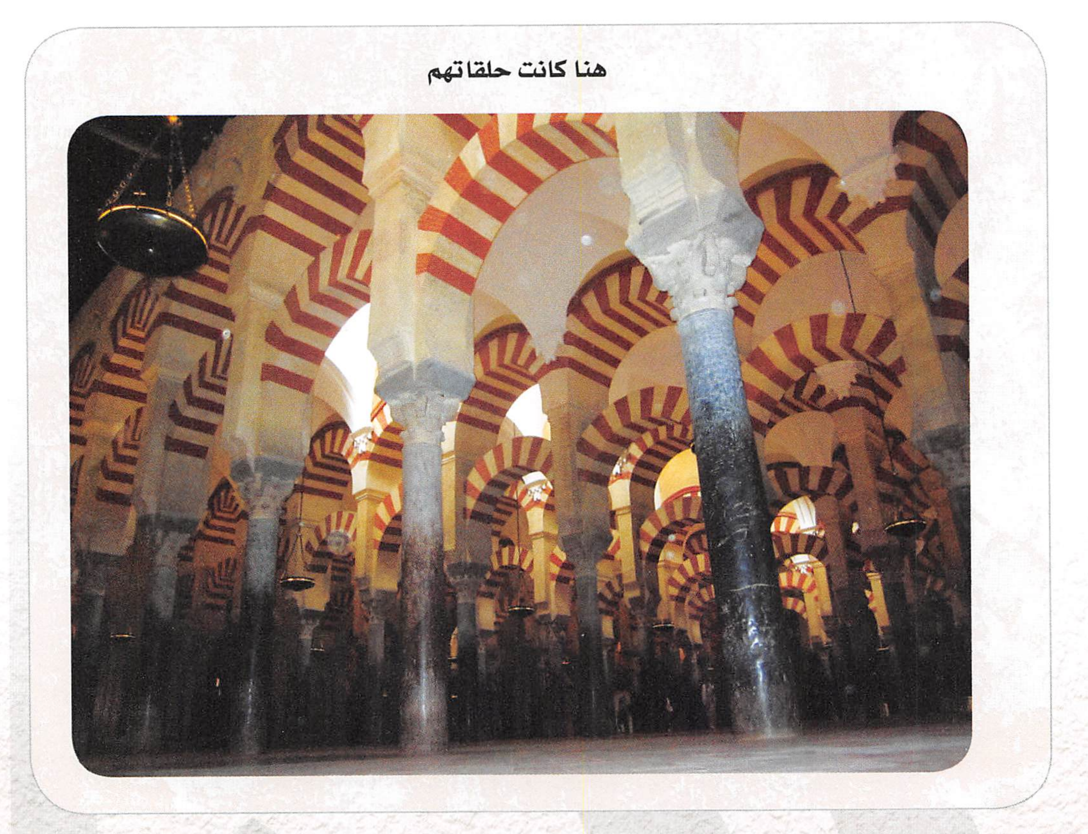
فعسى باجتماعنا سوف يُقضي

ولم يقدّر للداخل أن يلتقي بدمشق محبوبته مرةً أُخرى، حيث ذكريات الطفولة وملاعب الصبا... ونبض الشباب، دمشق التي سكنت وجدانه وهام بها وبعطر الياسمين في طرقاتها.

يحيط بالمسجد من الجهات الأربع العديد من الفنادق والمطاعم العالمية ذات المعمار الأندلسي المميّز، كما تتواجد بعض مطاعم الوجبات السريعة. إلى جانبها تتجاور العديد من محلات بيع التذكارات القرطبية ذات الندرة إلا في قرطبة.. خصوصاً! فحتى لا يكون الندم ثانياً.. احرص على اقتناء هذه التذكارات.. أولاً!.

إلى الشمال من المسجد الجامع وعلى مرمى حجر منه نجد، جامعة ابن رشد وقد ألحق بها مسجد الأندلسيين الذي يختزل في مساحته الصغيرة الجمال والذوق الأندلسي الرفيع، وله محرابٌ كفيل بتحويل أشد الأصوات بشاعةً إلى أصوات ندية تخشع لها الأفئدة وتدمع لها الأعين!. وهنا وقفة أُخرى للتأمل.. قبل ما يربو من السبع قرون، طرد المسلمون من هنا، وسط محاكم تفتيش وأساليب تعذيب مبتكرة لإجبارهم على تغيير دينهم إلى النصرانية، واستخدمت أساليب إجرامية غبية لإذابتهم في المجتمع، مثل إجبارهم على تغيير أسمائهم إلى أخرى إسبانية، ومنعهم من ارتداء الزي العربي، وعدم السماح لهم بإقامة مشاعر الدين الحنيف، وإجبارهم على أكل الخنزير، وعدم الاغتسال، حتى وصلت المأساة إلى الحرق. فهرب من

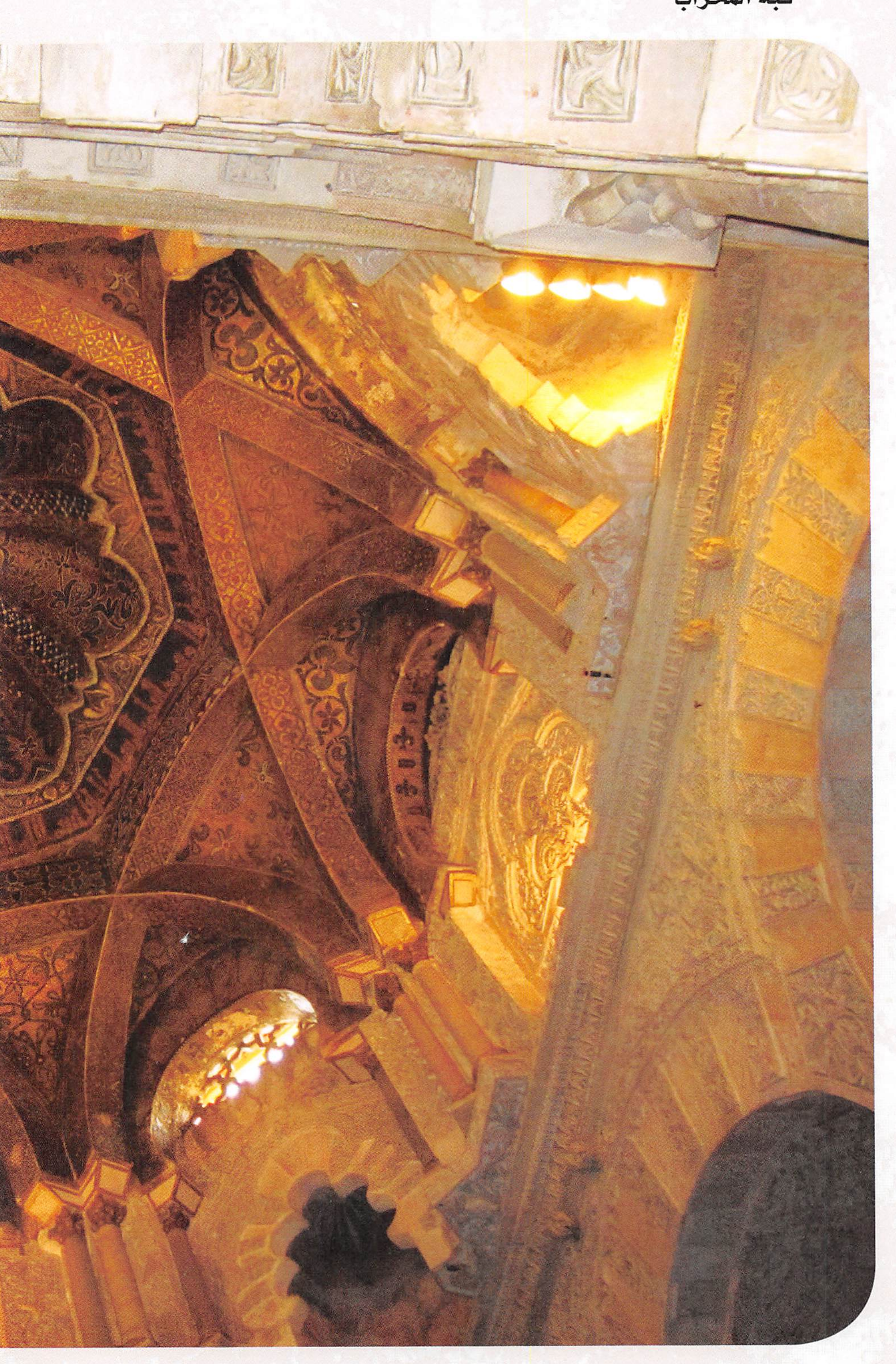
هنا كانت حلقاتهم



الأعمدة والعقود التي تحمل القبة



قبة المحراب





هرب ومات من مات إلا من استضعف وقلبه مطمئنٌ بالإيمان. وهاهم أحفادهم الآن يعودون إلى قرطبة. يعملون في نواحٍ شتّى مثل المحلات والمطاعم.. والبعض منهم قد تملّكها فعلاً!. وهم يؤدّون الصلاةَ معلنين مناسكهم بكل حرية في مسجد الأندلسيين الواقع على بعد أمتار من مسجد قرطبة، وفي مسجد المرابطين الواقع في حديقة المدينة الرئيسية. كل هذا يجعلنا نعمل عقولنا وقلوبنا.... كيف تسامح الإسبان مع المسلمين وغيرهم؟! وانتظمت الحياة في فلك القانون وسيادته، فلكلّ حقوق وعليه واجبات، ومن ثمّ يجب علينا أن ننظر إلى واقعنا نظرة الآس الذي يجس عليلاً، لنكتشف مواطن المرض فنعالجها بما استطعنا من أدوية وإن لم تُجد نفعا فالكي أو حتى البتر إذا احتاج الأمر!. خاصةً أنّ عالماً كبيراً، مثل ابن خلدون صنّف مصنّفاً شهيراً هو «تاريخ ابن خلدون» ووضع له مقدمة عظيمة عُرفت بـ«مقدمة ابن خلدون» وفيها يشرح المؤرخ بلغة الأديب ودقّة الفقيه، كيف تتأسس وتنمو وتزدهر... ثم تذبل وتتساقط الدول. كانت جلّ أمثلته وأفكاره نابعةً من الواقع العربي والإسلامي وليست من خارجه!. مبيّناً مكامن العلل وطرق علاجها. وما خطّه ابن خلدون في سفره عُني

رأس عمود



مسيح بين الأقواس



قبة المنتصف





عقود قبة المنتصف



به الغرب أشدّ العناية ومحّصه تمحيصاً، ليستخرجوا منه الحكمة وسنن الحياة، بعدها طوّبوا ابن خلدون كأحد المؤسسين لعلم الاجتماع. وشهرته في الجامعات وفي الأوساط الثقافية الغربية تفوق شهرته في الوطن العربي... الكبير! ومن المضحك المبكي، أنّ أكثر الناس قد سمعوا بابن خلدون كأحد الشوارع والساحات الرئيسة في العديد من البلدان العربية، أو سمعوا به من خلال مشهد من مسرحية عربية شهيرة، يمسك فيها أحد أبطال المسرحية بقطعة ملابس نسائية ويضعها على صدره صارخاً... مقدمة ابن خلدون!

نعود من واقعنا الحاضر إلى قرطبة، ونتجوّل في طرقاتها فنجد النصب التذكارية للعديد من الشخصيات الإسلامية وأخرى نصرانية ويهودية.. التي عاشت وأبدعت في قرطبة تحت ظلال التسامح الحضاري، ونُقشت أسماؤها بمداد الذهب في التاريخ الأندلسي. ففي الحديقة الواقعة شمال قصر الملك النصراني نجد تمثالاً نصفياً للخليفة الأموي الحكم المستنصر، وفي نفس الحديقة يوجد نصب تذكاري من الرخام تحت قبة ذات قرميد أندلسي أخضر تخرج منه يدان تتلامس أناملهما في رقة شاعرية، ولا غرو فهذا النصب لابن زيدون ومحبوبته الأثيرة ولّادة بنت المستكفي، وخطّ عليه –باللغة العربية– أربعة أبيات لولّادة أعقبها أربعة لإبن زيدون.

تبوح ولادة له:

أغار عليك مـن عينـي ومنـــي
ومنـــك ومـن زمانـك والمكـان
ولو أنـي خبـأتـك فـي عيـونـي
إلـى يـوم القيـامـة مـا كفـانـي

فيرّد ابن زيدن بزفرة المتيّم:

يـا من غدوت بين النـاس مشتهـرا
قلبي يقـاسي عليك الهـم والفكـرا
إن غبت لـم ألق إنسـاناً يؤانسنـي
وإن حضرت فكل النـاس قد حضرا

قصة الحب بين ابن زيدون وولّادة بنت المستكفي تحتل مكان القلادة في عقد تاريخ الأدب الأندلسي. فابن زيدون.. الفتى المخزومي، الشاعر الأندلسي الأشهر، وسليل

نقوش باب الرحمة



العائلة الأرستقراطية، قد عصفت به قصة حب مع ابنة أضعف خلفاء بني أمية... المستكفي بالله!. الذي لم تزد مدة خلافته عن العامين... حتى اغتيل بآخرها!.ولّادة ذات الجمال الباهر التي يطول في وصفه المقال، وتنتهي الكلمات.. وتجفّ الأقلام.. ويجدب الخيال.

كما تشاء فقلـــي، لست منتقلاً،

لا تخشَ منــــي نسيـانـاً ولا بدلاً

وكيف ينساك؟! من لم يدر بعد ما

طعم الحيـاة، ولا بالبعد عنك سلا

ابن زيدون



اشتهرت بأنها صاحبة المنتدى الأدبي الذي كان الأدباء والشعراء يؤمّونه من جميع أنحاء الأندلس.. يحترقون شعراً طلبا لرضاها ولنيل بسمة من محياها. وهي الشاعرة التي كان من سيرتها ما يتخللها بعض ضبابية!. تارةً توصف بالصون والعفاف وتارةً... بالمجون! واشتهر على لسانها بيتان كانا سبباً في هذا التصور الغائم عنها.. تقول فيهما:

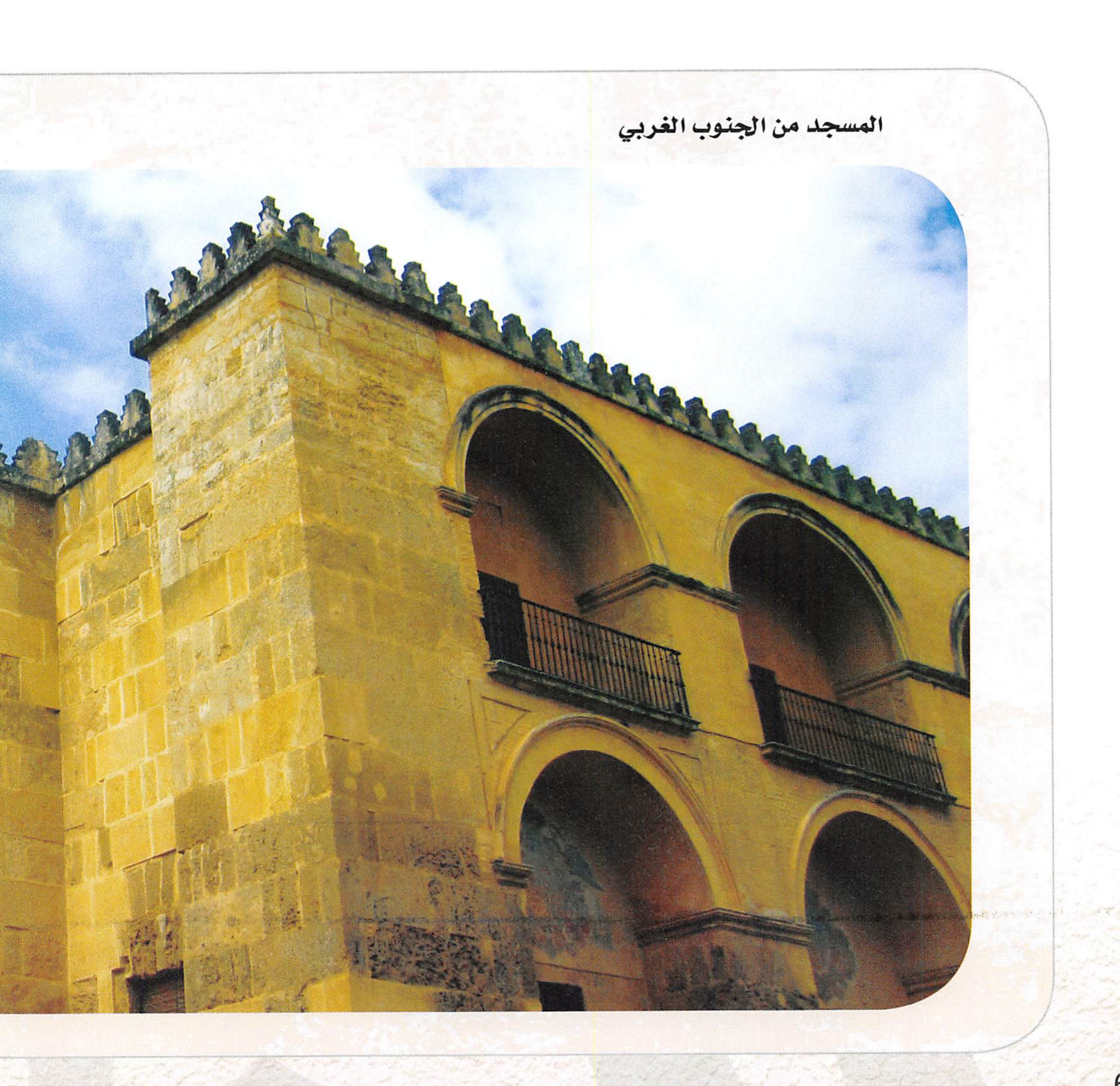
أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها!

وكنت قد قرأت لباحثة غربية أيدت فيه ما ذهب إليه رأي أديبنا الدكتور غازي القصيبي بأن صاحبة البيت الأول يستحيل أن تكون هي نفسها صاحبة البيت الثاني. إلا إن كانت تعاني من انفصام حاد في الشخصية! الجملة الأخيرة لي وليست للقصيبي!.

عاش ابن زيدون في عصر أفلت فيه شمس بني أمية بعدما تصدّع بناء دولتهم ثم انهار. وقامت أمام عينيه دولة بني جهور من تحت أنقاضها، وكان شاهداً على انتشار سرطان اقتسام مقاطعات ومدن وقرى الأندلس من قبل أقوى عائلاتها. بل وشارك في تدشين مرحلة مهمة من تاريخ الأندلس سمّيت بـ«عصر الطوائف».

شغف بولّادة.. فأبدع في حبها القصائد... وهل من شرارة تستعر لها القوافي إلا... الحب؟ وهل من وقود لها إلا... البين؟. أنشد فيها قصيدته النونية، التي تألقت، حتى

المسجد من الجنوب الغربي



غدت من عيون الشعر، يردها كل ظامئ مُضنى القلب موجعه... ويقول فيها:

أضْحَى التّنائي بَديلاً عنْ تَدانينَا،

وَنَـابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَـا

ألاّ وَقَد حـانَ صُبـحُ البَيْنِ، صَبّحَنـا

حَيْنٌ، فَقَـامَ بِنَـا للحَيْنِ نَاعينَـا

مَنْ مبلغُ الملبسِينـا، بانتزاحِهـمُ،

حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا

أَنَّ الزمـانَ الَّذي مـا زالَ يُضحِكُنـا



أُنسـاً بِقُربِهِـمُ قَد عـادَ يُبكينـا

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهوَى فدعَوْا

بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدهـر آمينَـا

فَانحَـلَّ مـا كـانَ مَعقُوداً بأَنْفُسِنَـــــا؛

وَانْبَتَّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا

وَقَدْ نَكُـونُ، وَمَا يُخشَـى تَفَرّقُنَـــا،

فاليومَ نحنُ، ومَا يُرْجى تَلاقينَا

يا ليتَ شعرِي، ولم نُعتِبْ أعاديَكم،

هَلْ نَالَ حَظّاً منَ العُتبَى أعادينَا

لم نعتقدْ بعدكـمْ إلاّ الـوفاء لكُـمْ

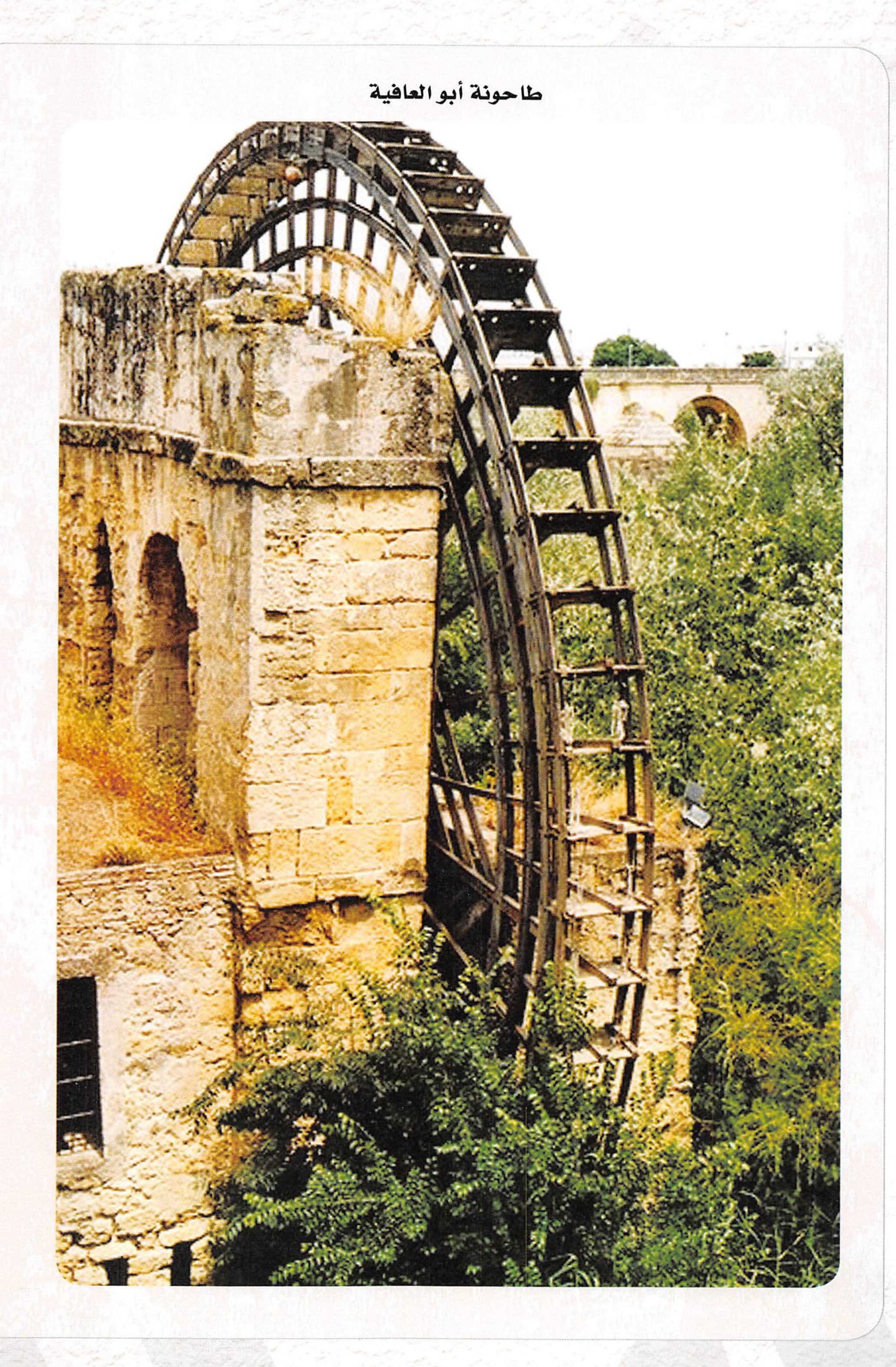
رَأيـاً، ولَمْ نَتَقلّدْ غَيـرَهُ دِينَـــا

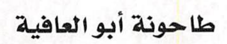
ما حقّنــا أن تُقِرّوا عينَ ذي حَسَدٍ

كريستوفر كولمبس يطلب الأذن



طاحونة أبو العافية





طاحونة أبو العافية

حوش بيت قرطبي



بنا، ولا أن تَسُرّوا كاشِحاً فِينَا

كُنّا نرَى اليَأسَ تُسْلِينا عَوارِضُه،

وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لليأسِ يُغْرِينَا

بِنْتُم وَبِنّا، فَما ابتَلّتْ جَوانحُنَا

شَوْقاً إلَيكُمْ، وَلا جَفّتْ مآقِينَا

نَكادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا،

يَقضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا

حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فغَدَتْ

سُوداً، وكانتْ بكُمْ بيضاً لَيَالِينَا

إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ من تألُّفنا؛

وَمَرْبَعُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصافِينَا

وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دانيةً

قطَافُها، فَجَنَيْنَا مِنْـهُ ما شِينَا
لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السّرُورِ فَمـا
كُنْتُمْ لأروَاحِنَـا إلاّ رَيـاحينَـا
لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يغيّرُنـا؛
أنْ طالَما غَيّرَ النّأيُ المُحبّينَا!
وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أهْـواؤنَـا بَـدَلاً
مِنْكُمْ، وَلا انصرَفتْ عنكمْ أمانينَا
يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ به
مَن كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا
وَاسألْ هُنالِكَ: هَلْ عَنّـى تَذكُّرُنـا
إلفاً، تذكُّرُهُ أمسَـى يعنّينَـا؟
وَيَا نسيـمَ الصَّبَـا بلّغْ تحيّتَنَـا

مسجد الأندلسيين



الحكم المستنصر



نصب ولادة وابن زيدون



مَنْ لَوْ على البُعْدِ حَيّا كان يحيِينا

فهلْ أرى الدّهرَ يقضينا مساعفَةً

مِنْهُ، وإنْ لم يكُنْ غبّاً تقاضِينَا

رَبيبُ مُلكٍ، كَأنّ اللّهَ أنْشَأهُ

مسكاً، وَقَدّرَ إنشاءَ الوَرَى طِينَا

أوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً، وَتَوجهُ

مِنْ نَاصعِ التّبرِ إبْداعاً وتَحسِينَا

إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ، رَفاهِيّةً،

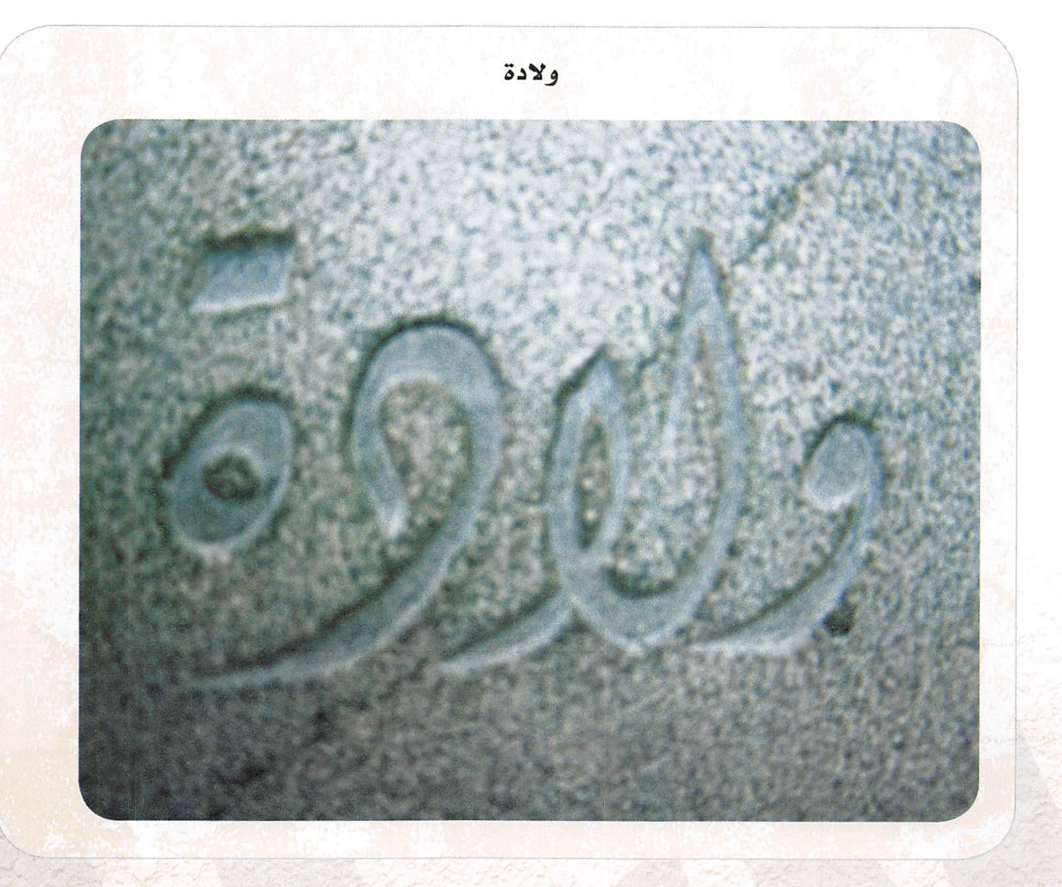
تُومُ العُقُودِ، وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا

كانتْ لَهُ الشّمسُ ظئراً في أكِلّته،

بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا

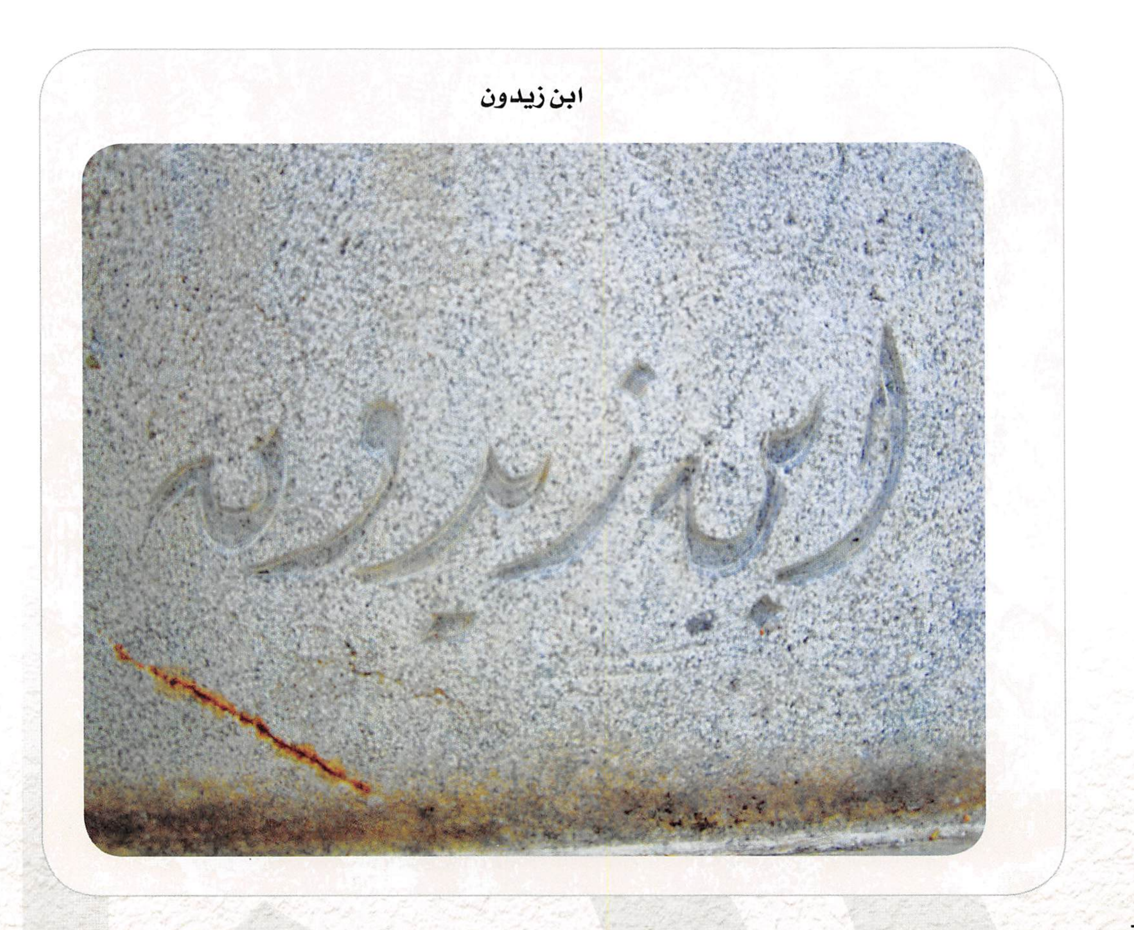
كأنّما أثبتَتْ، في صَحنِ وجنتهِ،

ولادة



زُهْرُ الـكَوَاكِبِ تَعـويذاً وَتَزْيِينَــا
ما ضَرّ أنْ لمْ نَكُنْ أكفاءه شرَفاً،
وَفي المَـوَدّة كـاف مِنْ تَكافِينَــا؟
يا رَوْضَةً طالَما أجْنَتْ لَوَاحظَنَا
وَرْداً، جَلاهُ الصِّبا غضّاً، وَنَسْرِينَا
ويَا حياةً تمَلّيْنَا، بـزهــرَتهَـا،
مُنىً ضروبَــاً، ولذّاتٍ أفــانينَــا
ويَا نعِيماً خطرْنَا، مِنْ غَضارَتِه،
في وَشْي نُعْمَـى، سَحَبنا ذَيلَه حينَـا
لَسنــا نُسَمّيك إجْلالاً وَتَكْرِمَــة؛
وَقَدْرُك المُعْتَلــي عَـنْ ذاك يُغْنِينَـا
إذا انفرَدَتِ وما شُورِكتِ في صِفَة،

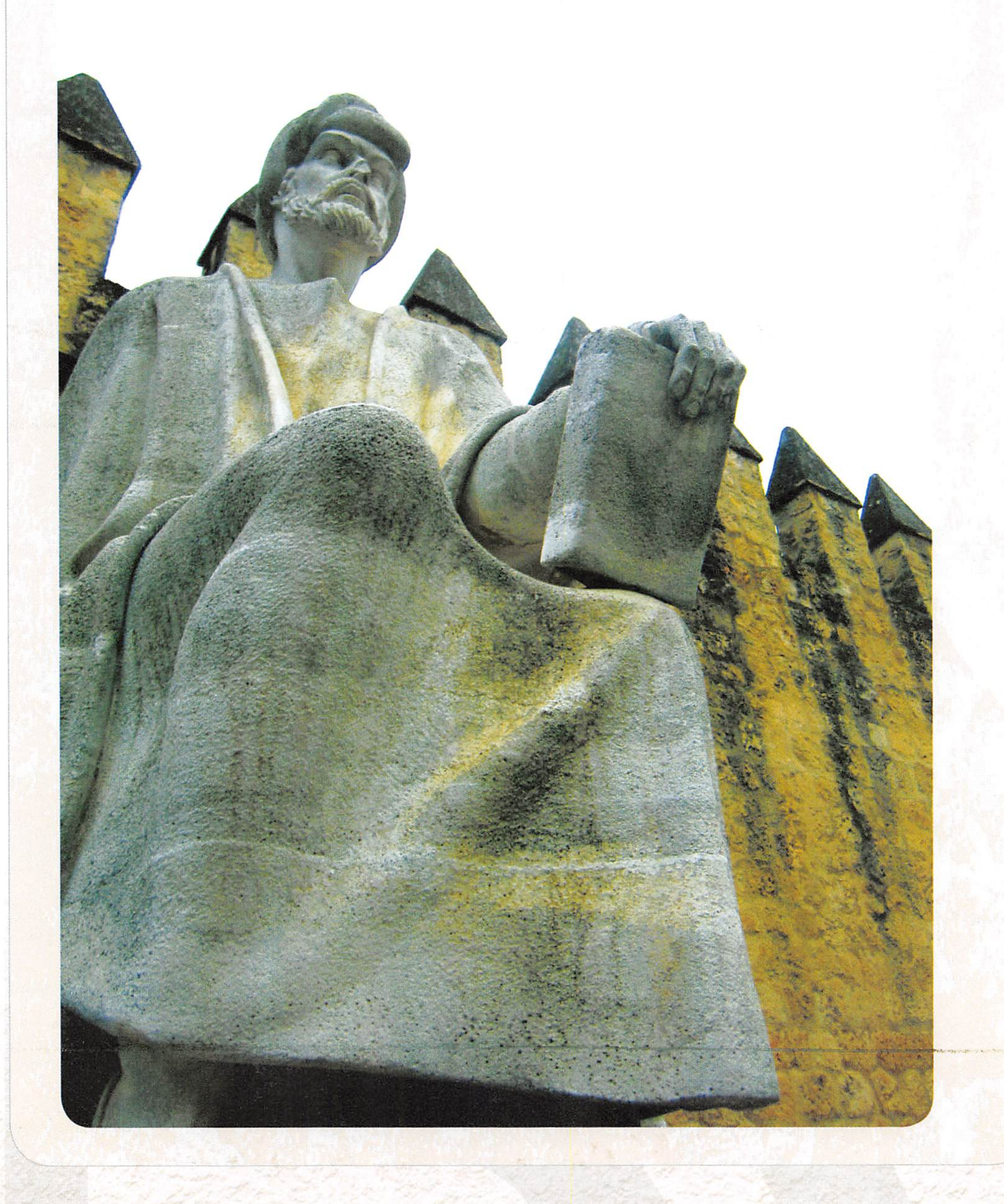
ابن زيدون



-برج حراسة



ابن رشد وسور قرطبة من خلفه



فحسبُنا الوَصْفُ إيضَاحــاً وتبْيينَــا

يا جنّةَ الخلدِ أُبدِلنا، بسدرَتِها

والكوثرِ العذبِ، زقّوماً وغسلينَا

كأنّنَا لم نبِتْ، والوصلُ ثالثُنَا،

وَالسّعدُ قَدْ غَضَّ من أجفانِ وَاشينَا

إنْ كان قد عــزّ في الدّنيا اللّقاءُ بكمْ

في مَوْقِفِ الحَشرِ نَلقــاكُمْ وَتَلْقُونَـا

سِرّانِ في خــاطِرِ الظّلمـاءِ يَكتُمُنـا،

حتى يكادَ لســانُ الصّبحِ يفشينَـا

لا غَرْوَ في أنْ ذكرْنا الحزْنَ حينَ نهتْ

عنهُ النُّهَى، وَتركْنا الصّبْرَ ناسِينَا

إنّا قرَأنا الأسَــى، يوْمَ النّوى، سُــوراً

أرضية قبو البيت العربي



مَكتوبَة ، وَأخَذْنَا الصّبرَ تلقينا
أمّا هواكِ، فلمْ نعدلْ بمَنْهَله
شُرْباً وَإنْ كانَ يُرْوِينَا فيُظمِينَا
لمْ نَجْفُ أفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ
سالِينَ عنهُ، وَلم نهجُرْهُ قالِينَا
وَلا اخْتِياراً تَجَنّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ،
لكنْ عَدَتْنَا، على كُرْهٍ، عَوَادِينَا

أحواض الماء المتدرجة



نأسَـى عَليكِ إذا حُثّتْ، مُشَعْشَعَـةً،
فِينـا الشَّمُـولُ، وغنَّانَـا مُغنّينَـا
لا أكْؤسُ الرّاحِ تُبدي من شمائِلِنَا
سِيّمـا ارْتيـاح، وَلا الأوْتـارُ تُلْهينَـا
دومي على العهدِ، ما دُمنا، مُحافِظَةً،
فالحرُّ مَنْ دانَ إنْـصافاً كمـا دينَـا
فَما استعضْنـا خَليـلاً منكِ يحبسُنـا



باب المدور





وَلا استفدْنا حـبيبـاً عنـكِ يثنينَـا

وَلَوْ صبَا نحوَنَا، من عُلوِ مطلعه،

بدرُ الدُّجى لم يكنْ حاشاكِ يصبينَا

أبْكي وَفاءً، وَإنْ لم تَبْذُلي صِـلَةً،

فَالطّيفُ يُقْنِعُنَـا، وَالذّكرُ يكفِينَـا

وَفي الجَوابِ مَتَاعٌ، إنْ شَفَعتِ به

بيضَ الأيادي، التي ما زِلتِ تُولينَا

إليكِ منّـا سَـلامُ اللَّهِ مـا بَقِيَتْ

صَبَـابَة بِكِ نُخْفيـهَـا، فَتَخْفينَـا

أبدع ابن زيدون في نثره كما في شعره، فكتب «الرسالة الهزلية»، وهي رسالةٌ ساخرة، وجّهها صفعةً لغريمه ابن عبدوس الذي زاحمه على قلب ولّادة. وكان قد كتبها على

فناء البيت العربي



القبو

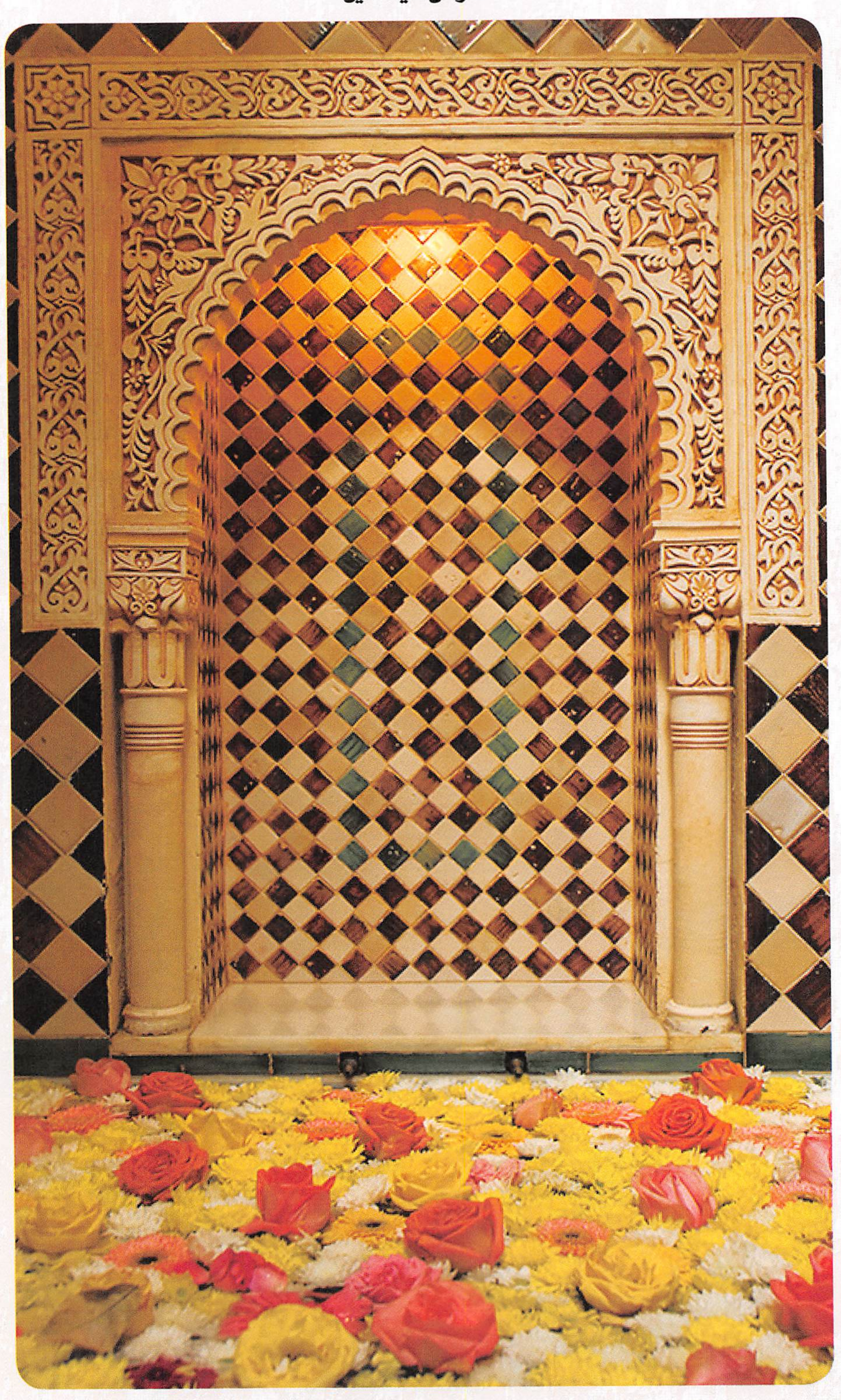


مكتبة البيت العربي



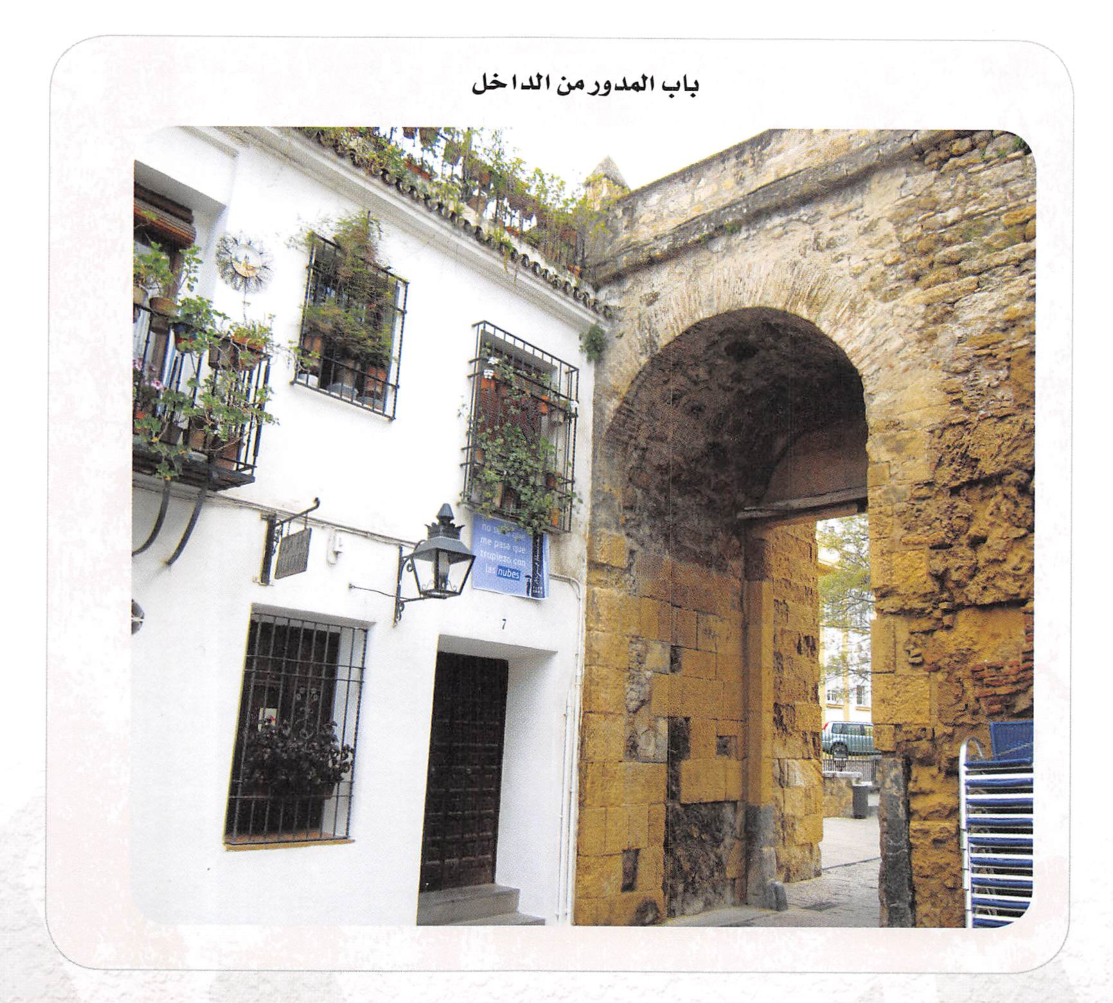


حوض الياسمين



لسان ولّادة، يذمّ فيها ابن عبدوس ويهجوه، وكانت هذه الرسالة الساحقة الماحقة لسمعة غريمه، سبباً في فتور العلاقة بين ولّادة وابن زيدون.. وانقطاعها بعد ذلك.. بل وتحوّلها إلى هجاء مرير!. وله أيضاً «الرسالة الجدية» التي وجهها لحاكم قرطبة ابن جهور يستعطفه فيها، بعد أن ألقي في غياهب السجن، نتيجة اتهامه بالمشاركة في التخطيط لزعزعة حكم بني جهور، ثم شُفع له بعد أمد، فلبث في قرطبة حيناً، ارتحل بعدها إلى إشبيلية وأقام في كنف آل عباد - حكام إشبيلية - فطاب له المقام، وهناك تألّق في البلاط الإشبيلي وتسنّم منصبه القديم ذو الوزارتين[6]، كما كان شاعر المملكة الأول بلا منازع، وفيها توفي ودفن. بعد أن ثوى بعشرين عاماً توفيت ولّادة في الثمانين

باب المدور من الداخل



6 يطلق عليه حاليا لقب السفير.

من عمرها. لم يتوّج ذلك الحب بميثاق غليظ... بل بقصائد لا تبليها الأيام والليالي، كدأب العشاق في قصصهم، ممن لا يلتقون إلا تحت.. ظلال القصائد.

إذا حاذينا السور القديم - شمالي الحديقة - نجد تمثالاً للعالم والفيلسوف المسلم ابن رشد المشهور في الغرب بين الأوساط العلمية والباحثين باسم Averros ويعد من أهم شارحي فلسفة أرسطو - الملقب بالمعلم الأول - على الإطلاق، وله كتب عديدة في شتى أنواع المعارف مثل «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» الذي يلازم كل طالب للفقه في بداية تدرجه في طلب العلم، ولديه كذلك «تهافت التهافت» الذي ردّ به على كتاب «تهافت الفلاسفة» الذي ألفه أبو حامد الغزالي في نقد الفلاسفة، كما برع في الطب والفلك وعلوم اللغة وكان من حفّاظ ديوان المتنبي.. شاعره الأثير، على أنّه فقيه جهبذ، برع في المذهب المالكي مذهب أهل الأندلس، وتولّى منصب القضاء في عهد الموحدين، مقرباً عندهم... مقدماً، كما كان جده من قبله، فهو ينحدر من

خريطة الأدريسي



موسى ابن ميمون

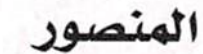


محمد الغافقي



أسرة اشتهرت بالعلم والفقه كدأب أغلب الأسر القرطبية.

نسير إلى الشمال بمحاذاة بقايا السور الذي كان كالدرع الحامي للمدينة يوماً، وهناك برج لحراسة المدينة لا يزال صامداً، ونمرّ على أحواض للمياه متدرجة من أعلى إلى أسفل، تسقي إحداهن الأخرى، تحفّها الورود المنسّقة بجمالية مريحة للعين وباعثة على السرور، حتى نصل إلى باب المدور Puerta de Almodovar أحد الأبواب المتبقية من سور المدينة، نلج منه ونلتف يميناً لندخل حارة اشتهرت بأنها كانت حارة لليهود في الأندلس قديماً، وهناك متحفٌ للتاريخ اليهودي بهذا الحي، يجاوره البيت العربي وهو بيتٌ يستعرض معيشة العرب في قرطبة.. الزمن الجميل، يضم في حجراته التراث العربي من أسرّة للجلوس وزخرفات ومرايا ملونة، والداخل إليه يستشعر في جوانحه كيف كان المسلمون يحيون على هذه الأرض، تتجول في أنحاءه فتطرب. وتنزل إلى القبو حيث كان الفرن وبئر الماء، ثم نتأمل قليلاً في حديقة



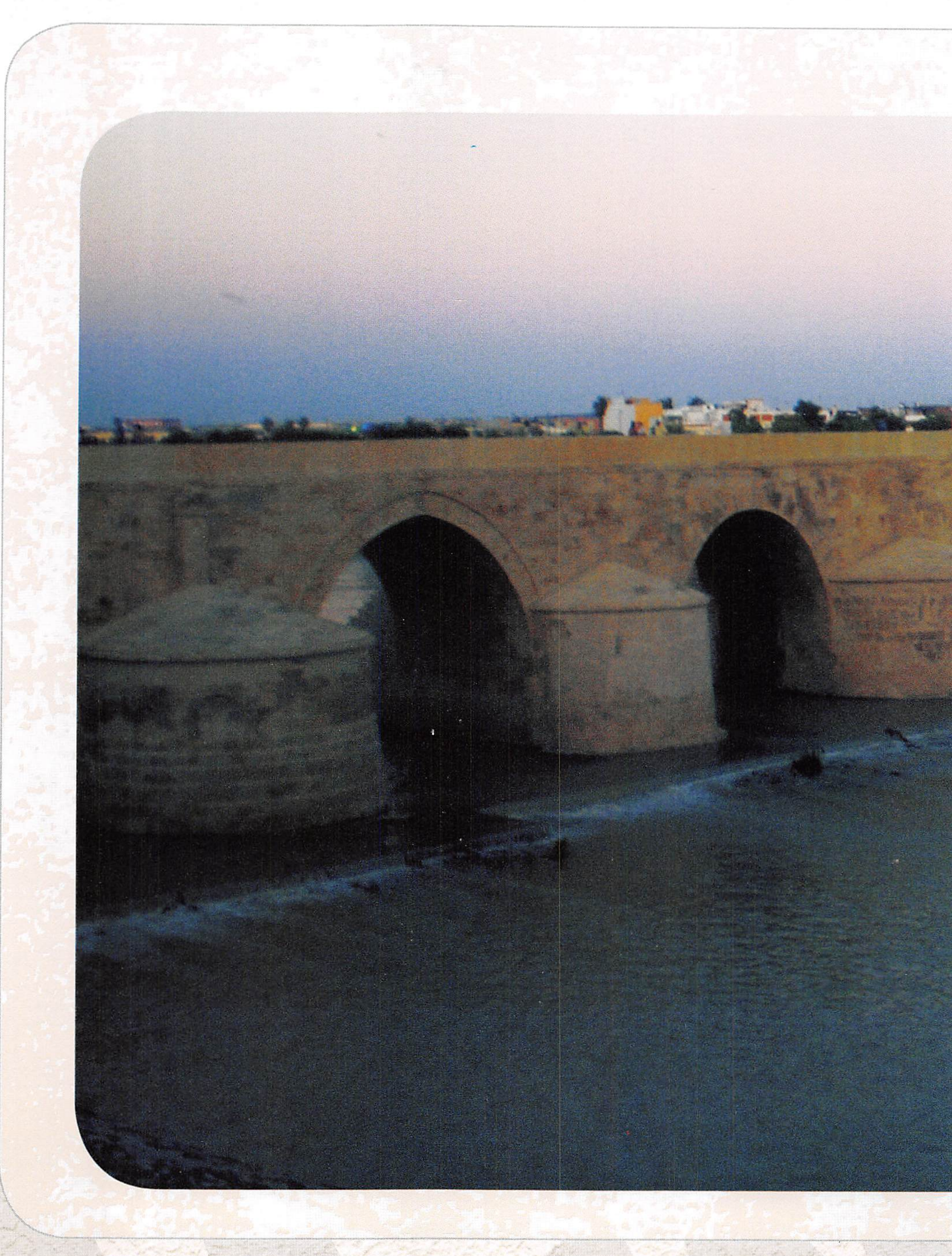
المنصور

البيت التي امتلأت بالياسمين وأشجار البرتقال المثمرة وأحواض ماء تطفو عليها أوراق الورد. وعلى أرفف غرفة للقراءة صفّت كتبٌ تروي التاريخ الأندلسي بلغات عدة، والمفرح أنّ من بين الكتب كتباً باللغة العربية. إلى اليمين من المتحف اليهودي، يطالعنا تمثال العالم والفيلسوف اليهودي الشهير موسى بن ميمون المعروف عند

قنطرة قرطبة



الغرب باسم Maimonaids صاحب ثالث أهم كتاب في العقيدة اليهودية بعد التوراة والتلمود المسمى بـ«دليل الحائرين» وقد كتبه باللغة العربية لأنها اللغة السائدة للعلوم كافة.. من نظرية وتطبيقية. وتشير بعض المصادر إلى تأثره بما شرحه وابتدعه ابن رشد من فلسفة أرسطو واليونان. في هذا الحي يصادف الواحد منا تلك المجموعات

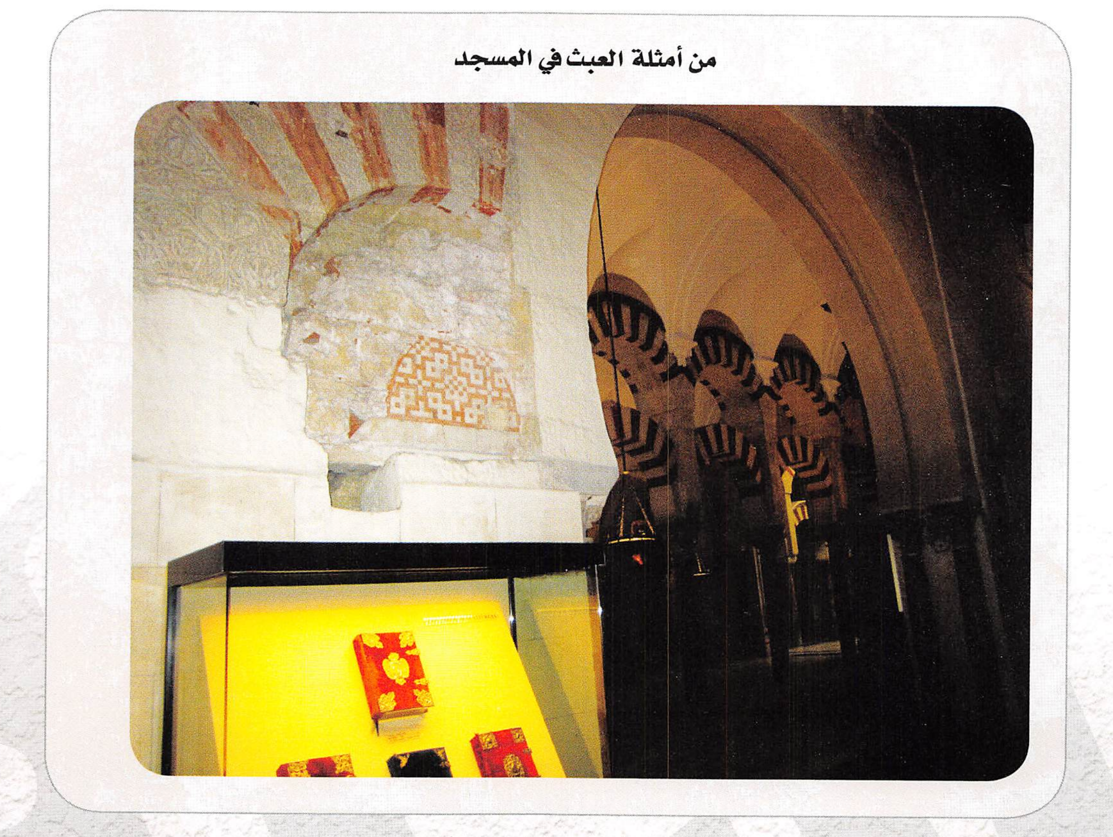


برج القلعة الحرة



السياحية اليهودية بكثافة، ولعلّ شعوراً بالضيق يداهمه عندما لا يجد اهتماماً كافياً من السياح العرب بهذه الآثار، على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، ممن يتواجدون بكثافة على شواطئ.. ماربيا وملقا وبرشلونة!. هذا وقد خلت قرطبة وإشبيلية وغرناطة من على خرائطهم السياحية.. إلا في ما ندر، على الرغم من سهولة الوصول إليها، وكثرة العروض المغرية من قبل الشركات السياحية. نقفل راجعين إلى باب المدور Puerta de Almodovar ونلتف يميناً، لنجد تمثالاً نصفياً للعالم محمد الغافقي وهو من أشهر الأطباء المسلمين، الذي حذق وبرع في طب العيون خاصةً، من ذلك اكتشافه علاجاً لمرض الرمد ظلّ مستخدماً حتى الحرب العالمية الأولى!. وللحارات الجميلة المزيّنة بالزهور في قرطبة أسماء حكام وعلماء المسلمين ومن اشتهر من فناني ذلك الزمن. فهناك شارع المظفر والمحراب والمنصور وزرياب الذي اشتهر بإضافته للوتر الخامس لآلة العود وكذلك إدخاله لكثير من التحسينات في نمط حياة الأندلسيين، كأنواع الأقمشة وألوان الملابس وما يناسبها حسب الفصول، ومن تعديل أكمامها بطريقة مبتكرة وتعليمهم الأكل بالملعقة والسكين، كما ابتكر أصنافاً من

من أمثلة العبث في المسجد



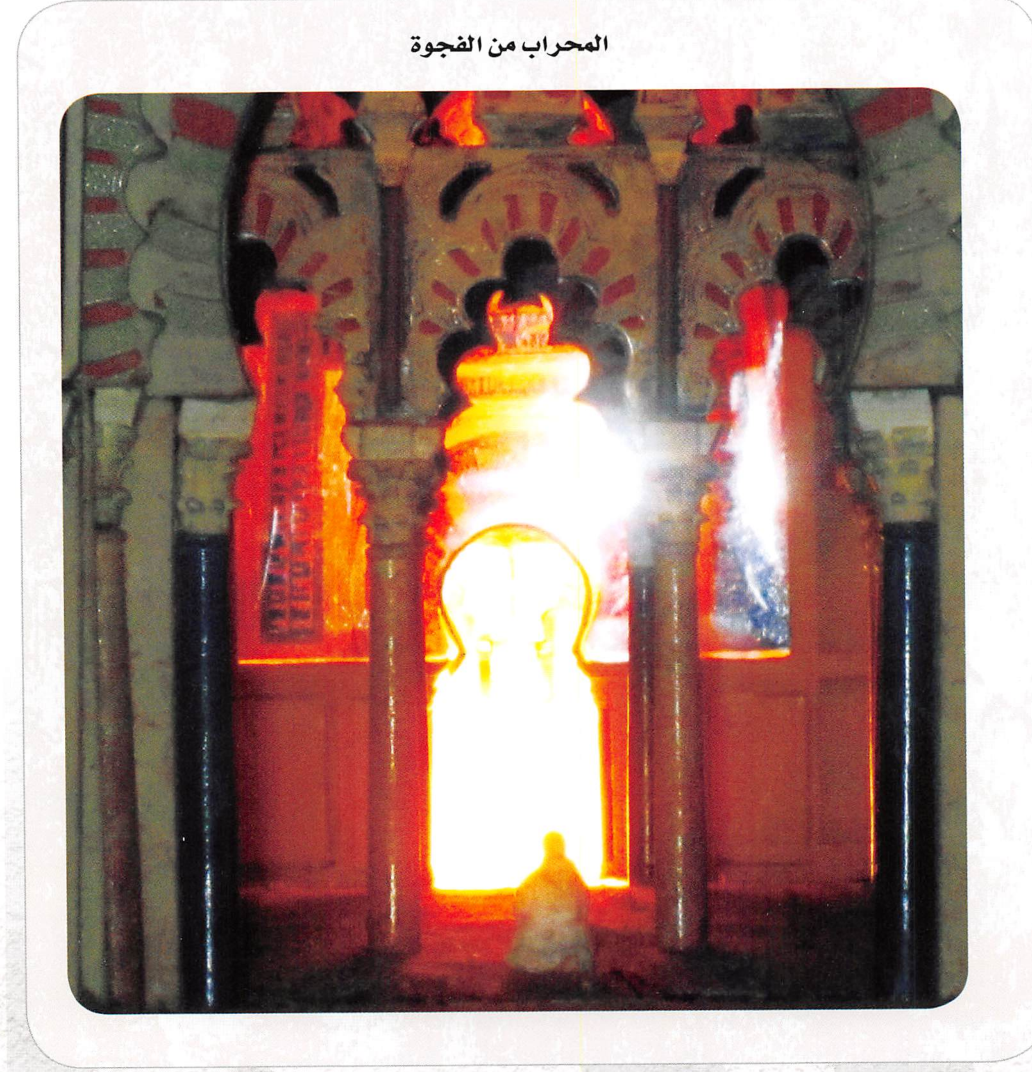
الإسطرلاب



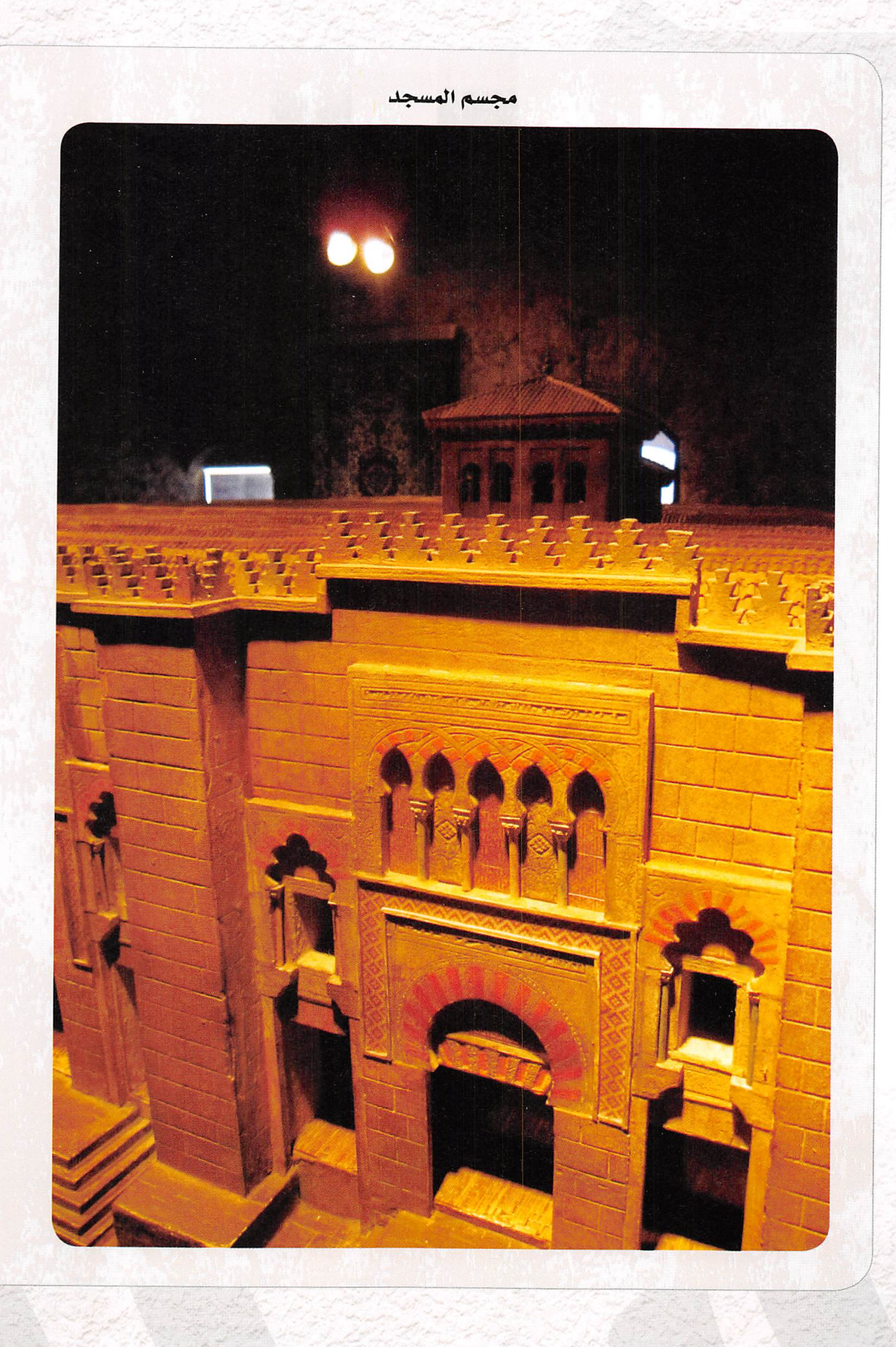


الطعام أغنت المائدة الأندلسية بنكهات جديدة جاء بها من الشرق. ولطالما كانت قرطبة عبر تاريخها الطويل وتوالي السنين قبلةً للعلماء والأدباء فقد كانت أكبر مدينة مأهولة بالسكان في أوروبا أثناء العصور الوسطى، والمدينة الوحيدة المزودة بإضاءة ليلية منظّمة، ولديها نظام متطور للصرف الصحي فريد من نوعه، في الوقت الذي كانت لندن وباريس مجرد تجمع لأكواخ وأعشاش تسكنها قبائل بدائية حول نهري التايمز والسين، وكان التفاخر بقرطبة بكثرة الكتب واقتناء أجودها وأحدثها وهي سبيل إلى سُمعة كانت تصعد بصاحبها إلى مراتب عليا بالمجتمع قصد الشهرة وحتى يشار إليه بالبنان، وهذا النص للمقري في كتابه «نفح الطيب» لنقرأه: «أقمت مرةً في قرطبة ولازمت سوق كتبها مدةً أترقب كتاباً كان لي بطلبة اعتناء، إلى أن وقع وهو

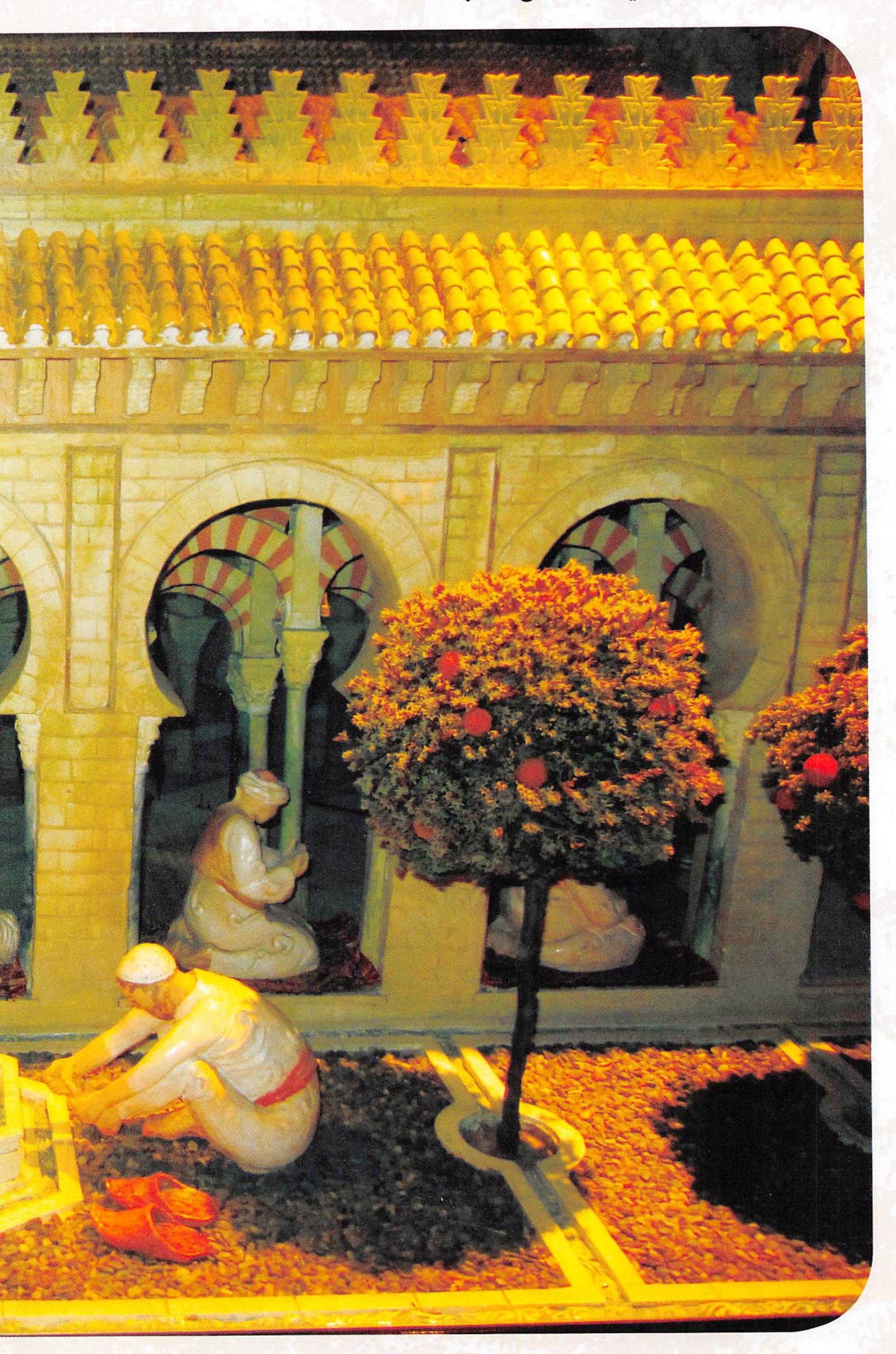
المحراب من الفجوة

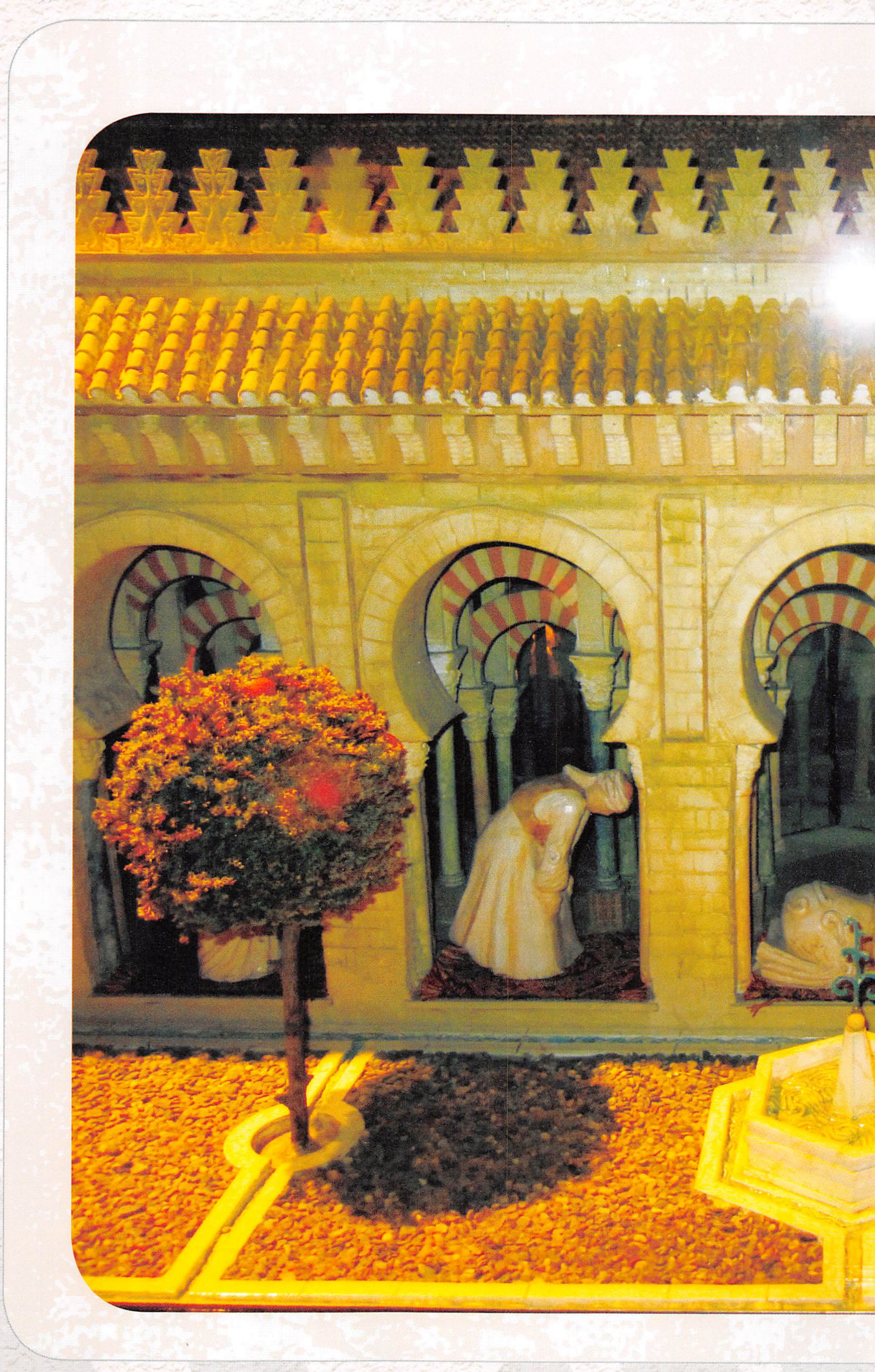


مجسم المسجد



وضوء المسلمين في صالة تاريخ قرطبة

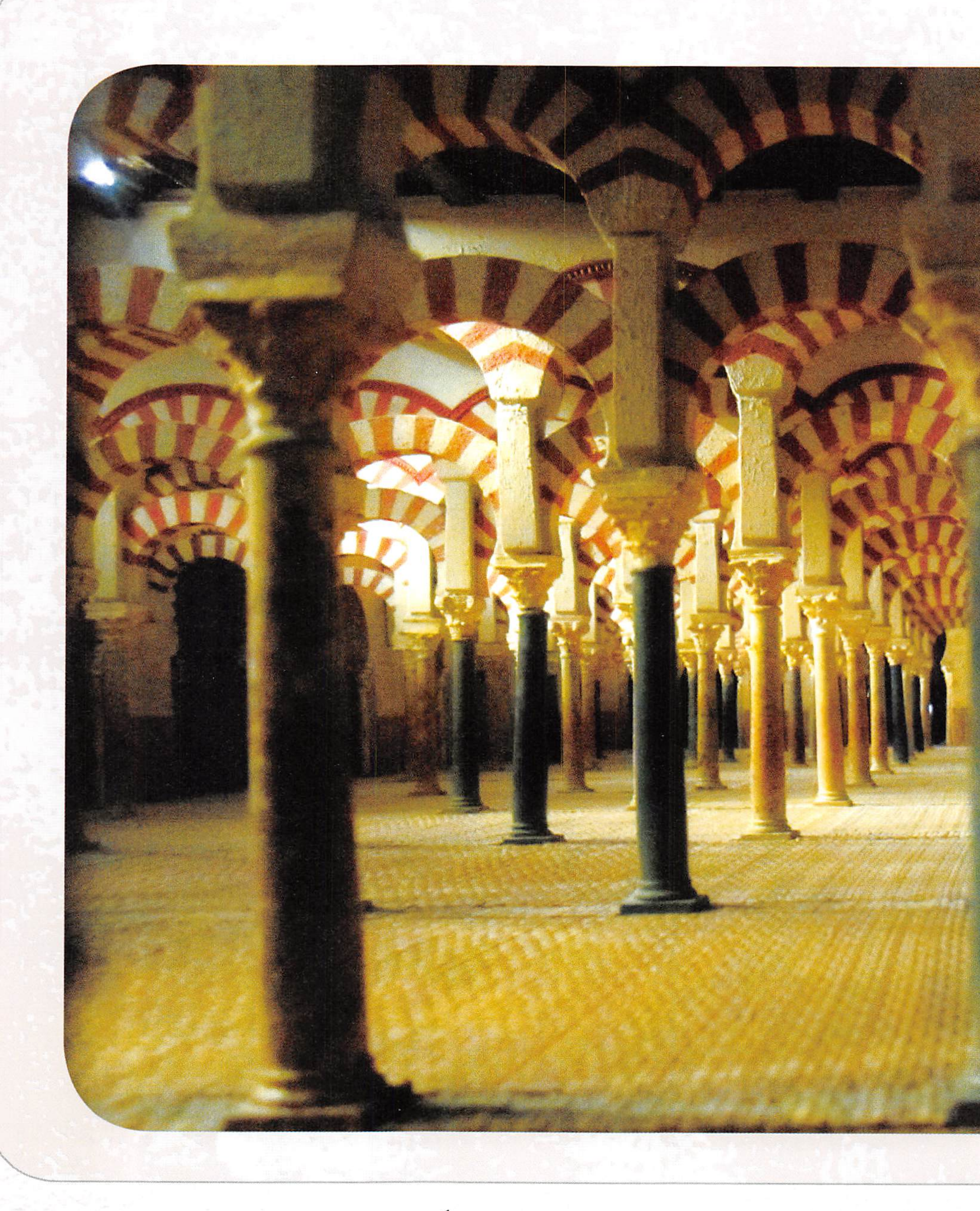




مجسم المسجد من الداخل

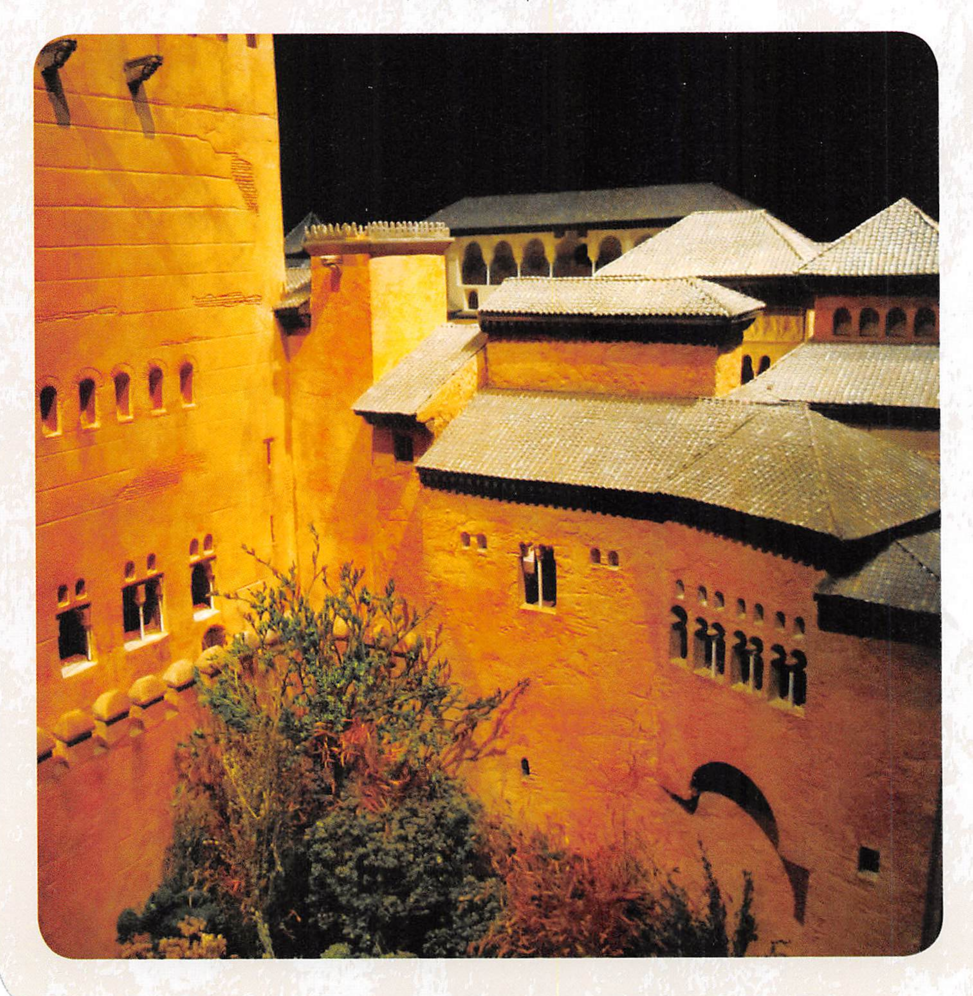


بخط فصيح وتفسير مليح، ففرحت به أشدّ الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المنادي بالزيادة علي إلى أن بلغ فوق حده!، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعزّ الله مولانا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فلقد بلغت فيه



الزيادة بيننا فوق حدّه، فقال لي: لست فقيهاً ولا أدري ما فيه! ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته..! فلم أبال بما أزيد فيه!» فتدبر بين أحوالهم وأحوالنا الثقافية، على الرغم من ظهور بوادر العناية بالكتاب على الصعد

مجسم قصر الحمراء



الرسمية والأهلية، وازدياد مرتادي معارض الكتب، وتوسّع دور النشر في ترجمة وطباعة أحدث الكتب الأجنبية، العلمية منها والأدبية، ومنها سلسلة «عالم المعرفة» الصادرة في دولة الكويت والتي أثرت المكتبة العربية منذ منتصف القرن الفارط، ومن أبوظبي انطلق مشروع كلمة، ومن دبي مؤسسة محمد بن راشد تترصدان الكتب القيّمة فيتم ترجمتها على الفور. وهذا مؤشر حسن لبداية التعافي في جسد الثقافة العربية وأحد السبل المؤدية للتقدم، قال شاعر العربية، المتنبي:

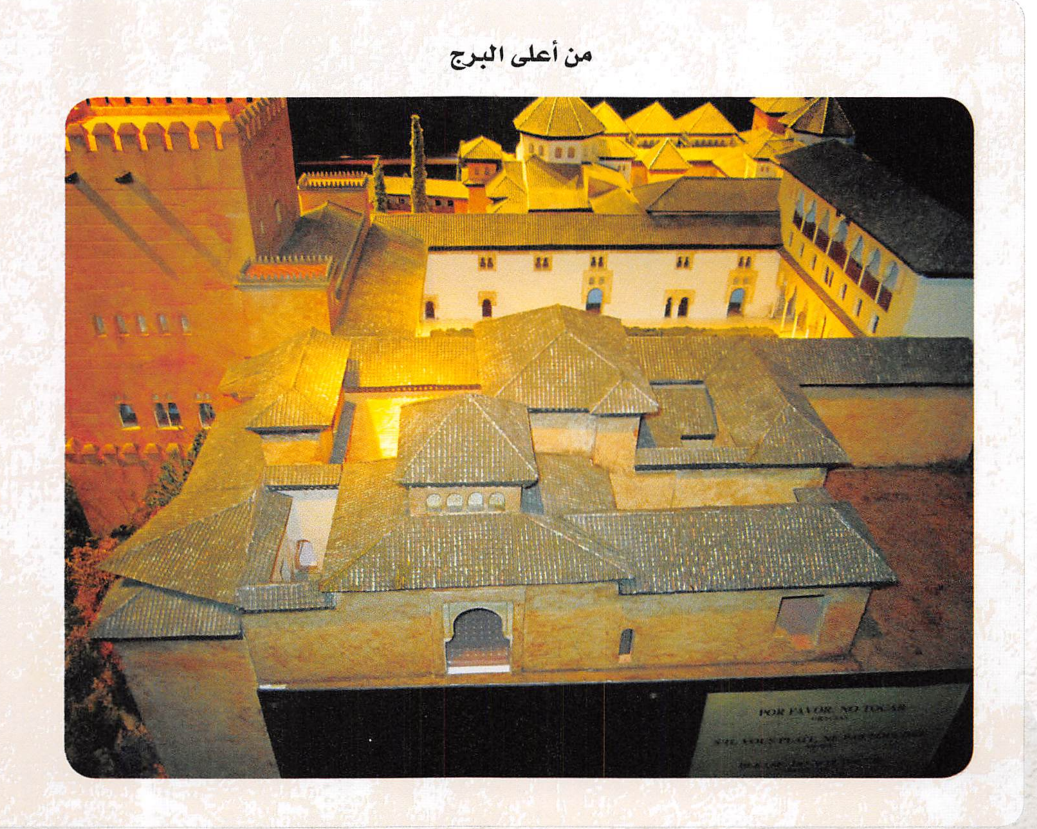
أعز مكان في الدنى سرجُ سابح

وخير جليس في الزمان... كتاب

واشتهرت قرطبة بالعلم، وطُبعت بهذه النظرة النمطية حتى قيل «إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب في قرطبة فأريد بيع تركته من آلات موسيقية، حملت إلى إشبيلية لتباع فيها». وكذلك كان شارع الوراقين من أشهر شوارع قرطبة، ويقع بجوار طاحونة أبو العافية التي سبق الحديث عنها.

قنطرة قرطبة، إحدى أشهر الجسور في تاريخ قرطبة، والتي كانت في الأصل جسراً صغيراً قبل قدوم المسلمين، فرمم وزيد فيه حتى صارت قنطرة قرطبة الشهيرة. نقطعها مستمتعين بالنسيم العليل، للحظة... يصفو فيها الزمان. في نهايتها يقف برج القلعة الحرّة أو كلاهورا، وهو برجٌ بناه المسلمون للحراسة، يحوي مجسمات وخرائط تحكي لنا تاريخ قرطبة والأندلس. عند الدخول نجد عن ميامننا قاعة وضعت فيها تماثيل شمعية للحاجب المنصور وابن رشد وغيرهم من أعلام قرطبة، وكلما مرّت بضع دقائق، يسلّط الضوء على أحدهم، فنسمع نبذةً عنه وما هي أهم اسهاماته في بناء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض وذلك بثلاث لغات، وفي القاعة

من أعلى البرج



الأخرى نجد خريطة الإدريسي والاسطرلاب وأدوات فلكية أخرى اخترعها أو طورها المسلمون. وإلى الطابق الثاني يوجد مجسم يصّور الهيئة التي كان عليها المسجد الكبير قبل أن تطاله أيدي العابثين المتعصبين، مجسم يذهل الرائي، إذ أنك تستطيع من فجوات في جداره أن ترى المسجد من الداخل والمصلّون منهم الساجد ومنهم الراكع، والأعمدة والأقواس والعقود بجميع ألوانها وتفاصيلها الدقيقة. كما يوجد نظام إضاءة يصوّر حالة المسجد منذ الشروق إلى حين الغروب مع صوت الأذان يصدع في جنباته، مجسم مصمم بجودة عالية تدهش وتبهر ولا تبرحه إلا بعد وقت طويل. كما يوجد مجسم لقصر الحمراء، بكل تفاصيله الدقيقة. نرتقي الدرج الحلزوني صعوداً إلى أعلى البرج، حيث السطح، حيث نرى منظراً للمدينة من أعلى، فنجول البصر ونرسله إلى جميع الاتجاهات كمن يخاف أن يضيّع زاويةً ما. نرجع إلى القنطرة ونسير بتؤدة وننعم النظر شمالاً، فنرى النهر من ناحية القنطرة الغربية وفي

مكان الميضئة في الفندق



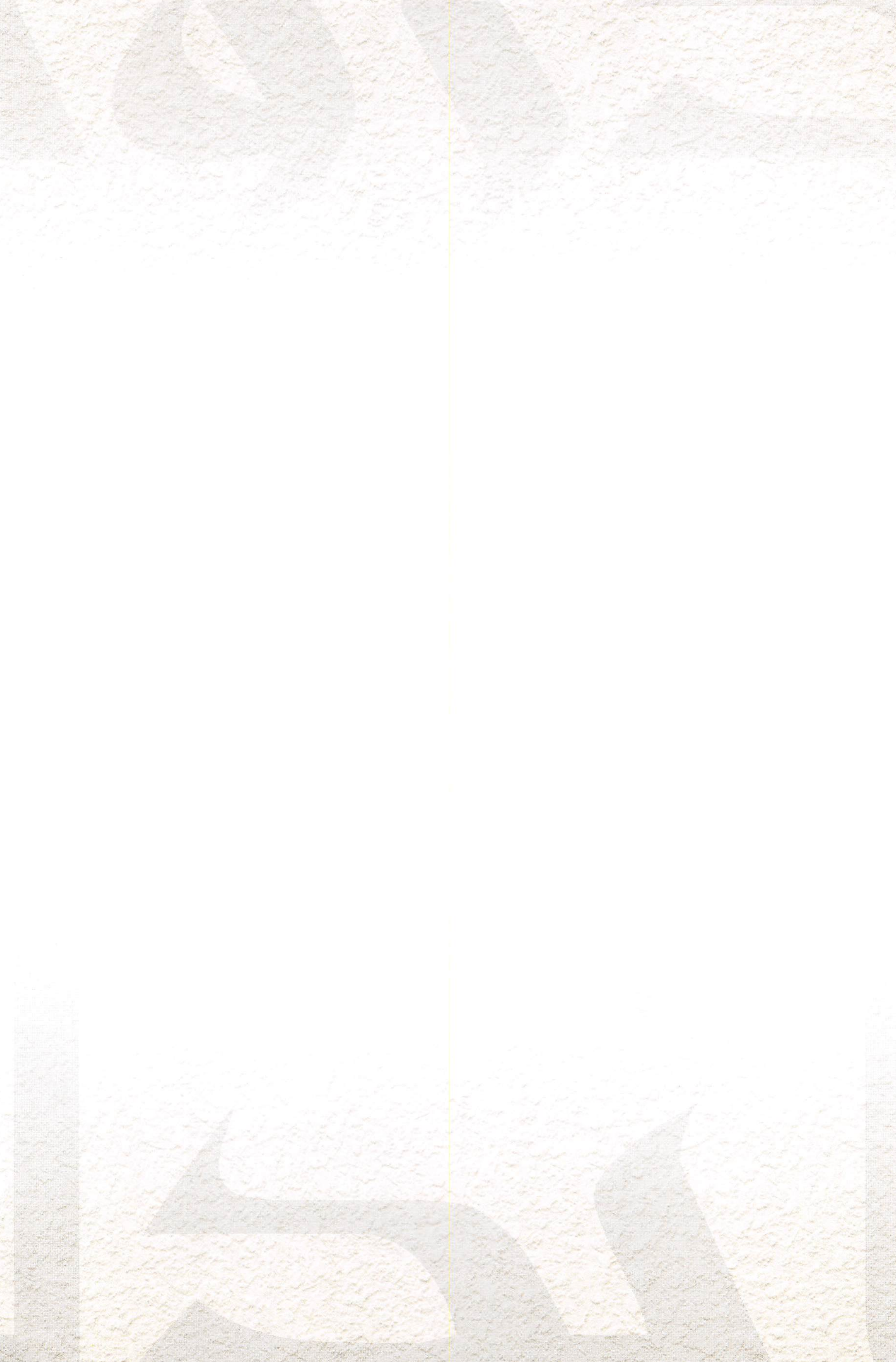
جزر الطمي



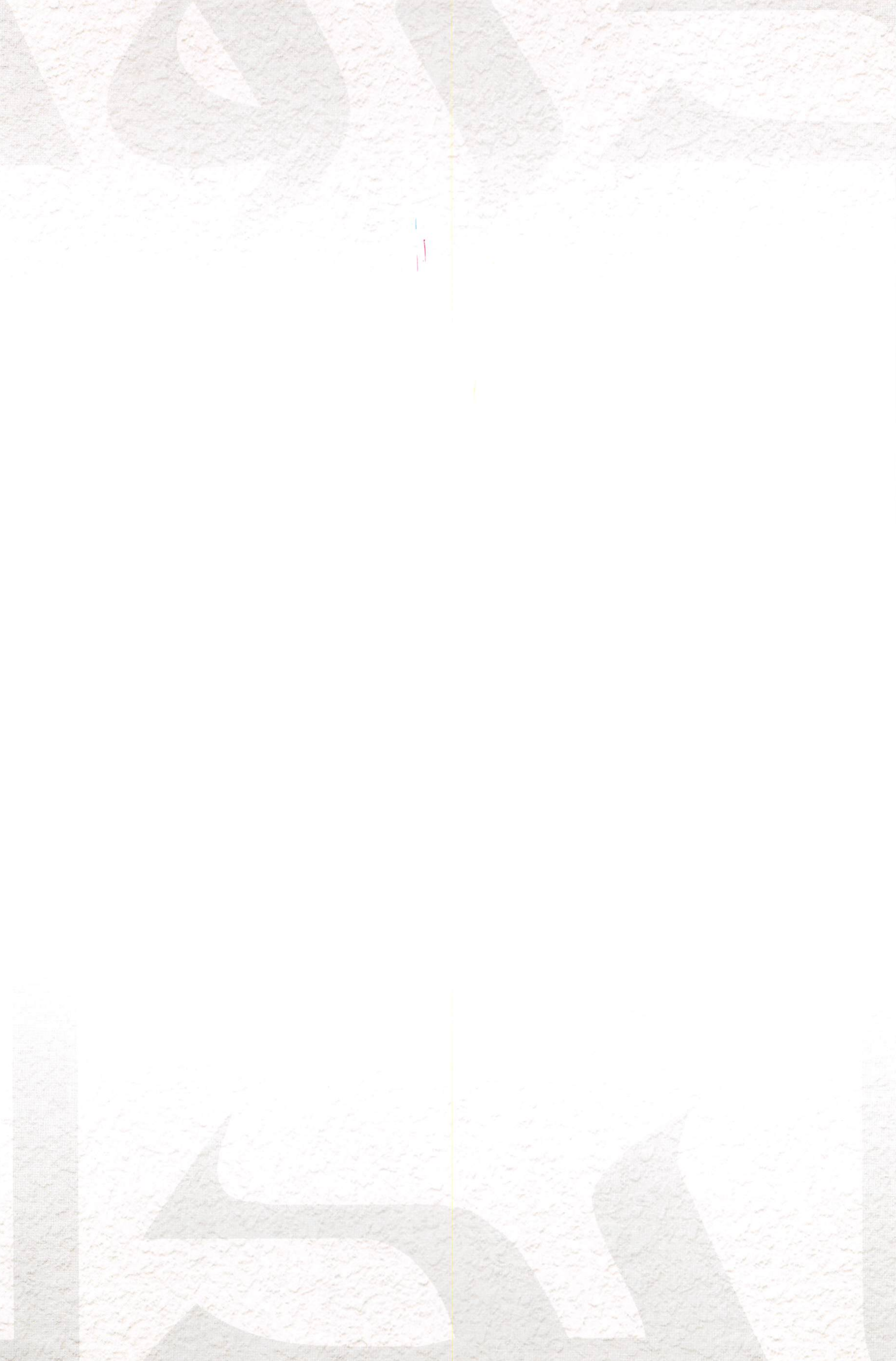
وسطه جزر من الطمي قد نبتت عليها الأعشاب بكثافة حتى غدت محميات طبيعية لأعداد هائلة من الحمام الأبيض وغيره من الطيور، ويكاد يتوارى اللون الأخضر وراء لون الطيور الأبيض!

وننهي طوافنا في قرطبة بهذا الخبر: ذكر ابن بشكوال في كتابه «الصلة» «أنّ الحكم المستنصر هدم المضيئة القديمة التي كانت في فناء الجامع، وبنى أربع مضيئات على جانبي المسجد من الشرق والغرب»، والآن في الجانب الشرقي من الجامع يوجد فندق يحتوي على قاعة اجتماعات بوسطها أطلال صخرية محفوظة خلف زجاج يحميها، فسألت القائم على الفندق عن هذه الأطلال وماهيتها فأجابني: بأنه يُعتقد أنها بقايا مكان الوضوء الخاص بالمسجد واكتشفت أثناء الحفر لبناء الفندق فطلب منهم إبقاءها على حالتها الأصلية.

ومن هنا ننطلق إلى المدينة التي أريد لها أن تحل محلّ قرطبة، لكنّ الله فعّال لما يريد. إنها مدينة... الزهراء.



الزهراء.. زهرة الكتب



الزهراء

ALZAHRA

فقلت يا زهراء ألا فأرجعي

قالت وهل يرجع من ماتا؟

فلم أزل أبكي وأبكي بـــها

هيهات يغني الدمع هيهات

شاعر أندلسي

زخارف تنتظر الرجوع إلى أماكنها



على بعد ثمانيةكيلو مترات من مسجد قرطبة وقنطرتها... إلى الغرب، تقع أطلال مدينة الزهراء...

مطلع القرن الرابع للهجرة الشريفة - منتصف القرن العاشر الميلادي

الأندلس في نشوة العظمة، تختال في عصرها الذهبي بتولي عبد الرحمن الثالث - الناصر مقاليد الحكم. وخلال فترة زمنية قصيرة بسط نفوذه على أغلب شبه الجزيرة، ودانت له الممالك النصرانية، وعقدت معه معاهدات الصلح. وقمع أشدّ حركات التمرد الداخلية شراسة ثورة بن حفصون. واستعدّ لأن يخلع على نفسه الخليفة، هذا اللقب الذي لم يدعه أي من أمراء بني أمية الذين توالوا على الأندلس، منذ عبد الرحمن الداخل، على الرغم مما أوتي لصقر قريش من القوّة والغلبة والرغبة في الاستقلال عن الحكم العباسي، واكتفوا بإمارة المؤمنين. ومردّ ذلك: أن لقب الخليفة – في نظر المسلمين – يحوزه من كانت تقع تحت سلطانه المدن الإسلامية المقدسة – مكة المكرمة والمدينة النبوية والقدس – لكن... تقزم الخلافة العباسية تحت أقدام الفرس والترك وتفككها، وتمركز الدولة الفاطمية في مصر، وادعاء حكامها إمارة المؤمنين، جعلتا الناصر يفكر جدياً في إسباغ هذا اللقب على نفسه وعلى خلفائه من بعده. وقد زيّن له ذلك ما بلغته الأندلس في فترة حكمه من قوة اقتصادية، تبدّت في ازدياد البضائع الزراعية والصناعية المنتجة فيها، وتلك المصدرة والمستوردة من أفريقيا إلى الأندلس، ومن ثم إلى أوروبا عبر إيطاليا وموانئ فينيسيا وجنوا. فازدهرت الأندلس في عهده ازدهاراً لم تألفه من قبل، يكفي أن نعرف أن الناصر ترك في خزانة الدولة عند وفاته خمسة مليارات دينار...! نحن نتحدث عن عام تسعمائة وستين من الميلاد! وكتدليل على هذا كله... وللحاجة إلى الخروج من ازدحام قرطبة، التي بلغ عدد سكانها قرابة النصف مليون نسمة، والرغبة في إيجاد عاصمة إدارية جديدة، تستقبل السفارات و الوفود التي باتت تفد من حواضر العالم، لعقد الاتفاقيات السياسية والتجارية وتنظيم البعثات الدراسية.

اختط الناصر مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة، واستغرق اكتمال بنائها الأربعين

المستكشفون



عاماً، منذ عهده حتى عهد ابنه المستنصر. وجلبت لها المواد الإنشائية من شتى أنحاء الأندلس، وأيضاً من تونس وتركيا وغيرهما... وأحضر البنّاؤن المهرة من بلدان عدة، فكانت أعجوبة الأعاجيب في عصرها ومثار دهشة لجميع الوفود التي قدمت من فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا.

اكتشف موقع الزهراء الحالي سنة ألف وتسعمائة وعشرة للميلاد. واستطاع المستكشفون والمرممون عبر السنين أن يجعلوا ما كان مطموراً تحت الرمل، ويرزح تحت ثقل تسعة قرون من الضياع... مشاهداً، حتى أنه ليسهل على الزائر أن يتصوّر كيف كانت مدينة الزهراء، بل إن المتحف الواقع أسفل مدينة الزهراء، والمنشأ على



طراز حديث، يعرض في قاعة الأفلام فيه للزوار فيلم صمم بالحاسوب، يصوّر بدقة كيف كانت مدينة الزهراء. والجهد المبذول في الفيلم جهد عظيم، إذ أنّ الصورة تنتقل مما هو موجود حالياً إلى ما كان موجوداً آنذاك ، الناس في الطرقات، والتجار في حوانيتهم والحرس والجيوش على الأسوار والوفود والحكام، جميعهم قد بعثوا من جديد. وهناك جهد جهيد ما زال يبذل لإصلاح وتركيب الأعمدة والأقواس والعقود وإعادة النقوش إلى أماكنها الأصلية وقد تم تحديد مكان قصر الناصر وجناح وزيره جعفر المصحفي، ومكان الجند وموقع المسجد، وتم ترميم مجلس عبد الرحمن الناصر، الذي كان يستقبل فيه الوفود، وعلى الحوائط الآيات القرآنية منقوشة



متحف الزهراء

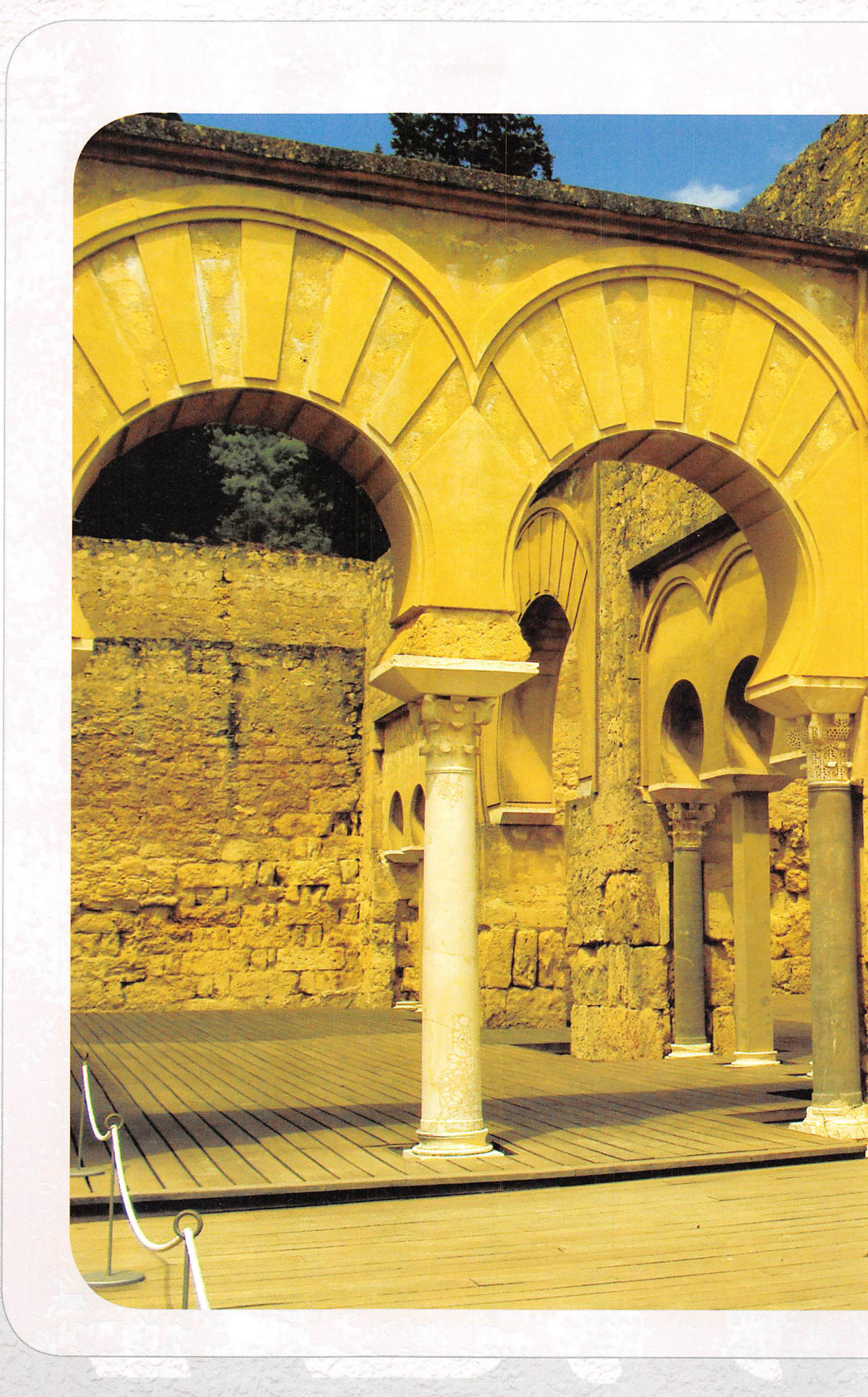
بالموزاييك بمهارة تصيبك بالعجب والزهو ثم يعقبهما شيء من الحزن...! ولمَ لا؟ فالبكاء على الأطلال تسلل إلى جيناتنا الوراثية منذ وقف امرؤ القيس يبكي ويدعو صاحبيه للبكاء من ذكرى حبيب ومنزل. وتوجد صور معلّقة لحفلات مدرسية لأطفال إسبان، يرتدون فيها الملابس العربية من رجالية ونسائية، ويمثلون مشهداً مسرحياً يمثل الناصر في مجلسه يستقبل الوفود، وهذه من الدلالات الدالة على أن الإسبان في محافظة الأندلس بدؤوا بالعودة إلى جذور ثقافتهم بعد قرون من تغييبها، وفخرهم بحضارة سكنت أرضهم لثمانية قرون خلت.

مدينة الزهراء لم يُكتب لها أن تعمر أكثر من خمس وسبعين عاماً. بعد الناصر ورثه ابنه الحكم المستنصر وهو آخر أولي العزم من خلفاء بني أمية الأندلسيين، فكرّر الخطأ التاريخي... بأن ولّى ابنه وهو رضيع ولاية العهد، إرضاءً لأمه صبح البشكنسية، ثم توفي الحكم، فخلفه ابنه وعمره أحد عشر ربيعاً! فقام الحاجب المنصور بدور الوصي بتشجيع من أم الخليفة صبح البشكنسية[7]. صعد الحاجب المنصور السلّم إلى الخلافة بدهاء ومكر، قاطعاً كل يد مدّت له يده من قبل، بطريقة تذكرنا ببعض الدكتاتوريات العربية في هذه الأزمنة، الذين وصلوا كقراصنة ليستولوا على الحكم، في قوارب صنعت من عظام المسحوقين، مرتقين عرشاً نصب على تلٍّ من الجماجم!. ولا يشفع له عند المؤرخين إلا توسعته للجامع القرطبي، وحملاته التي قادها لإرهاب الممالك النصرانية فبثت الرعب في قلوبهم، ولكنها - للأسف - وحّدتهم ضد الوجود الأندلسي!. قرر الحاجب بناء مدينة شرقي قرطبة، وأسماها الزاهرة، ليضاهي بها الزهراء، ونقل دواوين الدولة إليها، فبدأ نجم الزهراء بالأفول. وأثناء الثورات التي نكبت بها قرطبة كثورة البربر وغيرها، تم نهب وحرق الزهراء لمرات عديدة حتى غدت أطلالاً. وأتى من بعدها الزمن وتكفل بمحوها من على وجه البسيطة مهيلاً عليها التراب، وجعلها تئن تحت الرمال. إلى أن حان وقت بعثها وقيامها من تحته. إن غلب الزمن الزهراء وغيب أطلالها لقرون، فإنه عجز أن يمحوها ويقصيها من كتب التاريخ ودواوين الشعر. كيف يقدر؟! وهي المدينة التي على أطلالها وقف ابن زيدون، متذكراً عهود الصبا، وولّادة حب حياته... وأفياءٌ كتمت عن عيون الحساد مواعيدهما، وأزهرت في ربوعها حكايتهما التي لم تكتمل فصولها... وأنشد:

7 (البشكنس Les Basques) هم الشعب الذي سكن في أقصى شمال إسبانيا في إقليم يعرف الآن بإقليم الباسك.

أقواس تؤدي لساحة الجند





إنّي ذكرْتُك، بــالزّهــراء، مشتاقــا،
والأفقُ طلقٌ ومــرْأى الأرض قد راقــا
وَللنّسيــمِ اعْتِــلالٌ، فــي أصائله،
كأنــــهُ رَقّ لـــي، فاعْتَلّ إشْفَاقَــا
والرّوضُ، عن مائه الفضّــيّ، مبتسمٌ،
كما شقَقتَ، عــنِ اللَّبّــاتِ، أطواقَــا
يَوْمٌ، كأيّـــام لَذّاتٍ لَنَــا انصرَمتْ،
بتْنَا لها، حينَ نــامَ الدّهــرُ، سرّاقَــا
نلهُو بما يستميــلُ العــينَ مــن زهــرٍ
جالَ النّدَى فيه، حتــى مــالَ أعناقَــا
كَــأنّ أعْيُنَـــهُ، إذْ عـــايَنَتْ أرَقِـــي،
بَكَتْ لِما بي، فجــالَ الدّمعُ رَقرَاقَــا
وردٌ تألّقَ، في ضــاحـــي منــابتِــهِ،
فازْدادَ منهُ الضّحى، في العينِ، إشراقَــا
ســرى ينــافحُـــهُ نيلــوفــرٌ عــبِــقٌ،
وَسْنَانُ نَبّــهَ مِنْــهُ الصّبْــحُ أحْـدَاقَــا
كلٌّ يهيـــجُ لنَــا ذكـــــرَى تشوّقنَــا
إليكِ، لم يعدُ عنها الصّدرُ أن ضاقَــا
لا سكّنَ اللهُ قلبــاً عــقّ ذكــرَكُــمُ
فلم يطــرْ، بجنــاحِ الشّــوقِ، خفّاقَــا
لوْ شاء حَملي نَسيمُ الصّبحِ حينَ سرَى
وافــاكُــمُ بفتــىً أضنــاهُ مــا لاقَــى
لوْ كَانَ وَفّى المُنَــى، في جَــمعِنَــا بكـمُ،
لكــانَ مــنْ أكرمِ الأيّــامِ أخــلاقَــا
يا علقيَ الأخطرَ، الأسنى، الحبيبَ إلى
نَفسي، إذا ما اقتنَى الأحبابُ أعــلاقَــا

كان التَّجاري بمَحض الوُدّ، مذ زمَن،

ميدانَ أنسٍ، جريْنَا فيهِ أطلاقَا

فالآنَ، أحمدَ ما كنّا لعهدِكُمُ،

سلوْتُمُ، وبقينَا نحنُ عشّاقَا!

وبقي .... عاشقاً!

لعمري لئن قلّت إليك رسائلي

لأنت الذي نفسي عليه تذوب

فلا تحسبوا أني تبدلت غيركم

ولا أن قلبي من هواك يتوب

ابن زيدون

رأس عمود رجع مكانه



في عهد الناصر، قدم إليه وفد من قبل الإمبراطور الروماني قسطنطين السابع، وكان من جملة الهدايا كتاب ديستقوريدس المختص بطب الأعشاب وتراكيب الأدوية. فكان فاتحة انهماك واشتغال الأندلسيين بعلوم الطب وتفوقهم فيه. حتى أنهم دوّنوا ديواناً للأطباء، يكون بمثابة نقابة ولها نقيب، يسمح للمنتسب إليها بممارسة الطب حصوراً، ويحرم منها أي طبيب يرتكب أخطاء طبية فادحة من ممارسة مهنة الطبابة!.

برع من مدينة الزهراء وخرج إلى العالم الطبيب الجراح خلف بن عباس الزهراوي المشتهر بجامعات وكليات الطب في العالم الغربي باسم ALBUCASIS، وهو أول من ربط الشريان لمنع النزيف، وتمكّن من تفتيت الحصوة في المثانة... أكرر نحن في العام تسعمائة وستين للميلاد!. وبرع في التشريح وإجراء عمليات اللثة والعيون والولادة، كما يسجل له ابتكاره للعديد من الأدوات الأساسية لإجراء العمليات الجراحية، والتي لا يزال بعضها - بعد تطويرها - يستخدم ليومنا هذا. وكتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» ظلّ الكتاب الأول المتداول في علم الجراحة لأكثر من خمسة قرون!.

هذا العالم الكبير والجرّاح، لم يكن وليد الصدفة أو نبتة برية!. فلم يكن له - ولا

أقواس على باب الدخول للديوان



لغيره من علماء الأندلس - أن ينشأ هذه النشأة، ويكتسب هذه العلوم، لو لم تتوافر البيئة الخصبة، فحتى أجود البذور إذا رميت على قارعة الطريق، أو زرعت في صحراء قاحلة... فمصيرها التلاشي. وهكذا كانت الأندلس، كانت التربة الخصبة للعلم والعلماء في شتى العلوم، من دينية مثل علوم القرآن والحديث، واللغة مثل النحو والبلاغة، وتطبيقية مثل الطب والهندسة وغيرهما مما نبغ فيه أهل الأندلس وبرعوا. وكانت هذه البيئة أخصب ما تكون في عهدي الناصر وابنه المستنصر، اللذان كفلا العلم والعلماء، بتهيئة المدارس لتلقي العلوم. وأياديهما واضحة جلية في الترجمة وإحضار الكتب - قديمها وحديثها - من بغداد عاصمة الثقافة الشرقية آنذاك، ومن مصر وغيرهما من مراكز الحضارة. وصاروا يدعون من نبغ في علم إلى القدوم إليهم ليحتفوا به وينعم وينشر من علمه في ربوع دولتهم. ومن قدم إليهم أبو علي القالي، الذي وفد عليهم، وتنقّل بين مساجد قرطبة والزهراء، يعلّم الناس العلم الذي رزقه الله إياه. وأودع خلاصة علمه في كتاب أسماه «الأمالي» وهو يعدّ من أربعة كتب، هن أمّات كتب البلاغة والأدب. لم تكن جهود الخلفاء محصورةً بالمساهمة بالمال وحده،

حوض اغتسال في جناح الناصر



بل تعدّاه بالمشاركة في الجهد والبحث العلمي. اشتهر الناصر باهتماماته الأدبية من ذلك نظمه للقصائد. ولإبنه الحكم المستنصر مساهماته أيضاً، و قد ترجم ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام» عنه قائلاً: «كان عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جمّاعاً للكتب، مميّزاً للرجال من كل علم وجيل وفي كل عصر وأوان» هذا وقد استعان بمؤلفاته، العالم الجليل ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب».

عند وصولنا إلى مدينة الزهراء نكون على سفح جبل العروس، ولا يتخلل ثوب الجبل الأخضر إلا ألوان الأزهار والورود. أثناء التجول نبدأ بالنزول التدريجي إلى أسفل

موقع المسجد ويبدو فناءه قد نبت النخل فيه

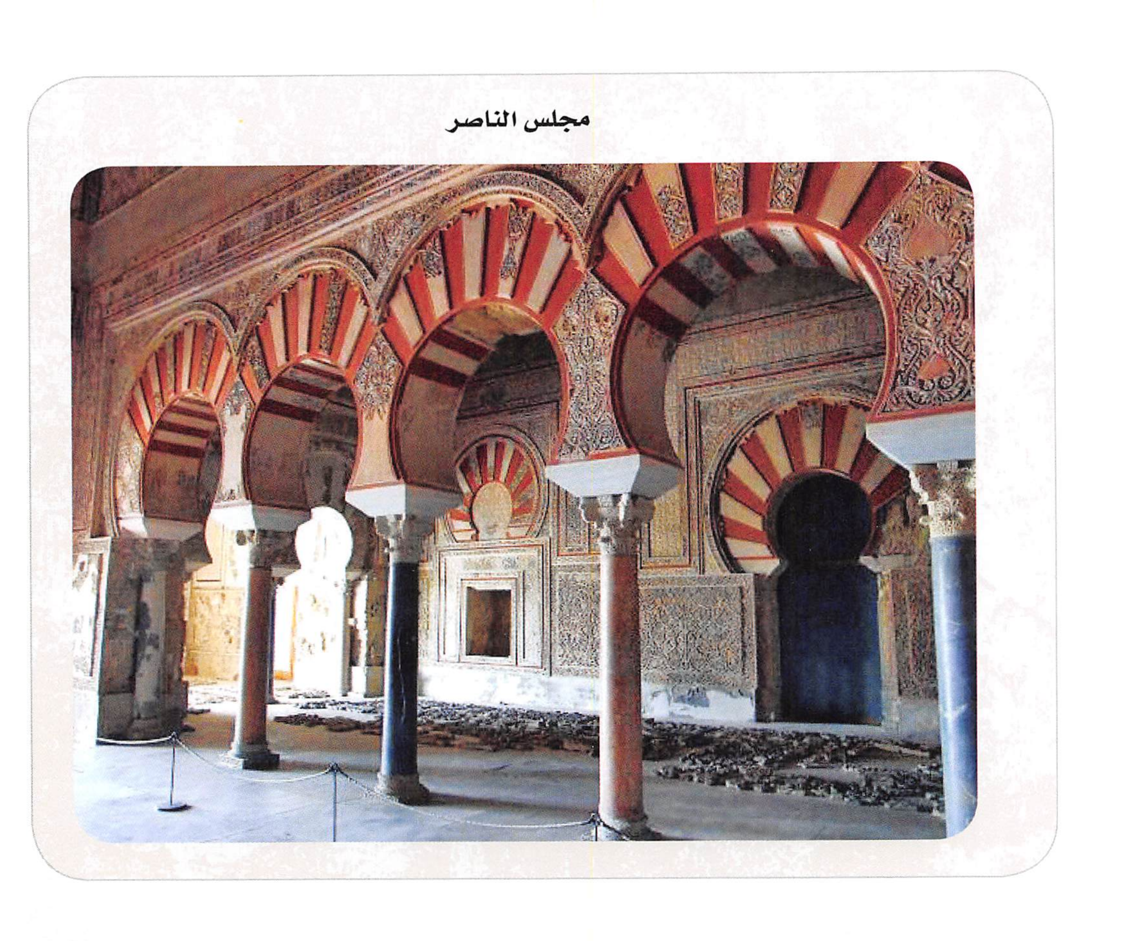


بانحدار، وننتبه وتخبرنا الكتب أن استغلال الجاذبية الأرضية هي من الأفكار الخلاقة التي سهّلت عمل نظام الصرف الصحي، ويسّرت ضخ المياه الصالحة للشرب، لجميع سكان المدينة. ننتقل من مكان إلى آخر، والدهشة تملأ جوانحنا لمدينة في غاية النظام والتقدم، وجدت قبل ألف عام!

الممر الرئيس متدرج ويفضي إلى عدة قاعات وأجنحة. نبدأ بجناح الناصر الذي يوجد به مغطس شبيه بحوض الاستحمام الحديث، ونصل إلى جناح وزيره جعفر المصحفي وفيه حوض اغتسال صغير، ثم إلى مطبخ القصر وفرنه ذي الطابوق الأحمر، الذي يمكنك تخمين أنه فرن من النظرة الأولى!. ثم إلى غرف الحرس، التي تفضي إلى



مجلس الناصر



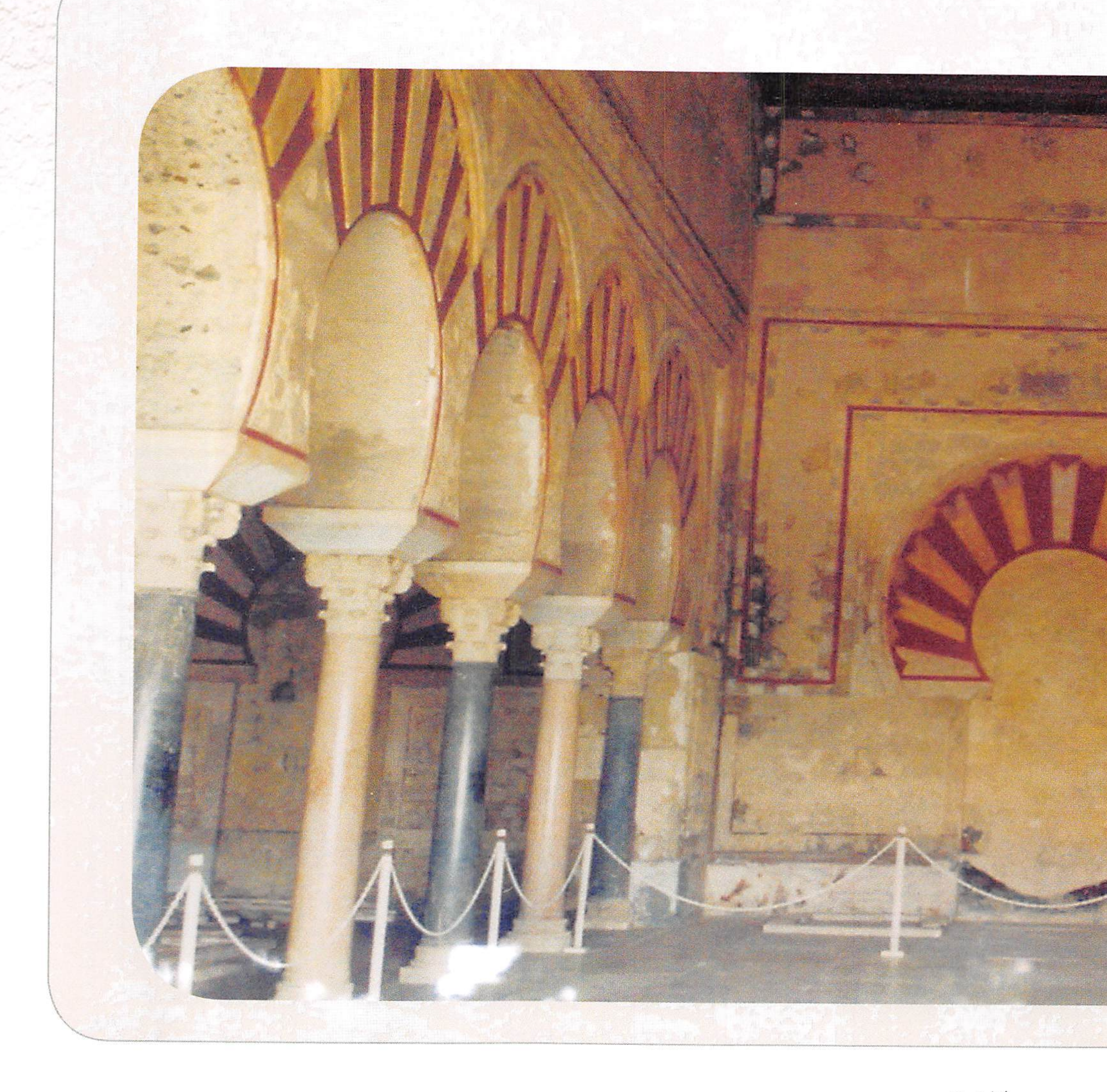
دواوين الحكم وساحات اصطفاف الجيوش. وحدائق خضراء لذة للناظرين أمامهما قد زرعت حديثاً، بأشجار السرو السامقات تحفّهم النخل الباسقات. إلى الجهة الجنوبية للزهراء، تقع أطلال مسجد الزهراء، ونستطيع رؤية أين كان مبنى المسجد وفناؤه، وبعضٍ من جُدره. هذا المسجد الذي كان يخطب فيه الإمام المنذر بن سعيد. ذات جمعة صعد المنذر بن سعيد إلى المنبر، ورأى الناصر يجتاز المصلين للوصول للصف الأول، الناصر الذي تأخر عن حضور الجمعة لثلاثة أسابيع متتالية، منشغلاً بمتابعة تشييد الزهراء، وإشرافه على النقوش الثمينة وكل تفاصيل البناء، فابتدأ المنذر خطبته بتلاوة «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴿128﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴿129﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴿130﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿131﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴿132﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴿133﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿134﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿135﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ» سورة الشعراء،ثمّ وصله بقوله تعالى : «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا» ومضى في حشد الآيات والأحاديث وأقوال



نقوش قاعة الناصر



السلف في ذم الاستغراق في البنيان والمبالغة في الزخرفة، وأتى بأحاديث الزهد والتخويف من الموت، فانقلب سكون المسجد إلى بكاء ونحيب وتضرّع. ففطن الناصر إلى أنه هو المقصود، فبكى مع الباكين وندم على ما سلف من تفريط في جنب الله، واستعاذ بالله من سخطه وطلب مغفرته. إلا أنه غضب على المنذر لغلاظ نصحه، فشكى لابنه الحكم قائلاً له: «لقد تعمدني المنذر ولم يقصد غيري» وأقسم أن لا يصلي خلفه الجُمع، والتزم الصلاة في جامع قرطبة، فقال له ابنه الحكم: «ما الذي يمنعك عن عزله عن الصلاة بك؟ واستبداله،إذ كرهته؟» فزجره وانتهره قائلا له: «أمثل المنذر بن سعيد يعزل، إرضاء لنفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد،هذا

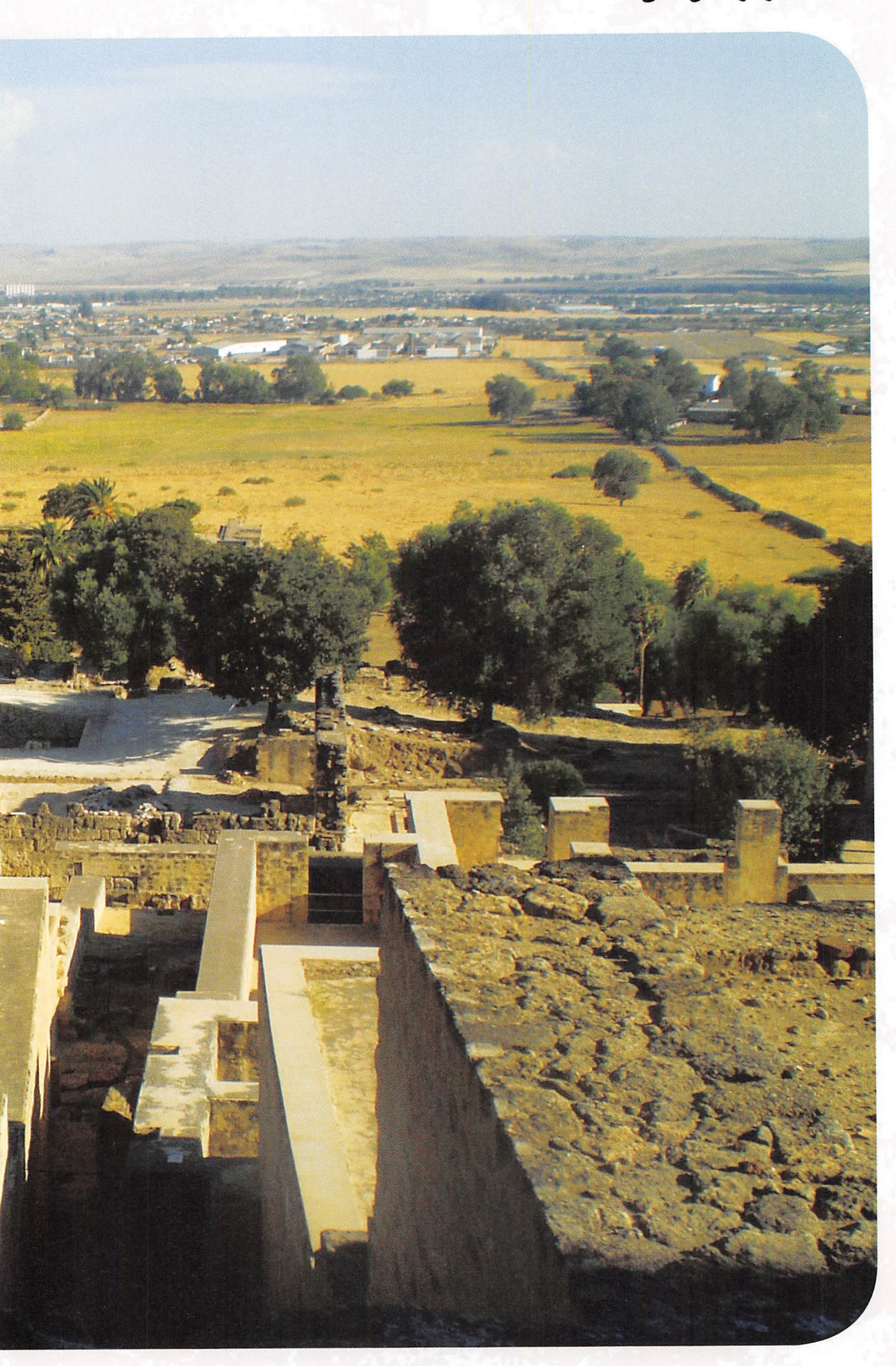


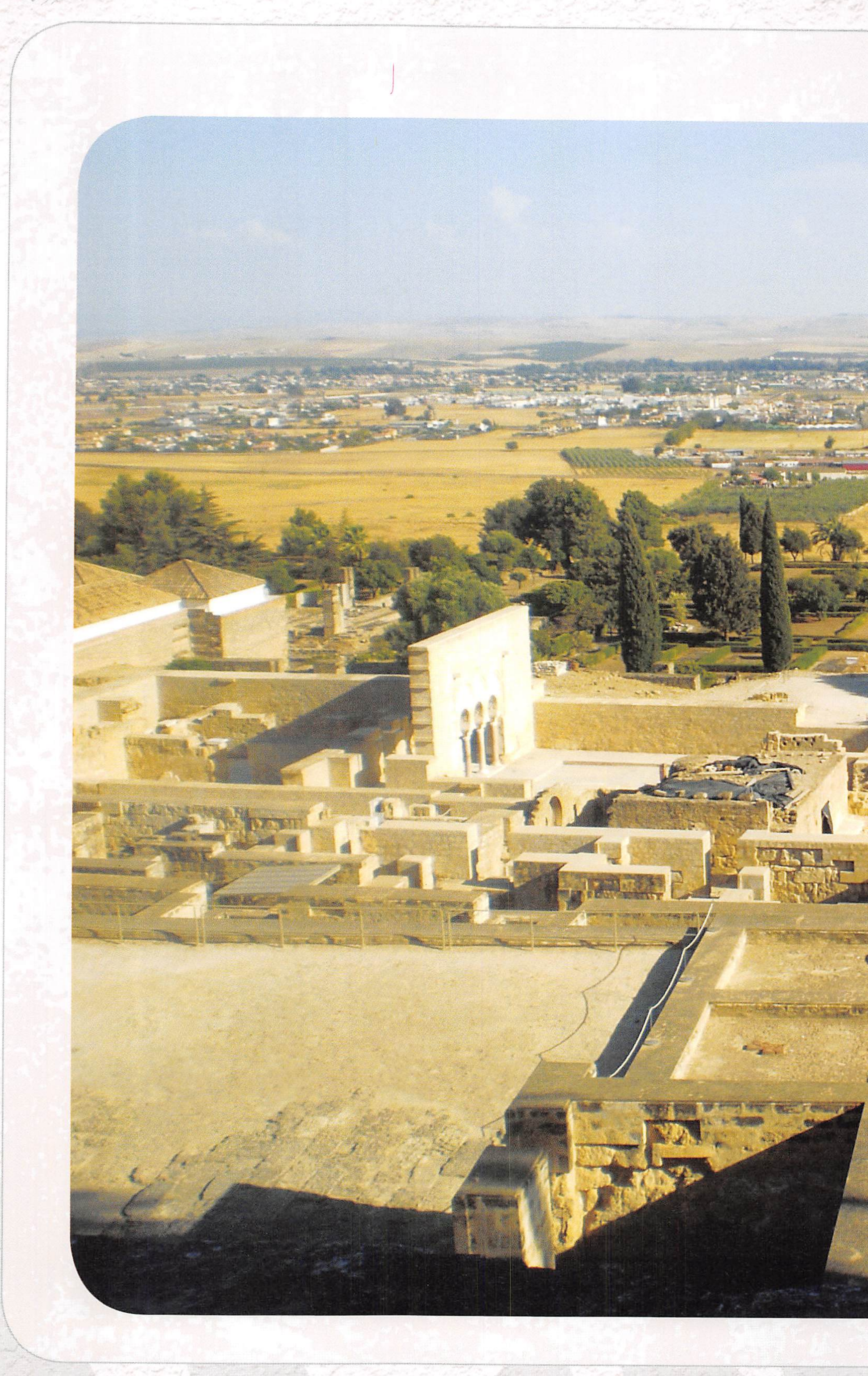
ما لا يكون».

فانظر يا عبدالله إلى حكمة ومسلك الإمام المنذر، بعدم التشهير بالحكام وفضحهم على المنابر بالاسم ونبزهم بالألقاب، وتحريض رعاع الناس عليهم... وهو القادر! وانظر لمعرفة الحاكم لخطئه وإصلاحه، بل انظر إلى ردّة فعله عندما أشار عليه ابنه بعزله رافضاً ذلك، ذاكراً فضله، ممتنعاً عن عقابه، وهو القادر، أليست هذه هي الحكمة بعينها؟ فتأمل!.

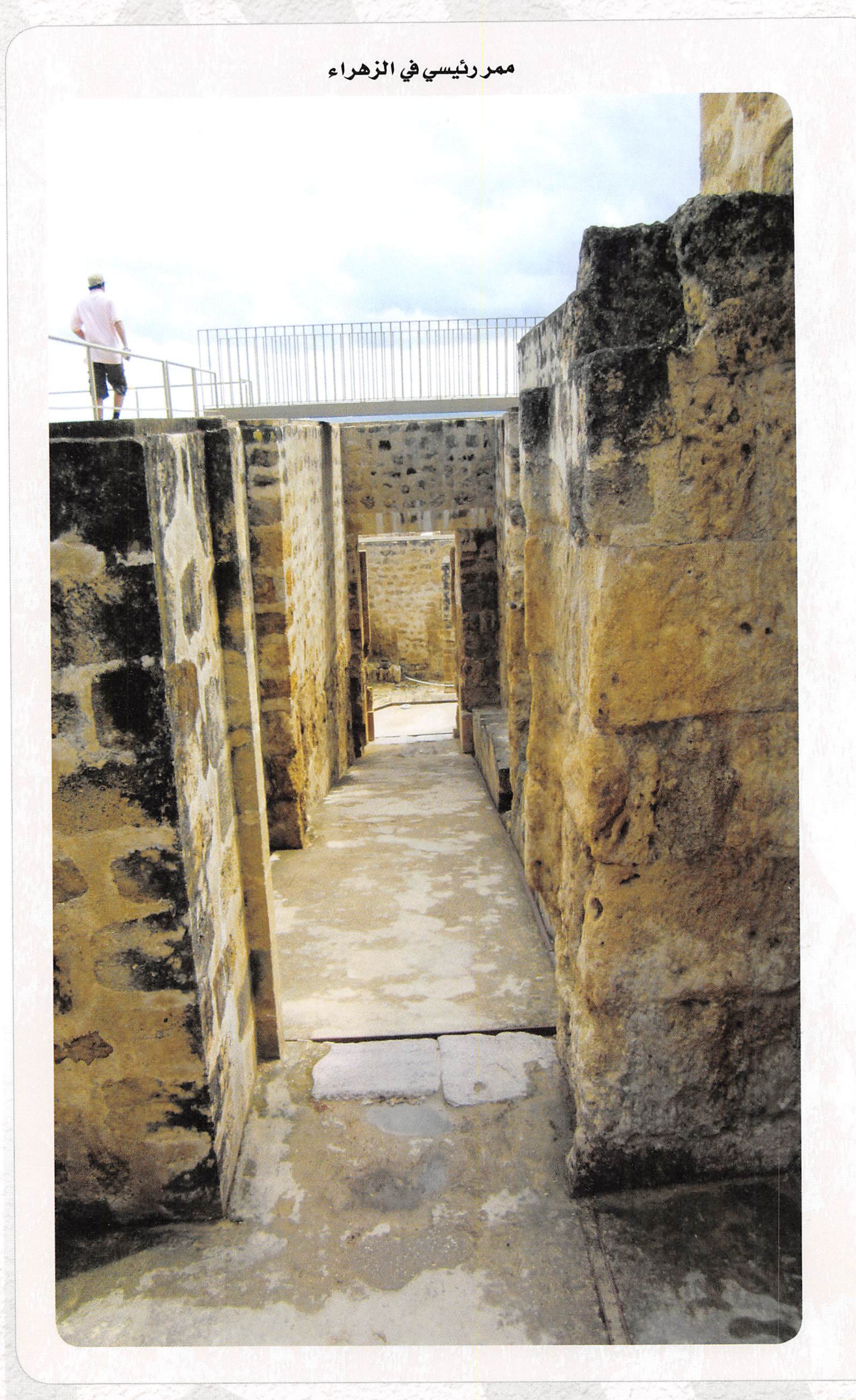
على الرغم من تهالك المسجد، إلا أنه يمكن وبوضوح تمييز أطلاله، بل وتحديد اتجاه القبلة، وساحة فنائه، التي نبتت فيها النخيل، فيجول في الخاطر، عبد الرحمن

الزهراء من أعلى





ممر رئيسي في الزهراء



الداخل - صقر قريش -، عندما وقف أمام نخلة جيء بها من الشام. وزرعت في حديقة قصره، المسماة بالرصافة - ويقال أنها أول نخلة دخلت إلى أرض الأندلس - وأنشد:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

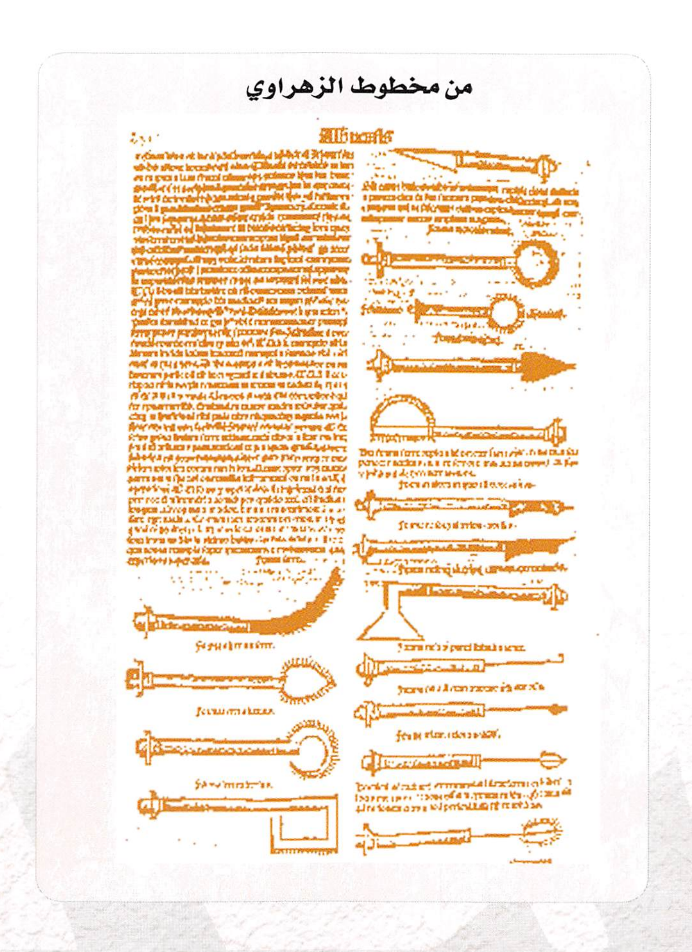
وطول التنائي عن بني وعن الأهل

نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ونحن نتجوّل بالزهراء، ننتبه ونتيّقن بأنها لو ظلّت على سابق عهدها، ولم تتبدل حالها، لأصبحت محجّ عشاق الجمال الأندلسي، وقاربت في حسنها قصر الحمراء في غرناطة!. وهذا ما يرنو عليه القائمون على ترميم الموقع.

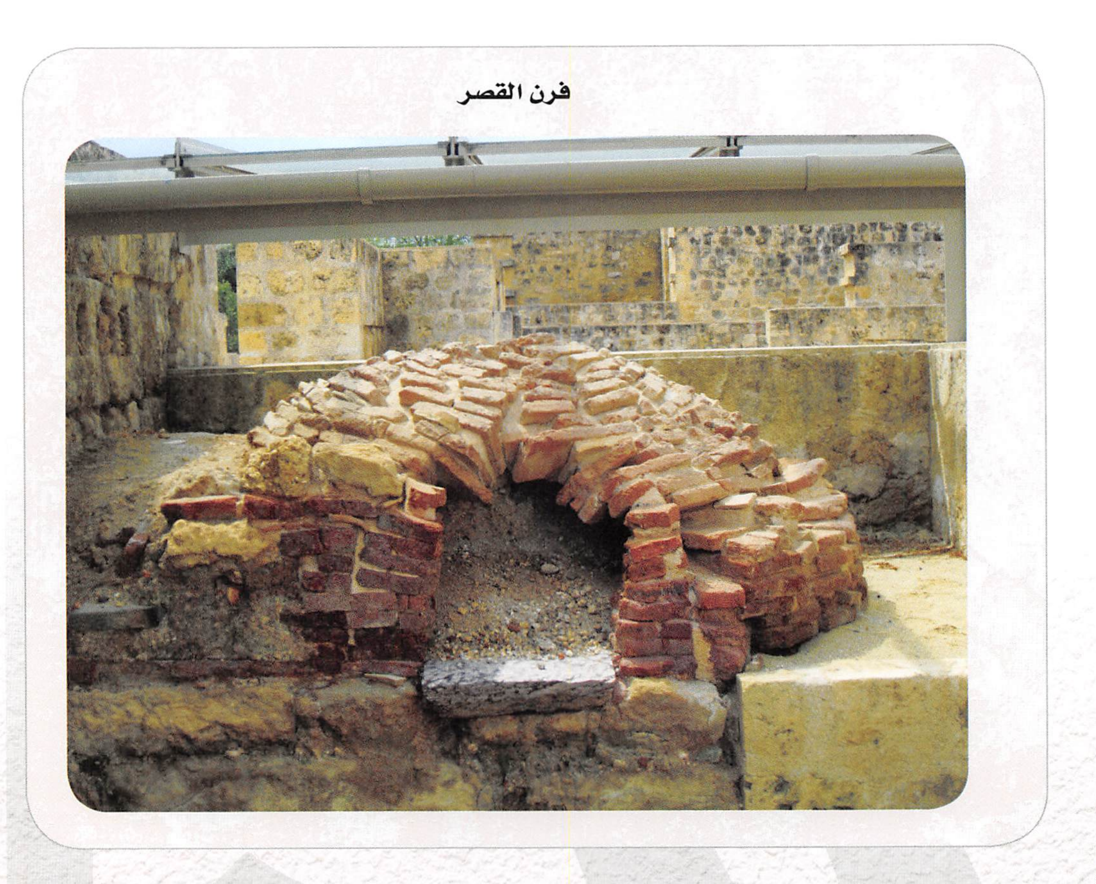
من مخطوط الزهراوي



وحديثنا عن العلم والأدب في الأندلس، لا نوفيه حقه إن غفلنا عن إبراز الدور النسائي المهم، فقد ذكرنا دور ولّادة بنت المستكفي... وهذا لايكفي! بجانب ولّادة هناك الكثير من الشاعرات، حتى بلغ عددهن أكثر من خمسمائة شاعرة!. ناهيك عن اللائي برعن بالطب، والعلوم الدينية حتى قيل أن عدد حافظات القرآن جاوزن الستين ألفاً!، ونبغن في علم القراءات وعلم الحديث وأسانيده. بل أن حديثنا عن دور الكتب والمكتبات لا يكتمل، إلا إذا عرفنا أن السبب الرئيس في انتشار الكتب وذيوعها، وكثرة المكتبات، هو أنّ الطاقة النسائية كانت تستغل بنسخ الكتب، فقد اشتهرت النساء بالأندلس بالبراعة في الخط، إذ كان يتم تدريبهن منذ الصغر على فنون الخط العربي الفاخر، ومن ثم يشتغلن ويبرعن في نسخ الكتب.

حكم الناصر وابنه المستنصر حكماً تشاورياً لا استبدادياً، مفعلين مجالس الشورى ومراعين لأحكام الدين، وكان يهمهم الاستفادة من الطاقات البشرية أينما وجدت، فقد بعث أحد المستعربين – وهم من نشأ نصراني الملّة عربيّ اللسان – واسمه رثموندو أو ربيع بن زيد إلى فرانكفورت لترتيب مراسيم إرسال سفارة ألمانية إلى

فرن القصر




حوض ماء في الزهراء

حدائق الزهراء أمام قاعة الناصر





قرطبة، ولم يخشَ أن يتهمه الغوغائيون من أصحاب الألسن ذوات العضلات بإهمال الكفاءات الوطنية ولم تكن هناك - بالطبع - قنوات فضائية تتهمه بالعمالة مع الغرب، ولا مذيعين تقوم برامجهم على النيل من أي دوله تقيم علاقات طبيعية مع الآخرين!

نختم زيارة مدينة الزهراء بكلمة للمؤرخ الهولندي دوزي: «لقد كانت تلك النتائج باهرة، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر، فإن الصانع يثير الإعجاب والدهشة، بأكثر ما يثيره المصنوع، تثيرها تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت منها شيء، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر، كما تدعو إليه في أسمى الأمور، إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذي استأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة أمة، ووحدة السلطة معاً، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي والذي اتسع تسامحه الفيّاض لأن يدعو إلى نعيمه رجالاً غير مسلمين لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث لا خليفةً من خلفاء القرون الوسطى!».

وننطلق إلى إشبيلية...

محلقين بأجنحة من الشعر...

جدار المسجد



لندخل مملكة المعتمد الشعرية...

مملكة زالت من على الأرض...

وبقيت هناك

فوق هام السحاب...

مملكة... صنعت من لذيذ الحب... والهجر...

ونلتفت إلى الخلف.. نحو أطلال الزهراء، ونردد بعيون دامعة، خلف ابن زيدون، يبكي ويستدعي أفياء نما فيها الحب، فعبق بعبيره الأرجاء: ذبلت الوردة... وبقي العطر:

ألا... هل... إلى الزهراء... أوبة نازح؟

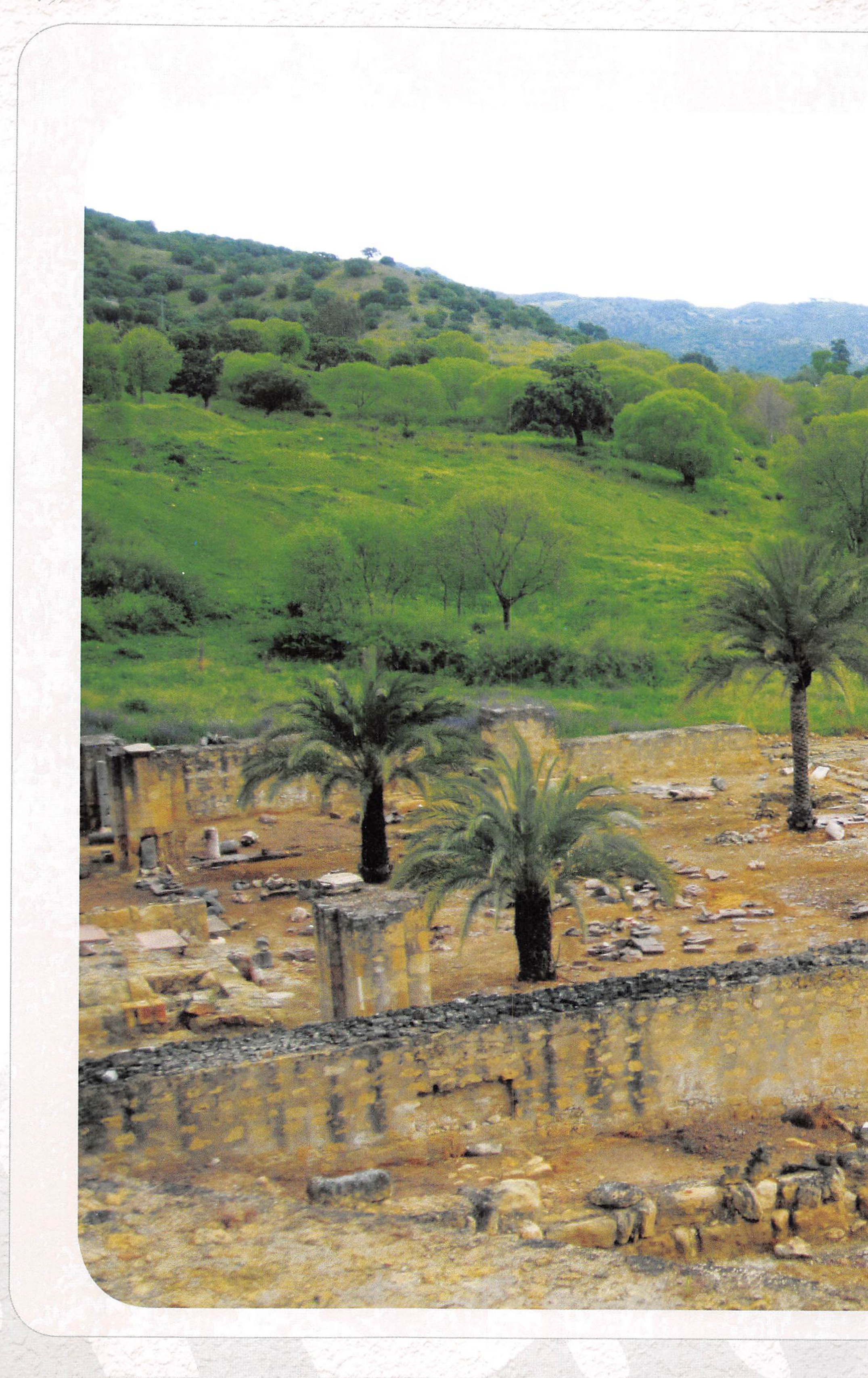
تقضى تنائيها... مدامعه... نزحا

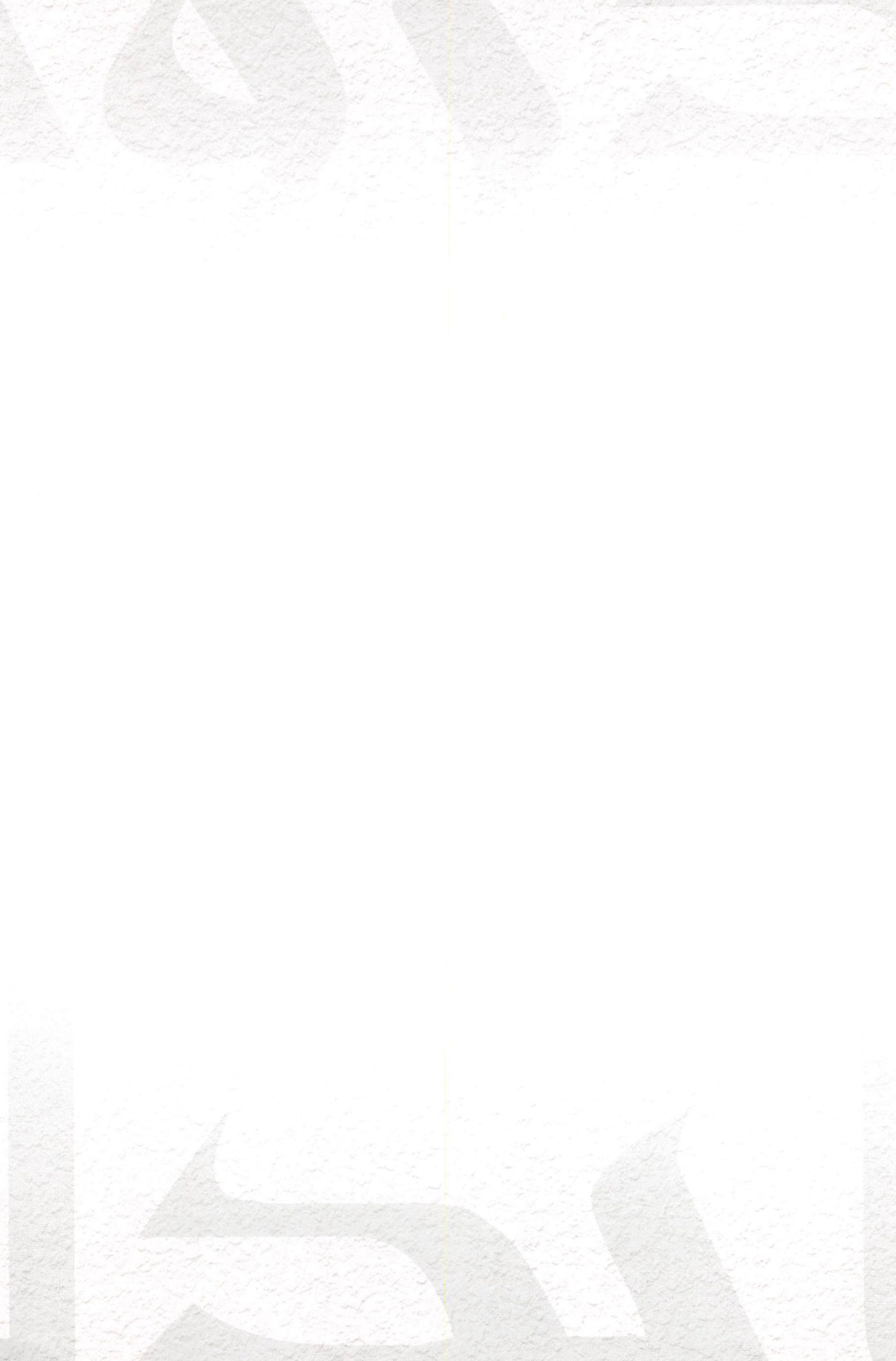


صندوق ولادة من بقايا الزهراء

مسجد الزهراء







إشبيلية.. مملكة الشعر



إشبـيليّة

SEVILLA

وأين حمص وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن
وماشيا في الأرض يلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان

أبي البقاء الرندي



إشبيلية Seville كبرى حواضر محافظة الأندلس وعاصمتها، والتي كانت كنيتها عند العرب حمص تشبيهاً لها بحمص الشام، للتماثل الكبير بينهما في المناخ والتضاريس، والذي لاحظه جند الشام حين نزل بها عند فتح الأندلس. يقطع المدينة نهر الوادي الكبير بشكل عمودي قاسماً المدينة لشطرين، والشطر الأهم والذي قامت عليه إشبيلية قديماً وحديثاً هو الضفة الشرقية من النهر. يجري النهر جنوباً مارّاً بالعديد من المدن، ليصبّ في المحيط الأطلسي الذي أسماه العرب بحر الظلمات كما مرّ بنا، فكان وما زال بوابة المدينة نحو البحر، تمخر فيه السفن والبواخر الضخمة، لترسو في أحواض ميناء إشبيلية، الذي لم يألف الكساد، فمنه حمل التجار المسلمون بضائعهم ومنتجاتهم الزراعية والصناعية... ومكارم أخلاقهم إلى بلدان عدة. يرتبط هذا النهر بفصول أليمة من التاريخ الأندلسي، حين اقتحمت من هذا النهر لمرات عديدة، عصابات الفايكنج Viking أو النورمان على سفنهم حاملين الرعب والموت[8]. وأثناء اقتحامهم المدن، يقومون بالنهب والسبي والتدمير، حتى أنهم وصلوا في إحدى الهجمات إلى قرطبة، فصدّهم الأندلسيون، ثم أرسلوا لهم سفارة شهيرة، إلى بلاد النورمان الدنمارك، برئاسة السفير الشاعر الغزال، الذي وصل إلى بلاطهم

لوحة من القرن السادس عشر لإشبيلية



8 وقد أسماهم العرب في مصنفاتهم وتواريخهم بـ«المجوس» وذلك لحملهم الدائم للمشاعل.

الفايكينج



وقابل ملكهم وملكتهم فوعدوه خيراً. وهدأت الأحوال لبرهة، والتقط الناس أنفاسهم، ثم ما لبثت مشاعلهم قليلاً حتى أشعلت. ولم تنطفىء، إلا عندما أنشأ المسلمون أسطولهم البحري الذي جاب البحار ليحمي البلاد، وطوّروا في الوقت ذاته الدفاعات حول المدينة، فهزموهم وأسروا من أسروا في نهاية الحرب.

عندما تذكر إشبيلية، يذكر المعتمد بن عباد، الملك الشاعر، وتذكر قصته، ذات النهاية المأساوية، المليئة بالعبر... والعبرات.

تبدأ حكاية ابن عباد بعد بزوغ عصر ممالك ودول الطوائف، وتمركز أسرة آل عباد في إشبيلية، وجعلها عاصمة مملكتهم وتأسيسهم الجيوش القوية، ومحاولاتهم التمدّد في أنحاء شبه الجزيرة الأندلسية لرغبتهم في استعادة أمجاد الدولة الأندلسية الواحدة التي قامت في زمن بني أمية. ينسب آل عباد أنفسهم إلى بني لخم، ويرون أنفسهم أحفاداً لملوك الحيرة -المناذرة -. ولد المعتمد في البرتغال PORTUGAL بقرية باجة BAJA[9]، ونشأ أميراً مدللاً في بحبوحة من العيش وترف، وورث من أبيه المعتضد الحكم والشعر، ثم برز في الشعر وذاع صيته، حتى كان من أمره أنه لا

9 تقع جنوب عاصمتها الحالية لشبونة "LISBONA".

محراب قصر الجعفرية في سرقسطة

يصاحب إلا الشعراء، يتكلّم شعراً، ويرد على الكتب شعراً، ويبعث أوامره شعراً، حتى يخيّل إليك من فرط عشقه للشعر أنه ودّ لو صاغ الحياة شعراً، فعنان القوافي بين يديه، يوجه حروف الضاد فتتعانق جمالاً لتنشر الألوان في كل مكان، وتتنزل النجوم من السماء، لتضيء الليل فتغار منها... نجوم الأرض، وتتهادى الكواكب السيّارة في طرقات إشبيلية، ويروّض الشمس ليلف اللجام عليها فيعقلها خلف الجبال ليطول ليل السهر، وتداعب النغمات الوتر بألحان الفرح.

ولقد شربت الراح يسطع نورها
والليل قد مد الـظـلام رداء
حتى تبدى البدر فـي جـوزائـه
ملكا تنـاهـى بهجة و بهـاء
لمـا أراد تنزهـا فـي غـربـه
جعل المظلة فـوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفـه
لالاؤهـا فـاستكمل الآلاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله
رفعت ثريـاها عليه لـواء
وحكيته في الأرض بين مواكب
وكواعب جمعت سنـا وسنـاء
إن نشرت تلك الدروع حنادسا
ملأت لنا هذي الكؤوس ضياء
وإذا تغنّت هذه فـي مـزهـر
لم تأل تلك على التريك غنـاء

المعتمد بن عباد

لم تثنه السياسة الجافة عن الشعر، بل آلانها وجعلها تجري في بحور الشعر، وصار ديدنه وجلّ همة توزير الأكفاء من الشعراء، فمنح نديمه وخليله أيام الشباب في مدينة شلب Silves[10] ابن عمار الوزارة وقربه إليه، حتى كادا يكونا نفساً واحدةً في جسدين،

10 تقع حاليا في البرتغال.

حديقة البرتقال في قصر الجعفرية وهو في أصله لبني هود ومقر حكمهم
لسرقسطة والآن مقر حكم محافظة سرقسطة



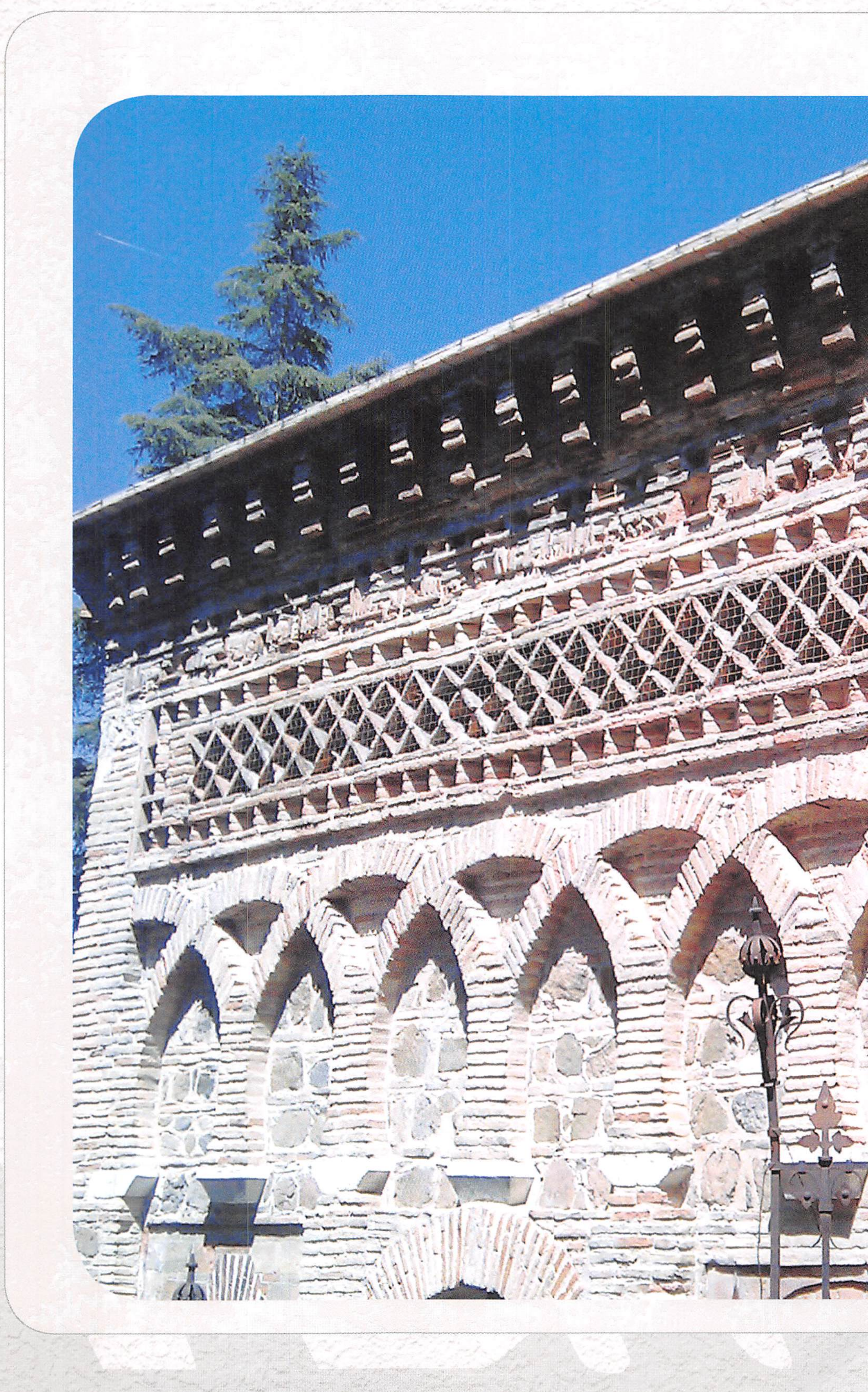
الجانب الشمالي من مسجد المردوم



واستوزر ابن زيدون الشاعر الكبير الذي قدم إلى إشبيلية في عهد أبيه المعتضد وردّ إليه منصبه القديم في قرطبة ذي الوزارتين وما أن لاقى ابن زيدون ربّه، حتى سارع المعتمد بتعيين أبا بكر ابن زيدون وهو شاعر أيضاً!. ويحكى أنه حين أُمسك بلص اسمه الشهاب الأزرق، واكتشف المعتمد أنه شاعر، فطلب منه أن يتوب عن السرقة ليطلق سراحه، فأخبره أن للسرقة لذة لا يعرفها إلا من يجربها، ويروى أنه طلب من المعتمد أن يجربها!. خيّره المعتمد بين التوبة أو السجن... فاختار التوبة، وعيّنه المعتمد قائداً للحرس!

زمانه كان من أزهى الأزمنة الأندلسية في الثقافة والعلوم، وهو العصر المعروف بـ«عصر ملوك الطوائف»، الذي نشر فيه العلم والكتب التي كانت في مكتبات الخلفاء الأمويين بعد زوال دولتهم، وصار تشجيع ملوك الطوائف للعلوم بشتى أنواعها... شغلهم الشاغل، رغبةً منهم في إعلاء شأنهم وشأن مملكتهم بين الممالك. هذا العصر الذي صمّت آذاننا ببيانات وكتب وأفلام وثائقية تذمّ وتقدح فيه حتى صيّر اسم ملوك الطوائف رديفاً للفساد والمجون والجواري وأنهار من الخمور، بل وصار نبزاً يرمي به الحسّاد على من أنعم الله عليهم!. ويغفل الكثير من جوانبه الأدبية والثقافية. وقد اشتهرت كل مملكة بفن من الفنون وبرزت بعلم من العلوم فاشتهرت مملكة آل عباد في إشبيلية بالشعر، فبرز المعتضد، والمعتمد، وابن اللبانة، وابن زيدون، وابن حمديس، والحافظ المعروف بابن الحذاء، والراضي بن المعتمد الذي اشتهر بالشعر والتاريخ والأنساب، والشاعر ابن وهبون، وابن عمار وغيرهم الكثير، وفي سرقسطة ZARAGOZA قامت قائمة العلوم التطبيقية في ظل أسرة آل هود ومشاركتهم في التسابق نحو التحصيل العلمي بجانب العلماء، فكانت الرياضيات وعلوم الفلك والفلسفة أعمدة راسخة، ناهيك عن اعتناء بني هود بالهواء الذي يتنفسه العرب المسمى... شعراً!. وفي مملكة دانية DENIA برز الاهتمام بعلوم القرآن والحديث وإنزال العلماء منازلهم، وبرز بنو الأفطس في بطليوس BADAJOZ بالأدب والعناية بالأدباء حتى وصفت أيامهم بأنها كانت كالأعياد والمواسم السعيدة التي زانت بلاطهم، وكانت ملجأ أوى إليه كل ذي علم وأدب. وبرز في طليطلة TOLEDO بنو ذي النون واهتماماتهم بالعلوم الفلكية والخرائط الجغرافية إضافة إلى ترجمة الطارف والتالد من الكتب. السواد الأعظم من علماء وفقهاء الأندلس الأعلام، برزوا في هذا

مسجد المردوم في طليطلة وقد حول لكنيسة لكنه لا يزال يتباهى بمن صنعه



شاهد القبر وأبيات المعتمد



العصر الجميل وتألقوا، ومنهم ابن حزم، وابن رشد الجد، وابن زيدون، والعالم الفلكي الزرقالي، والشنتيري، وابن عبدالبر النمري، وأسرة آل زهر التي نبغت في الطب، وعالم الرياضيات ابن الصفار، وابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، وغيرهم مئات لا محل لحصرهم هنا، وأخبارهم مبثوثة في الكتب قد فاضت بها. تكثّفت في عصرهم ونشطت البعثات العلمية من الأندلس إلى بلاد الإسلام في المشرق، وقدوم علماء المشرق إلى الأندلس.

كان هذا العصر موعداً لتدشين نوع جديد من الأدب لم يشتهر في العالم من قبل ألا وهو الروايات الخيالية، فقد خطّ ابن شهيد رسالة «التوابع والزوابع»، التي تخيّل فيها أنه قد رحل إلى عالم الجن والتقى هناك بشياطين الشعراء، الذين كانوا يصاحبون فحول الشعراء ويلهمونهم الشعر[11]، مثل امرؤ القيس ومن تبعه من أهل الجاهلية وصولاً إلى المتنبي، ولم يسلم منه كتّاب النثر مثل الجاحظ وغيره، فجادلهم وانتزع منهم – بحوار شيّق – اعترافاً بملكته الشعرية. كذلك كتبت رواية «حي بن يقظان» لابن طفيل، التي تدور أحداثها حول طفل يجد نفسه في جزيرة وينشأ فيها صبياً ترعاه ظبية، وحيداً من الخلان، وعندما ماتت، أخذ يحاور نفسه ويستنتج من حوار داخلي جميل مزج فيه التصوّف بالفلسفة أدلة أن للكون إله، ثم تتطور القصة وتتشابك أحداثها! وسط هذه البيئة الثقافية الغنّاء، خرج يوماً المعتمد مع وزيره ابن عمار للتنزه قرب نهر إشبيلية، فأوحى نهر إشبيلية بشطر بيت للمعتمد قال فيه:

صنعت ريح على الماء زرد

وطلب من خدنه ابن عمار أن يكمله له البيت فحصر وتولّى عنه شيطان شعره. فوثبت إحدى الغسالات اللواتي كنّ على النهر، يغسلن الثياب، وأكملت الشطر قائلة:

أي درع لقتال لو جمـــد

فذهل المعتمد لعفويتها المنسابة، وشاعريتها، وأضاء قلبه نور جمالها، وتلاقت الأرواح تلك الجنود المجندة، وشغفته وشغفها حباً، فاشتراها من مالكها رميك، وتزوجها في احتفالية تحت ظلال الورد، وعبق الأشعار. من ضفة النهر... جارية تغسل البالي من الثياب، إلى ضفة المُلك يكسوها الحرير،... اعتماد الرميكية، الجارية.... الملكة!

11 حسب ما كان يعتقد العرب الأقدمون.

لا تسألي عني فإني عاشق

من لا يرد هواي عنها عاذل

حب اعتماد في الجوانح ساكن

لا القلب ضاق به ولا هو راحل

المعتمد بن عبَّاد

وصارت أيام إشبيلية أفراحاً متتالية، وتحوّل الجمال والأدب فيها إلى خبز يومي.
ضاق ابن عمار بالمكانة التي حازتها اعتماد، هذه الجارية المجهولة الأصل، وحدث أن بعثه المعتمد على رأس جيش لضم مدينة مرسية MURCIA فما أن هرب حاكمها خائفاً، حتى وثب ابن عمار عليها واستأثر بها، فلما علم المعتمد بخيانته بعث بجيش آخر لمرسية، ففرّ ابن عمار وظلّ فاراً لفترة طويلة، هجا أثناءها المعتمد واعتمد هجاءً قاسياً مقذعاً، قال فيه:

تخيرتها من بنات الهجان

رميكية ما تساوي عقالا

فجاءت بكل قصير العذار

لئيم النجارين عما وخال

قصار القدود و لكنهم

أقاموا عليها قرونا طوالا

فيا عامر الخيل يازيدها

منعت القرى وأبحت العيالا

أراك توري بحب النساء

وإني عهدتك تهوى الرجالا!

طارت القصيدة حتى بلغت مسمع المعتمد حتى جن جنونه وجُنّ في طلب إبن عمار واضعاً مكافأة لمن يأتي به. وما انقضى عام حتى قبض عليه وسيق إليه مكبّلاً. فذكره المعتمد بما كان بينهما من عهود الشباب والسهرات والصداقة حتى ظنّ ابن عمار خيراً، فجأة... تحول الحديث إلى هجائه المقذع، فضاقت الأرض به وزلزلت وأبصر السماء تهوي.. ستطبق عليه، فارت دماء المعتمد بعدها واحتد فاستلّ فأساً ضربه بها على رأسه، فخرّ مضرّجاً بدمائه، صريع الطمع وصريع لسانه...!

مئذنة الخيرالدا





الزخارف الأندلسية

في هذه الأثناء كان ألفونسو السادس ملك قشتالة CASILE وليون LEON، يلتهم الممالك الإسلامية الواحدة تلو الأخرى. كانوا يتساقطون كأحجار الدومينو، مستغلاً الفرقة والضعف وعدم التنسيق فيما بينهم، بعد أن أنهكهم بالجزية التي فرضها عليهم مقابل حمايتهم. رنا بصر ألفونسو إلى إشبيلية تلك الجوهرة الأندلسية النفيسة، وزاد في إصراره على احتلالها، سقوط طليطلة قلب الأندلس الجغرافي في يده، في ضربة كانت بداية العد التنازلي لسقوط الأندلس، وإن كان السقوط تم بعد أربعة قرون. يومها استشف شاعر أندلسي لمّاح ما سيحدث، وشعر بفداحة خسارة طليطلة، فأنشد:

يا أهل أندلس شدوا رحـالكم

فمـا المقـام فيهـا إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى

سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

ولو كان هذا الشاعر موجوداً في زماننا لتسابقت إليه الفضائيات طمعاً في تصريحاته وأسموه خبيراً إستراتيجياً!

أرسل ألفونسو رسالةً إلى المعتمد يقول فيها: «قد كثر بمجلسي الذباب واشتدّ عليّ الحر، فألقِ لي من قصرك بمروحة أروح بها على وجهي وأطرد الذباب عني!»

شعُر المعتمد بنية ألفونسو، ورغبته المتأججة بالإستيلاء على إشبيلية، وأيقن أن لا سبيل إلى الخلاص، سوى أن ينفذ الفكرة التي طالما تردد فيها... الاستعانة بالمرابطين. لكنّه حزم أمره عندما رأى العمائم تتطاير عن رؤوس ملوك الطوائف. فبعث إلى ألفونسو رسالة يقول فيها: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك مراوح من الجلود اللمطيةتروّح منك لا تروّح عليك!»[12].

في نفس الوقت كانت رسله عبرت البحر إلى المغرب، لمقابلة يوسف بن تاشفين، زعيم المرابطين، وحثّه على الإسراع لنجدة الإسلام في شبه الجزيرة، قبل أن يحيط به ألفونسو ويجتثّه. وردّ على منتقدي الاستعانة بيوسف بن تاشفين من حاشيته بجمله خلدها التاريخ: «لأن أرعى الجمال مع ابن تاشفين خير من أن أرعى الخنازير مع ألفونسو»!

12 الجلود اللمطية: جلود اشتهرت بدباغتها قبائل لمتونة البربرية في بلاد المغرب التي يتزعمها يوسف بن تاشفين.

المئذنة ملتصقة بزرقة السماء



فهب ابن تاشفين لنجدة الإسلام في الأندلس كإعصار، يتقدم جيشاً عظيماً من قبائل البربر، يقودهم وهو في الثمانين من عمره... يشتّم رائحة الجنّة. منطلقاً من مراكش العاصمة التي أنشأها في جنوب المغرب وتوفي فيها. تدافعت الجيوش نحو شبة الجزيرة الأندلسية من صوب مضيق جبل طارق لمقابلة قوات ألفونسو، وبدأت المعركة.

30/5/1086م

في البداية التحمت القوات الأندلسية بقيادة المعتمد وأبنائه بطليعة جيش ألفونسو. وممن كان في جيشه، جد المؤرخ ابن خلدون، وكذلك ابن العالم الجليل ابن حزم. أبلت القوات الأندلسية بلاءً حسناً وقاتل المعتمد قتالاً شديداً، وانسكب الدم منه أنهاراً، فلم يتراجع، وعقرت تحته ثلاثة أفراس فلم يتقهقر ويفر... بل بقي ثابتاً راسخاً كالطود، نصب عينيه وبغيته... إحدى الحُسنيين. في تلك اللحظة، والرماح تخرق الصدور والسيوف تضرب الطلى، تذكر ابناً له يكنى بأبي هاشم تركه في إشبيلية عليلاً، فأنشد والدماء تسيل منه:

أبا هشـــام هشمتنـــي الشفـــار

ولله صبري لـــذاك الأوار

أبا هاشم شخيصك تحت العجاج

فلم يثنني ذكره عن الفرار

فكانت قريحته وانسكاب قوافيه لا يجفان في حرب ولا سلم، وألقى بجسده مجدداً في رحى الحرب، التي كانت سجالاً. بدأت تميل الكفة لألفونسو. عندها وفي اللحظة الحاسمة، يوم ضاقت الرحيبة بجيش الأندلس وظن أهلها الظنون. تقدّم البربر بجمالهم، ليوجهوا الضربة القاضية لجيوش ألفونسو السادس، في معركة من المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام في الأندلس، سميت بمعركة الزلاقة SAGRAJAS، لكثرة ما سكب من دماء على حومتها، جعلت الأرض تنزلق بالمتحاربين.

انتصار الإسلام في هذه المعركة مدّ في عمره بالأندلس لأربعمائة عام بعدها.هرب ألفونسو السادس جريحاً يصطحب الهزيمة... يتكآن على بعضهما البعض، وإن كان احتفاظه بطليطلة هو الانتصار الحقيقي الذي لم يفطن له المسلمون - حاصرها المرابطون بعدها لكن دون أدنى فائدة -. عاد ابن تاشفين إلى المغرب تاركاً وراءه عدداً غير قليل من جنود جيشه كقاعدة لانطلاق عمليات الجهاد في الأندلس... وكقوى أمر واقع!.

أياً كانت الأسباب وتحليلات المؤرخين والتي تضاربت، رجع ابن تاشفين إلى الأندلس، وقام بحملة لخلع ملوك الطوائف ونفيهم إلى المغرب، مستنداً على فتاوى استهجنت حياة اللهو والبذخ ورجوع الحكام إلى التناحر في ما بينهم ، بل واستنجادهم بألفونسو السادس ضد بعضهم البعض. وذكرت بعض المصادر أن المعتمد كان قد رأى الطمع في عين ابن تاشفين لما رأى ازدهار الأندلس وزينتها، وقارنها بالصحراء التي جاء منها، فقرر التحالف مع ألفونسو لإخراج المرابطين. لكننا نقول أن التاريخ في بعض الأحيان يكتبه المنتصر، وابن تاشفين هو المنتصر. اتجهت قوات المرابطين إلى إشبيلية لخلع المعتمد فاستبسل في قتالهم وأنشد:

لما تماسكت الدمــوع

وتنهنـه القلب الصديع

قالوا الخضوع سياسة

فليبد منك لهم خضوع


سور القصر الملكي الخارجي

الكاتدرائية محل المسجد





نصب المعتمد بن عباد



وألذ من طعم الخضوع

على فمي السم النقيع

إن تستلب منـــي الدنــا

ملكي وتسلمني الجموع

فالقلب بين ضلــوعـــه

لم تسلم القلب الضلوع

لم أستلب شرف الـطبـاع

أيسلب الشرف الـرفيع

قد رمـت يـوم نـزالـهـم

أن لا تحصنني الـدروع

وبرزت ليس سوى القميص

عـن الحشاشـي دفوع

وبذلت نفسي كـي يسيـل

إذا يسيـل بهـا النجيع

مـا سرت قط إلـى قتـال

وكان من أملي الـرجـوع

شيـم الألــى أنـا منـهـم

والأصـل تتبعـه الفـروع

فغلبت الكثرة الشجاعة، وسيول الماء غمرت حقول الأزهار واقتلعتها. وسيق المعتمد واعتماد وحاشيتهما وسط طرقات إشبيلية، تشيّعه العيون وتودعه الحدائق ويبكيه النهر. لم يحمل معه إلا ثياباً ستتخلّق.. وقوافٍ لاتنفد. سيق إلى قرية أغمات في المغرب، نحو الشرق من مراكش، حيث القيد والقيود.

تَبدلتُ مِن عزِّ ظلِّ البُنـودِ

بذُلِّ الحَديدِ وَثِقَل القُيـــود

وَكانَ حَديدي سِناناً ذَليقاً

وَعضباً دَقيقاً صَقيل الحَديد

مدخل القصر



فَقَد صارَ ذاكَ وَذا أَدهَما

يَعُضُّ بِساقيَّ عَضَّ الأُسود

صاغ هناك أجمل قصائده وأصدقها، فقد خرجت من قلبه المكلوم. في يوم عيد رأى بناته يرتدين الأسمال البالية بعد أن كانت كسوتهن من حرير يلّفهم رغد من العيش، فاستعبر منشداً:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

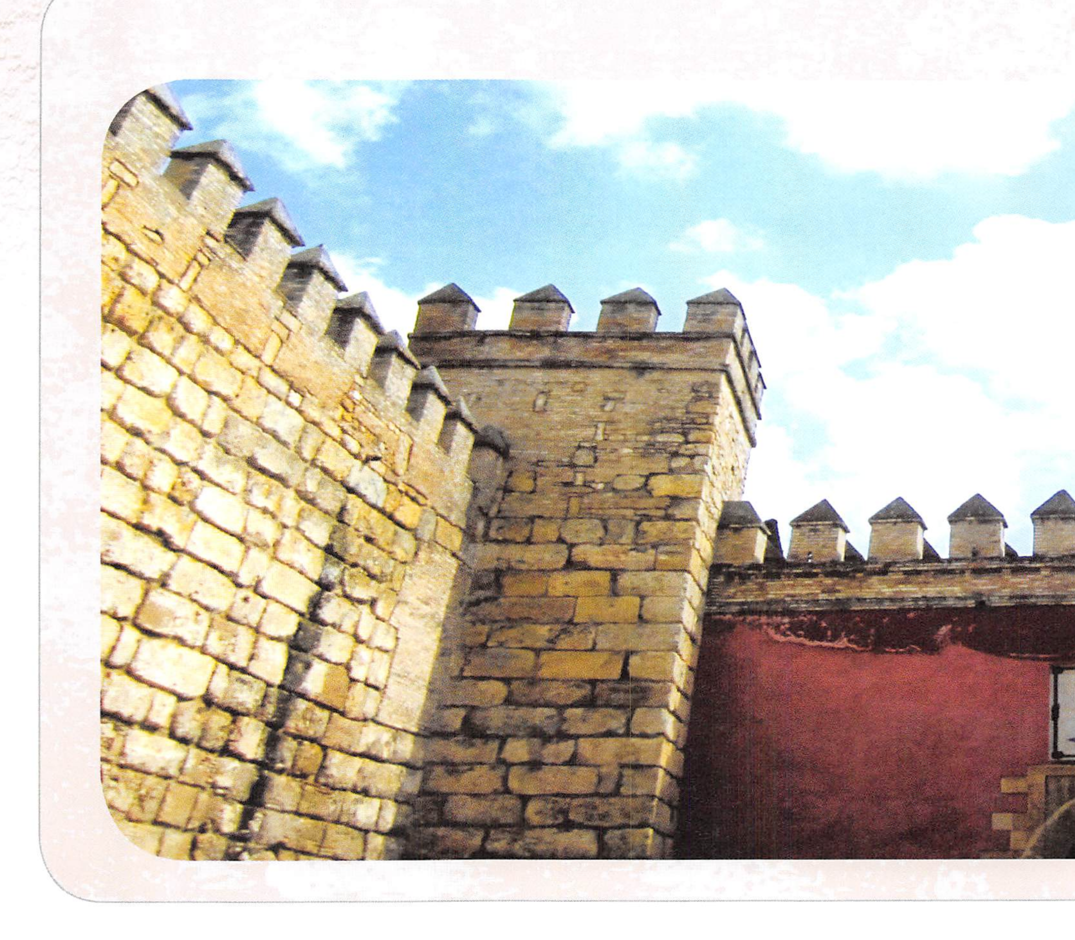
وكان عيدك باللذات معمورا

وكنت تحسب أن العيد مسعدةٌ

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً

في لبسهنّ رأيت الفقر مسطورا



معاشهـنّ بعيـد العـزّ ممتهـنٌ

يغزلن للناس لا يملكن قطـميرا

برزن نحوك للتسليم خـاشعـةً

عيونهـنّ فعـاد القلب موتورا

قد أُغمضت بعد أن كـانت مفتّرةً

أبصارهنّ حسيراتٍ مكـاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حـافيةً

تشكو فراق حذاءٍ كـان موفورا

قد لوّثت بيد الأقذاء واتسـخت

كأنها لـم تطـأ مسكـاً وكافورا

لا خدّ إلا ويشكو الجدب ظاهـره

وقبل كان بمـاء الـورد مغمـورا

لكنـه بسيــول الحــزن مُختــرقٌ

وليس إلا مع الأنفاس ممطـورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءتُه

ولست يا عيدُ مني اليوم معذورا

وكنت تحسب أن الفطــــر مُبتَهَجٌ

فعاد فطرك للأكبــاد تفطيرا

قد كان دهرك إن تــأمره ممتثلاً

لما أمرت وكان الفعلُ مبـرورا

وكم حكمت على الأقوام في صلفٍ

فردّك الدهر منهيــاً ومأمورا

مــن بـات بعدك في ملكٍ يسرّ به

أو بات يهنـأ باللذات مسرورا

الحائط الحجري المتبقي من العهد الموحدي



ولم تعظه عوادي الدهـر إذ وقعت

فإنما بات في الأحلام مغرورا

المعتمد قرب اعتماد، مستلقيان على سرير الأسر في أغمات، يحدقان في السقف الطيني، الجو الحار الرطب يستطيل له النهار ويتمطى له الزمن، حتى كأن لا زمن!. سكون رهيب يلف العالم، تنطق اعتماد قائلةً: ما رأيت منك خيراً قط! المعتمد يكبت جاهداً دمعة لئلا تسيل من مقلته فسالت من قلبه، وقال ببطء: ولا يوم الطين؟!. تلتفت إليه ويلتفت إليها وتتعانق الأجساد والأرواح.

يوم الطين، يوم أن رأت الرميكية في السوق، البدويات بائعات اللبن يخضن في الطين، وهنّ يصحن باللبن جلباً للمشترين، فاشتهت نفسها أن تقلدهن، وما أن علم المعتمد بما تهفو إليه نفسها، حتى أمر بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيّرهم طيناً، وبسط في حديقة القصر، وأمر بالقرب فملئت باللبن، عندها خرجت اعتماد تجري وتجري بناتها والجـواري خلفها، يخضن في طين المسك والعنبر، يحملن القرب، ينادين على اللبن.

ولا يوم الطين؟!........ ولا يوم الطين!

طلب أن يكتب على قبره هذا الرثاء الذي رثا به نفسه:

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائِحُ الغادي

حَقّــاً ظَفَـرتَ بِأَشلاء ابن عَبّـادِ

بِالحِلمِ بالعِلم بِالنُعمى إِذ اِتّصلَت

بِالخَصبِ إِن أَجدَبوا بالري لِلصادي

بالطاعِن الضارِب الرامي إِذا اِقتَتَلوا

بِـالمَوتِ أَحمَرَ بالضرغِـم العـادي

بالدَهر في نِقَـم بِالبَحر فـي نِعـم

بِالبَدرِ في ظُلم بِالصَدرِ في النـادي

نَعَم هُوَ الحَقُّ وَافانـي بِـهِ قَدَرٌ

مِـنَ السَمـاءِ فَوافـانـي لِميعادِ

وَلَـم أَكُـن قَبـلَ ذاكَ النَعشِ أَعلَمُهُ

أَنَّ الجِبـال تَهـادى فَـوقَ أَعـوادِ

كَفاكَ فارفُق بِما استودعتَ مِـن كَرَم
رَوّاكَ كُلُّ قَطـوب البَـرقِ رَعّـادِ
يَبكـي أَخـاهُ الَّذي غَيَّبتَ وابِلَـهُ
تَحتَ الصَفيـحِ بِدَمعٍ رائِحٍ غـادي
حَتّـى يَجـودَكَ دَمعُ الطَلِّ مُنهَمِراً
مِن أَعيُنِ الـزَهرِ لم تَبخَل بِإِسعـادِ
وَلا تَـزالُ صَـلاةُ اللَهِ دائِـمَـةً
عَلـى دَفينِكَ لا تُحصـى بِتَعدادِ

أنزلت اعتماد تحت الثرى
ولحق بها المعتمد بعد أيام،
فمعاً عاشوا حياتهم فوق الثرى
ومعاً كانوا تحته.

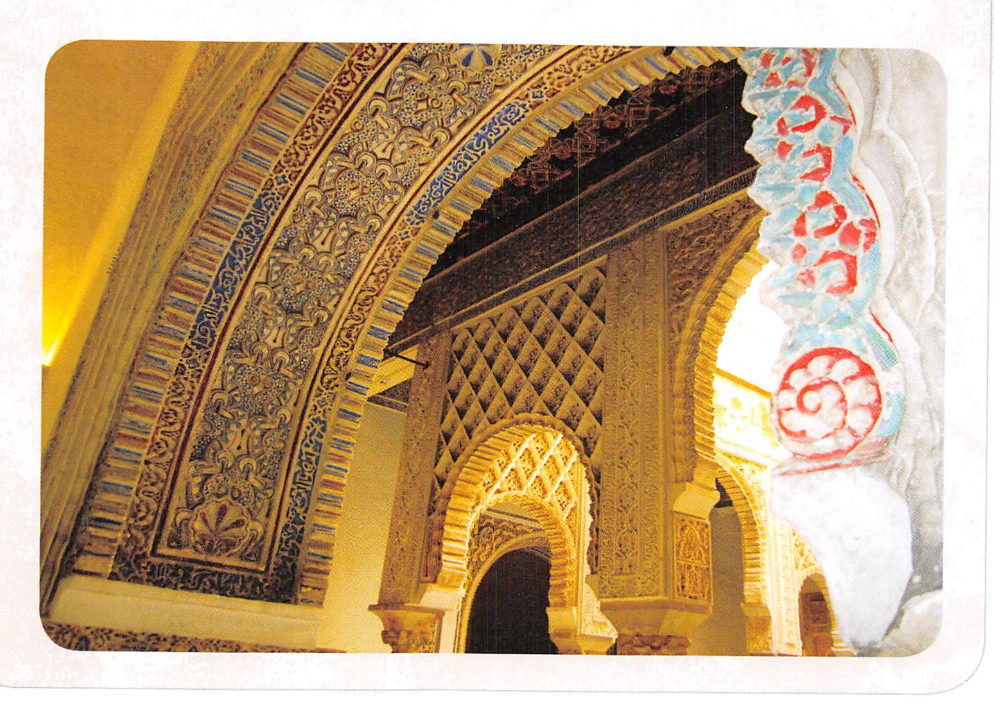
فحتى الموت لم يفرقهم إلا أياماً... أظنها كانت على المعتمد قروناً طوالاً!

رحم الله المعتمد، وابن تاشفين. نطوي هذه الصفحة ونحن نطوي الطريق إلى إشبيلية. ما أكثر صفحات الأندلس الرمادية، لا أبيض تام ولا أسود داج، وما الحياة إلا مزيج من ذا وذاك، قال المتنبي:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه
وإن سر بعضهم أحيانا

نصل إلى إشبيلية، نعبر فوق جسر حديث ذو تصميم مميّز، يمرّ من تحته نهر إشبيلية، تلوح أمامنا المئذنة الخيرالدا، منتصبةً وخلفها السماء الزرقاء الصافية، نصل إلى الساحة الرئيسية بين القصر- الكازار - ومئذنة الخيرالدا، واسم الخيرالدا، هو اسم السهم الذي وضع فوق المئذنة ليدل على اتجاه الريح. تقف أسفل المئذنة التي يبلغ طولها قرابة المائة متر والتي كانت لقرون منذ بنائها من أطول ما بنى إنسان من أبراج وتطاول في بنيانها، وهي الجزء الوحيد الباقي من مسجد إشبيلية، الذي حوّل إلى كاتدرائية تعتبر ثاني أكبر كاتدرائية في أوروبا بعد كنيسة بطرس في روما،

قاعة السفراء

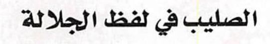


و فيها قبر كريستوفر كولمبس، مكتشف القارة الأمريكية، وفاتح الآفاق أمام تحول إسبانيا الى إمبراطورية. ويقع في الكاتدرائية فناء البرتقال، وهو في نفس موقع فناء المسجد الأصلي. كما أن باب المسجد من الناحية الشمالية، يحتوي على العقود والزخارف الأسلامية ونقش على مقابضه «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد». بنيت المئذنة في عهد الموحدين، سنة 1188 ميلادي، في أواخر عهد أبي يعقوب يوسف الموحدي وأكملها ابنه أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي، وبداخلها درب حلزوني كان يصعد به المؤذن على دابته، ليؤذن فوقها وذلك لطولها. الزخارف الإسلامية الأندلسيّة الجميلة تدعو للإعجاب ويدعو للعجب أكثر التساؤل: كيف بنيت قبل ألف عام؟ ويوجد أعلى المئذنة مبنى حديث وضعت فيه أجراس الكنيسة، وهذا مبنى محدث بعد سقوط إشبيلية عام 1248 ميلادي. قبلها كانت قمة المئذنة تعلوها ثلاث كرات – تفاحات – مطلية بالذهب إذا انعكست عليها أشعة الشمس أغشت أعين الناس. ونجد في بعض النصوص التاريخية ما يدلنا على أن الحجارة المستخدمة في بنائها كانت من حجارة قصر المعتمد، وبانيها الخليفة المنصور الموحدي، أمر بنفس

الوقت ببناء منارتين شبيهتين بمئذنة إشبيلية في المغرب، تقع إحداهما في مراكش في جامع الكتبية ومنارة حسّان القريبة من شاطئ مدينة الرباط، ويلقّبن بالشقيقات الثلاث.

نتجه جنوباً نحو القصر الكازار Alcazar وهو موقع القصور الملكية في إشبيلية على مر التاريخ، ومنها قصر المعتمد بن عباد المسمى بـ«القصر المبارك» وإن لم يكن له أي أثر الآن، لتعاقب السنين وتبدل الأيام وتداولها بين الحكام. وقد وضع الإسبان في حديقة القصر نصباً تذكارياً للمعتمد تحيةً له، ونحت عليه اسمه وعامي ولادته ووفاته وتحته لقّب بالملك الشاعر.

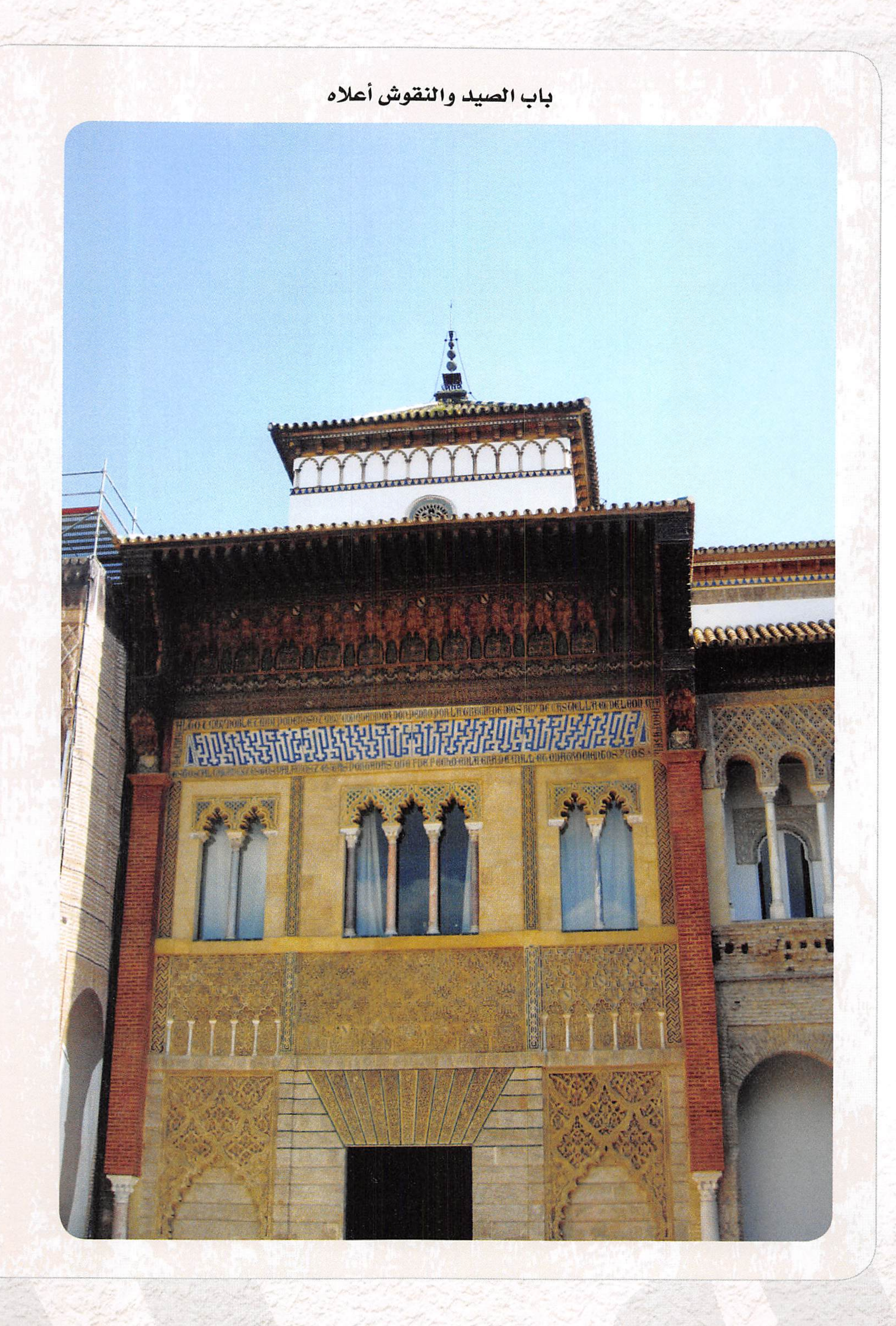
القصر الموجود حالياً ينسب للملك بيدرو Pedro الذي يلقب حيناً بالعادل وحيناً بالطاغية، والداخل لهذا القصر يلاحظ البناء الأندلسي المميّز، ذي الزخارف والنقوش والأقواس الباهرة والألوان المضيئة والحفر الماهر في الخشب، كل ذلك يعود إلى أن بنّائين ومهندسي القصر الذين اشتغلوا فيه، هم من المسلمين المدجنين. والمدجنين Mudejar، هم المسلمين الذي بقوا تحت الحكم النصراني بعد احتلاله مدنهم. ولحاجة النصارى إلى اليد العاملة الماهرة أبقوا عليهم مع بعض التضييق.



الصليب في لفظ الجلالة



باب الصيد والنقوش أعلاه





نقوش على الحائط

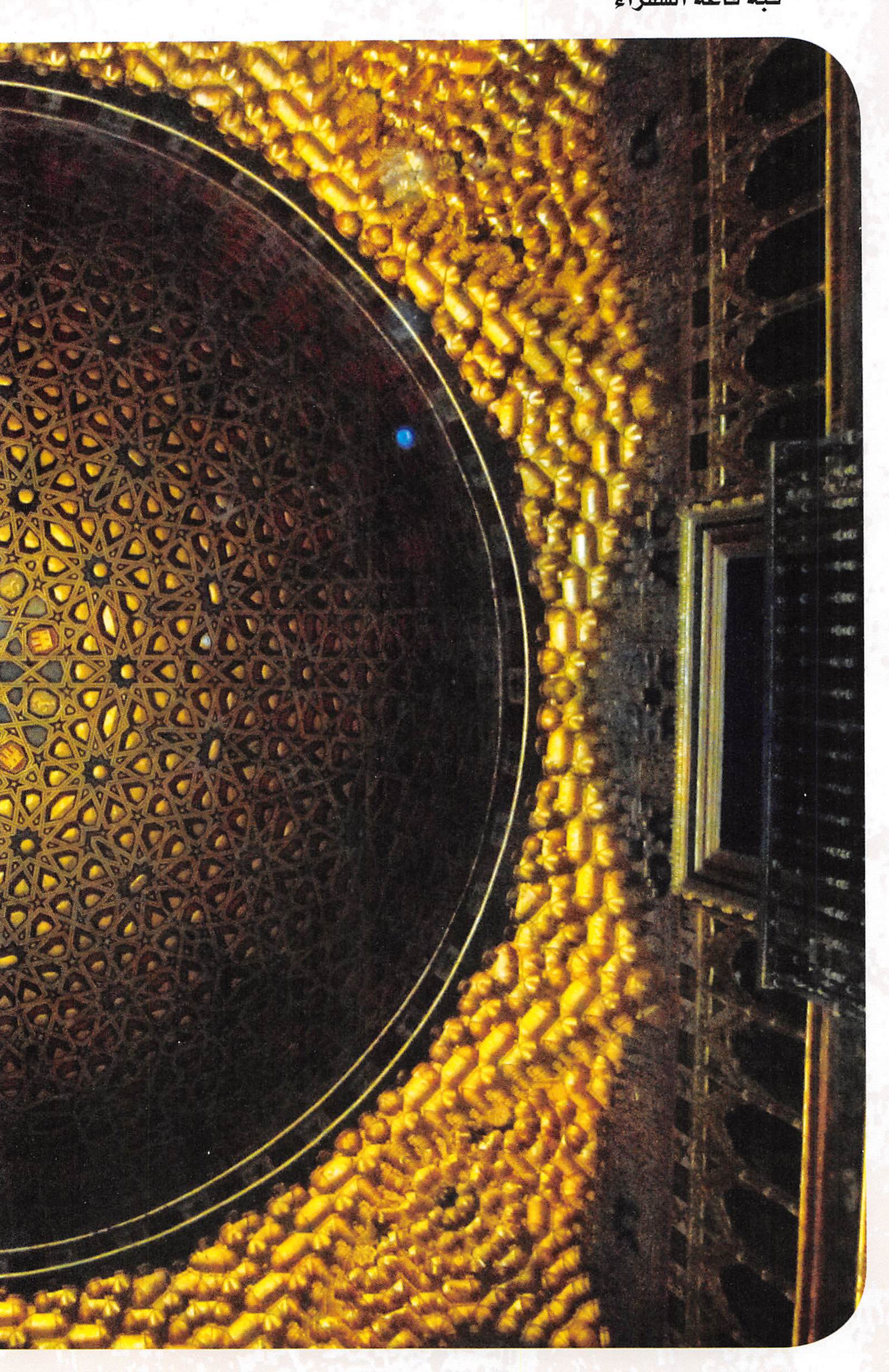
أراد الملك بيدرو أن يكون له قصر عظيم يذكره التاريخ به، وفي تلك الحقبة كان التصميم الأندلسي بزخارفه وأعمدته والأقواس الرشيقة بينها هو الطراز الرائج. بعض أجزاء صغيرة من القصر هي من بقايا الموحدين، مثل الحائط الحجري الذي نجوز منه إلى باب الصيد. وهم آخر من حكم إشبيلية من المسلمين. نتجوّل في القصر فنرى أثر الحضارة الإسلامية وسيّطرتها على الذوق الملكي النصراني في كل زاوية، فنتذكر من يبني البيوت والمباني في بلاد العرب بذوق غربي هجينٍ خالٍ من اللمحات الجمالية الإسلامية. وقد علل ذلك ابن خلدون، قبل قرون، في سفره القيّم «مقدمة ابن خلدون» بـ«أن المغلوب – حضارياً – مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده». ولقرون كانت الغلبة الحضارية أندلسية المصدر فأثّرت في لغة ولباس ومباني النصارى وغيرهم حتى أن بعض قساوستهم أقدموا علىترجمة الإنجيل للعربية كي يقرأه النصارى من رعيتهم لأنّ ألسنتهم صارت عربية حتى أنهم يسمّون بالمستعربين Mozarabs.

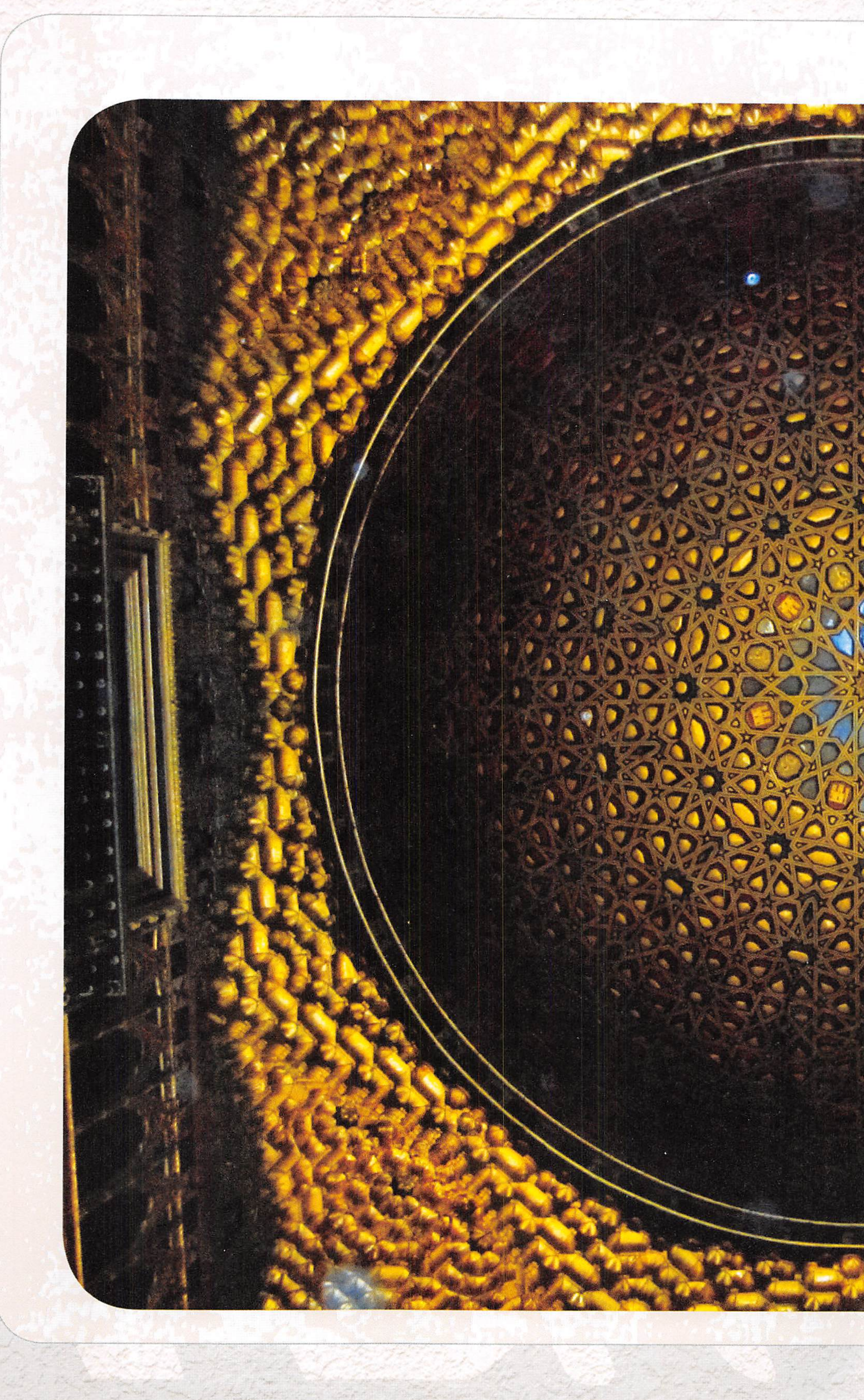
عند الوقوف أمام باب الصيد نرى بوابة ذات نقوش أندلسية جميلة يعلوها لفظ الجلالة – الله – ، ويعترض حرف اللام في الوسط خطٌّ أفقي ليكوّن صليباً!. وفي القصر الكثير من النقوش التي تحاول أن تحاكي عظمة نقوش قصور الحمراء. لكنّها افتقدت للروح التي صنعتها هناك. توجد بعض الآيات القرآنية التي نسخت بأوامر نصرانية دون إدراك لمعناها! لكنها نسخت لجمال الخط العربي الأندلسي.

عند دخولنا قاعة السفراء، رفعنا رؤوسنا للأعلى محدقين في السقف لفترة ليست بالقصيرة، منبهرين بالقبة المذهبية الرائعة المنقوشة في أعلاه، المصنوعة بأيدي المدجنين. في الأدوار العليا من القصر، أجنحةٌ مصممة على طراز أوروبي، وحوائط وأسقف مكسوّة بالرسومات واللوحات الزيتية الضخمة. وبرأيي – المتواضع – أرى أن هذا القصر يرمز– معمارياً – إلى التزاوج بين الطراز الأندلسي في آخر عهوده والطراز الأوروبي في بداية إشراقته والمسمى بعصر النهضة.

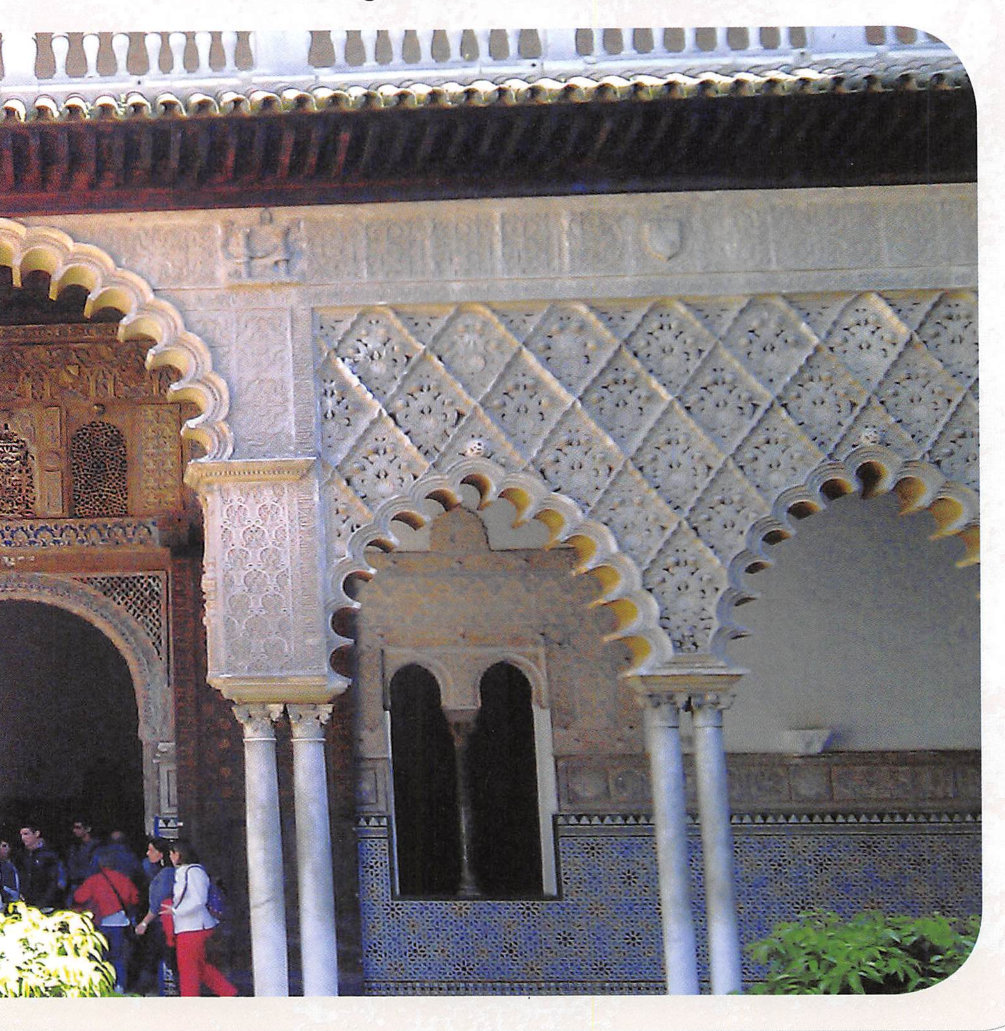
من قاعة السفراء، ندخل إلى بهو البركة، في تماثل وتماهي مع بركة الرياحين في قصر الحمراء، الأعمدة والأقواس مقتبسةٌ من نظيراتها في غرناطة، لكن صانعيها لم يدركوا ما كان عليه الصُناع هناك، الصفوة الحاذقة من المسلمين، أيدٍ متوترة تنقش، تريد أن تهرب من خبب الليالي، نحو الخلود. مهما ارتقى فن المدجنين وبرعوا، إلا أنّ

قبة قاعة السفراء



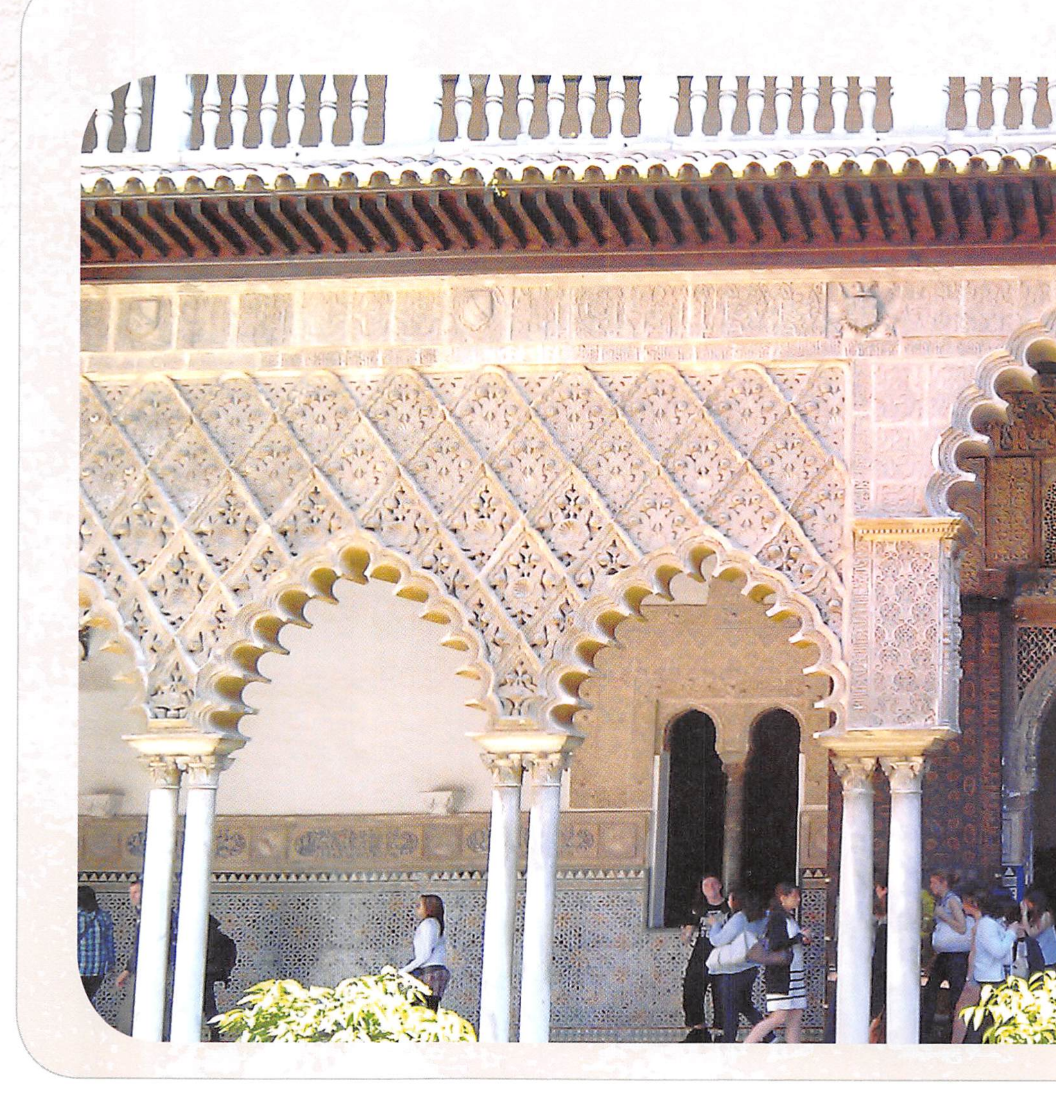


بهو البركة حيث الأقواس والأعمدة والعقود من صنع المدجنين



ما صنعته أيديهم يؤكد لمن يرى ويبصر بأنهم لم يفلحوا باللحاق بركب الغرناطيين. تطوّق القصر من الناحية الجنوبية حدائق غنّاء جميلة يرتفع فيها السرو وتتضوّع في أرجائها عطر الورود والياسمين وأشجار البرتقال المثمرة، ويسمع خرير الماء فيها وهو يقذف من النوافير في أحواض ملئت أسماكاً. وحيثما ولّينا وجوهنا نجد... النخيل - آه النخيل مجدداً - أين أنت يا أيها الداخل؟ يا صقر قريش، أنشدنا بارك الله فيك:

يا نخل أنت غريبة مثلي في
الغرب نـائية عـن الأهـل



فأبكي وهل تبكي مكممة

عجماء لم تجبل على جبلي

ولو أنها عقلت إذاً لبكت

ماء الفرات ومنبت النخل

ونحن نقف أمام هذه النخلة السامقة، والسيّاح من جميع أصقاع الأرض ما عدا بني جلدتنا! نردد.. مع الداخل...: يا نخل أنت غريبة مثلي!

نخرج من القصر فنجد عن شمالنا دار التعاقد، وهو مبنى كانت تدار منه المستعمرات الإسبانية في القارة الأمريكية. وترشد نصوص بثت في الكتب إلى أن دار التعاقد قد

بنيت على أنقاض أحد قصور الموحدين.

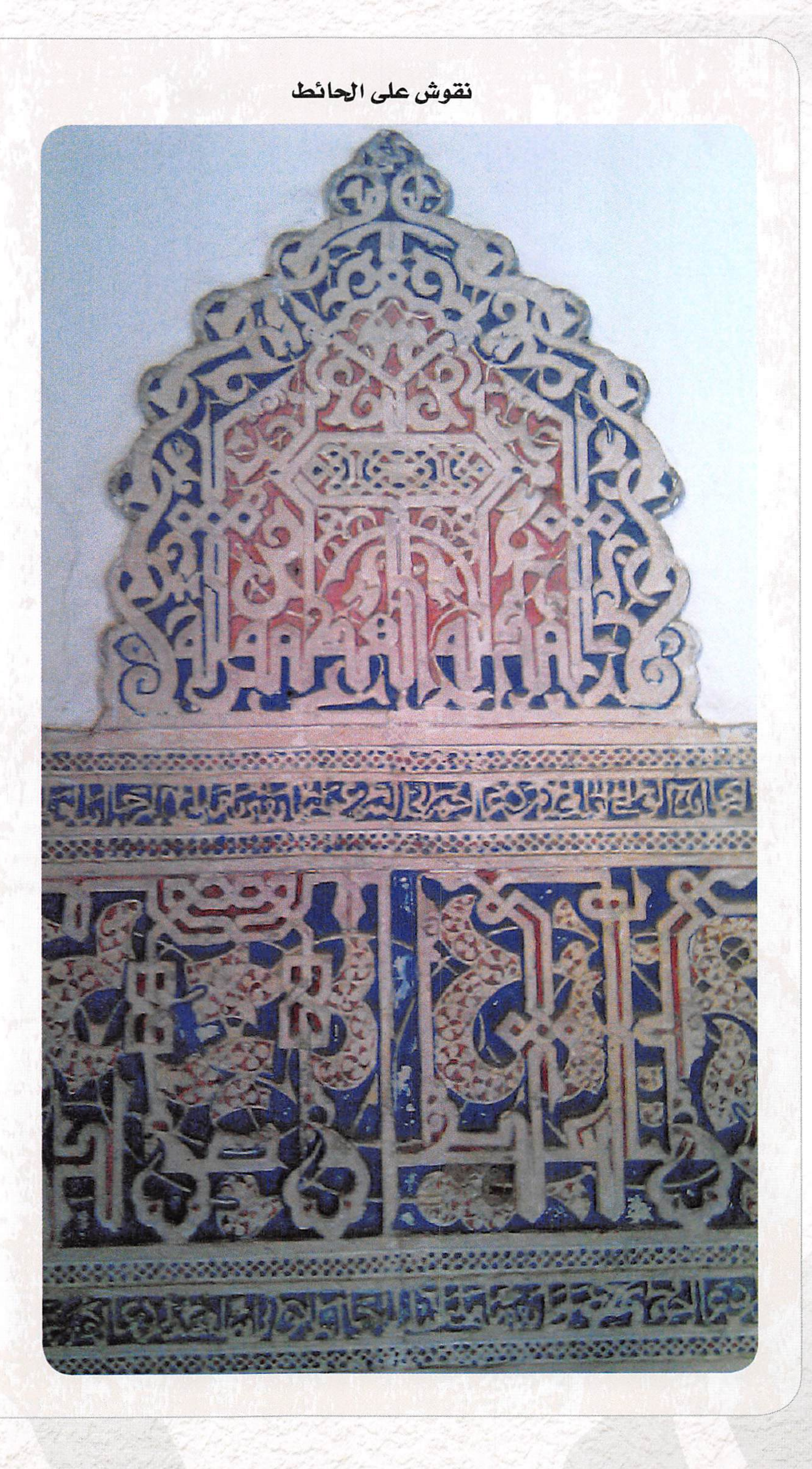
نتجه غرباً نحو ضفة نهر إشبيلية، إلى برج الذهب Torro del oro، تحفّه النخل، والنهر يجري من ورائه، يبلغ ارتفاعه 15 متراً، وقد بني في العام 1221 ميلادي، كما رمم البرج عدة مرات بسبب ما أصابه من زلازل. غدا الآن أحد رموز المدينة البارزة بجانب رمزها الأعظم مئذنة الخيرالدا. وتعددت الروايات حول وظيفة هذا البرج، فمنهم من قال إنه كان يوجد على الضفة المقابلة للنهر برج يقابله، وبينهما تمتد سلاسل الحديد ليكونا بمثابة بوابة للنهر. ومنهم من قال إنه كان مقراً لتحصيل الجمارك من السفن التي تجري في النهر، وقيل إنما هو برج من أبراج سور القصر، وأنّ سور القصر كان متصلاً إليه في ما مضى من سوالف العصور.

إلى القرب منه نصعد من أحد مراسي السفن، لأحد المراكب النهري نبتغي جولةً على النهر، نبحر فيها مع التاريخ الذي مرّ من هنا. النهر يجري غير مكترث لتبدل الأيام والحكام، يجري كشريان لهذه المدينة فصدق قول من قال: إشبيلية من صنع نهرها.

حفر على الخشب

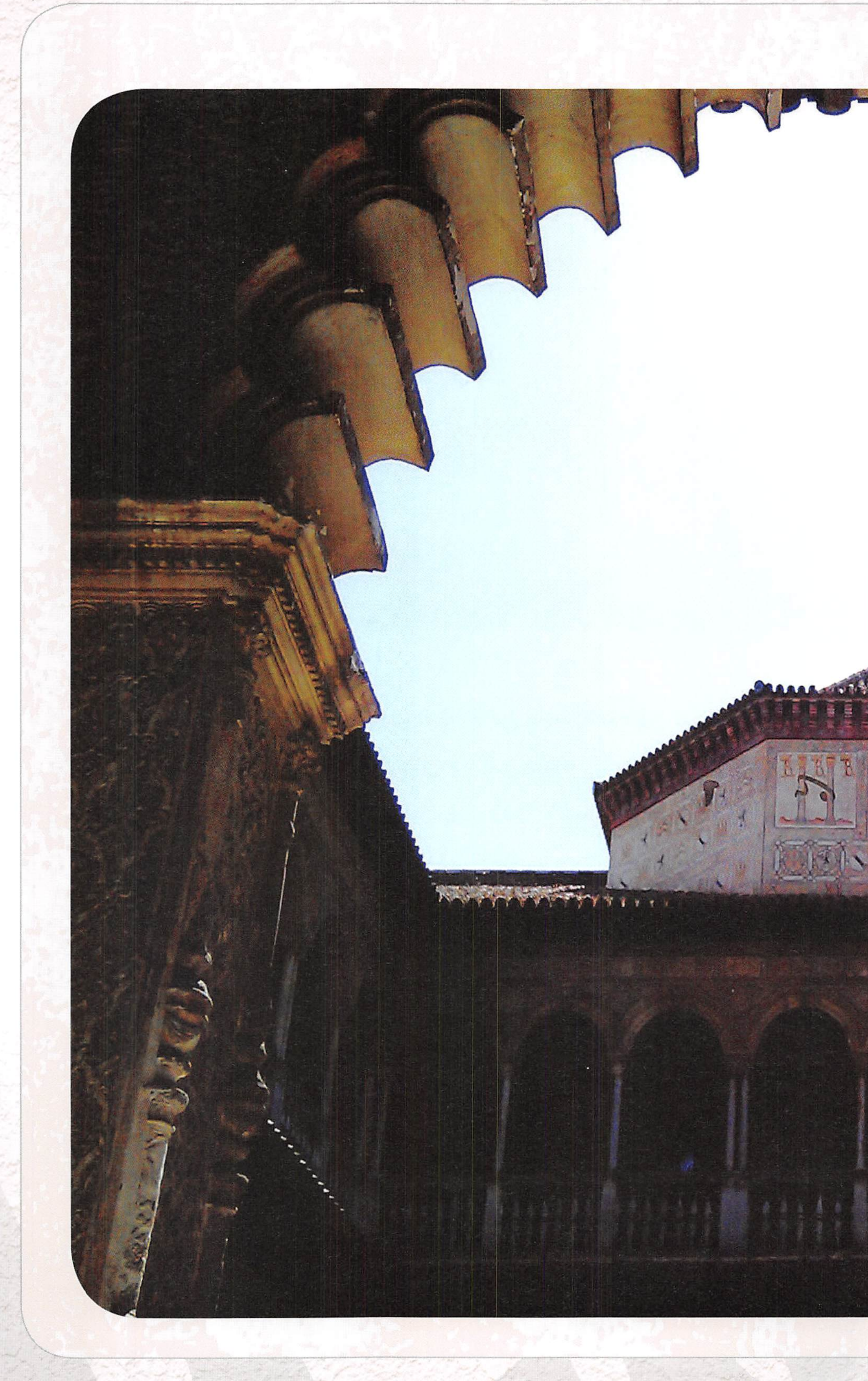


نقوش على الحائط

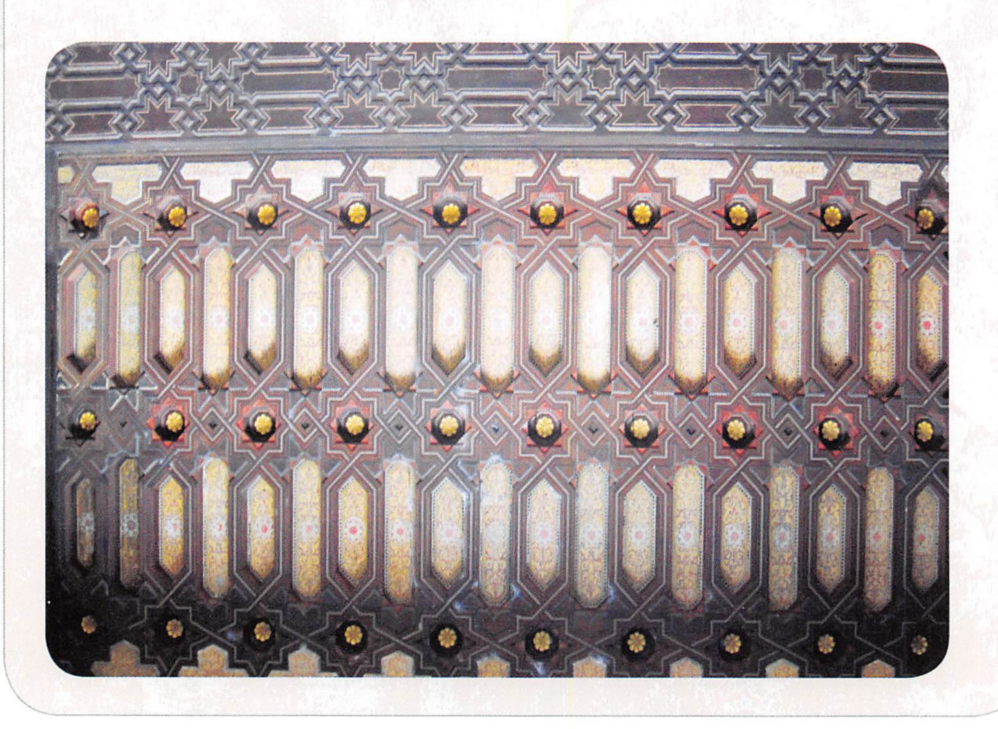


قبة صالة السفراء من بهو البركة





سقف خشبي ملون

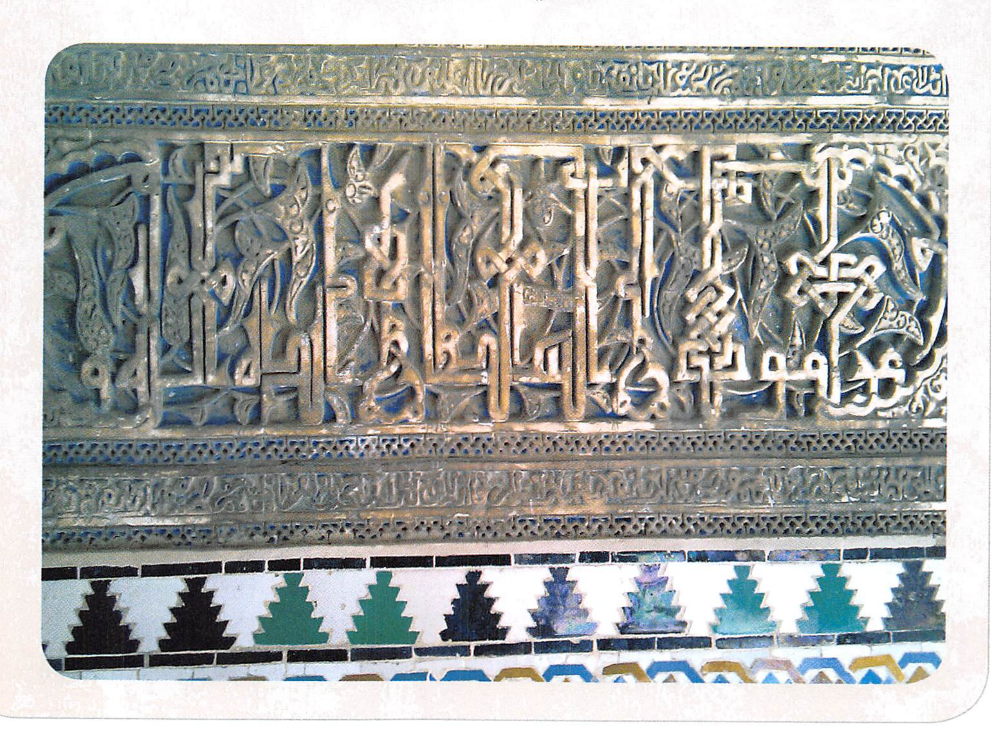


النسيم العليل يطربنا، وتتوقف عقارب الساعة عن ملاحقة بعضها البعض وتسكن، ويصفو الزمان لبرهة، وتدق ساعة الشجن، فندندن موشحاً صاغه أحد أبناء إشبيلية وهو ابن زهر - الحفيد - وهو من أسرة ابن زهر الإشبيلية، التي اشتهر رجالها ونساؤها بالطب وعلومه. اشتهر ابن زهر الحفيد بنظمه للموشحات الأندلسية، وسارت بأبياته الركبان. الموشّح، هذا الفن المجهول الأصل وكلّ يدعي له نسباً، منهم من نسبه لزمان الجاهلية ومنهم من نسبه لأزمنة أخرى، وأنا أميل إلى رأي يقول: أنها نشأت في أحضان العود والألحان المعزوفة وتركيب الكلام عليها، يدفعهم لذلك الرغبة الشرسة في الخروج عن القوالب الجامدة للشعر التقليدي، وهو ما ذهب إليه أديبنا غازي القصيبي وزاد أن قال: الموشحات احتفال بالحياة، أخذ مكانه في الذهنية العربية كتعبير عن الفرح... ومن موشحات ابن زهر التي اشتهرت، موشح أيها الساقي الذي يقول فيه:

أيها الساقي إليك المشتكى

قد دعوناك وإن لم تسمع

نقش يحاكي الغرناطي...هيهات



ونديم همـت فـي غـرتـــه

وبشـرب الـراح مـن راحتـه

كلما استيـقظ مـن سكرتـه

جذب الـــزق إليـه واتكـا

وسقانـي أربعـاً في أربـع

ما لـعينـي عشيـت بالنظـر

أنكـرت بعدك ضـوء القمـر

وإذا مـا شئت فـاسمع خبـري

عشيت عيناي من طول البكا

وبكى بعضي على بعضي معي

غصن بان، مال من حيث استوى

بات من يهواه من فـرط الجوى

خفق الأحشـاء موهـون القـوى

كلمـا فكر بـالبين بكـــى

ويحهيبكـــــي لمـا لم يــقع

ليس لـــي صبـر ولا جلــــد

يـالقـومــي عذلــوا واجتهــدوا

أنكــروا شكـــواي ممـــا أجـد

مثل حالي حقها أن تشتــكي

كمــد اليــأس وذل الطمـــع

كبدي حـري ودمـعـــي يكـــف

تعرف الذنــــب ولا تعتـــرف

أيهـــا المعرض عمـــا أصـــف

قد نما حبي بقلبــــي وزكا

لا تخل فـي القلــب أنـــي مدع

إن تحدثنا عن الموشحات وأنشدناها وطربنا لها، لا ننتشي ونسبح في فضاء الزمن الجميل دون أن نذكر موشح لسان الدين الخطيب - جادك الغيث - وهو من أشهر الموشحات إن لم يكن أشهرها، خصوصاً بعد أن دخل بعضه في الذاكرة العربية واحتلّ مكاناً بارزاً فيها، بصوت فيروز وأعاد توزيع اللحن وتعديله الأخوين رحباني:

جادَكَ الغيْثُ إذا الغيْثُ هَمى

يـا زَمـانَ الوصْـلِ بالأندَلُسِ

لمْ يكُـنْ وصْلُكَ إلاّ حُلُمـــا

في الكَرَى أو خلسَـةَ المُخْتَلِسِ

إذْ يقودُ الدّهْرُ أشْتاتَ المُنَـى

تنْقُلُ الخَطْوَ علَـى ما يُرْسَمُ

زُفَـــراً بيْنَ فُـرادَى وثُنَـــى

مثْلَما يدْعو الوفـودَ الموْسِـمُ

والحَيا قدْ جلّلَ الرّوضَ سَنا

فثُغورُ الزّهْـرِ فيـهِ تبْسِـمُ



حدائق القصر

نخلة في حديقة القصر



وَرَوَى النّعْمانُ عنْ ماءِ السّما

كيْفَ يرْوي مـالِكٌ عـنْ أنسِ

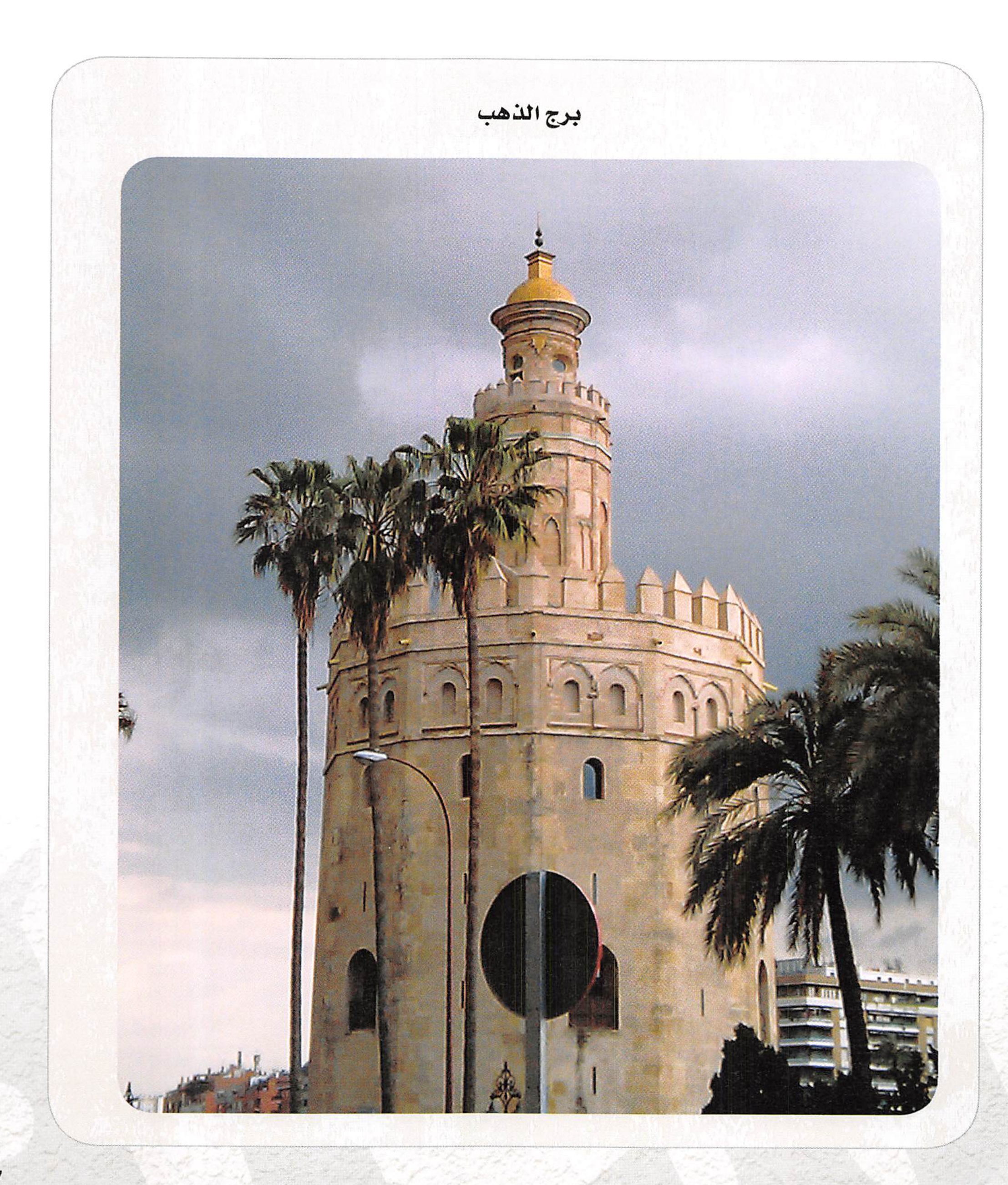
فكَساهُ الحُسْنُ ثوْباً مُعْلَمـا

يزْدَهـي منْهُ بأبْهَـى ملْبَسِ

في لَيالٍ كتَمَتْ سـرَّ الهَـوى

بالدُّجَـى لـوْلا شُموسُ الغُرَرِ

برج الذهب



مالَ نجْمُ الكـأسِ فيهـا وهَــوى

مُسْتَقيـمَ السّيْرِ سعْدَ الأثَـرِ

وطَرٌ مــا فيـهِ مــنْ عيْبٍ سَــوَى

أنّهُ مــرّ كلَمْــحِ البـصَـرِ

حينَ لذّ الأنْسُ مَـع حُلْوِ اللّــمَــى

هجَمَ الصُّبْحُ هُجومَ الحرَسِ

غارَتِ الشُّهْبُ بِنــــا أو ربّمــا

أثّرَتْ فيهـا عُيـونُ النّرْجِسِ

أيُّ شـــيءٍ لامــرِئٍ قدْ خـلَصـا

فيكونُ الرّوضُ قد مُكِّنَ فيـهْ

تنْهَبُ الأزْهـــارُ فيــه الفُـرَصـا

أمِنَتْ منْ مَكْرِهِ مــا تتّقيــهْ

فإذا الماءُ تَنــاجَــى والحَصَــى

وخَــلا كُلُّ خَليـــلٍ بأخيــهْ

تبْصِــرُ الــورْدَ غَيــوراً بــرِمــا

يكْتَسي منْ غيْظِهِ ما يكْتَسي

وتَـــرى الآسَ لَبيباً فــهِـمــا

يسْرِقُ السّمْعَ بأذْنَيْ فــرَسِ

يا أُهَيْلَ الحــيّ منْ وادي الغضـا

وبقلْبـــي مسْكَــنٌ أنْتُمْ بهِ

ضاقَ عَنْ وجْدي بكُمْ رحْبُ الفَضا

لا أبالي شرْقُهُ مــنْ غرْبِـهِ

فـأعِيدوا عهْدَ أنْسٍ قـدْ مضَــى

تُعْتِقـوا عانِيكُمْ مــنْ كـرْبِهِ

واتّقـوا اللهَ وأحْيُـوا مُغْرَمــا

يتَلاشَى نفَسـاً فــي نفَسِ



الخيرالدا

حُبِسَ القلْبُ عليْكُمْ كــــــرَمـا

أفتَرْضَــوْنَ عَفـاءَ الحُبُسِ

وبقَــلْبــي منْـكُـمُ مقْتَــربُ

بأحاديثِ المُنَى وهــوَ بَعيدْ

قمَـــــرٌ أطلَعَ مــنْهُ المَغْــربُ

بشِقوةِ المُغْرَى بهِ وهْوَ سَعيدْ

قد تساوَى مُحسِنٌ أو مُذْنبُ

في هَواهُ مـــنْ وعْدٍ ووَعــيدْ

ساحِرُ المُقْلَةِ معْسولُ اللّمى

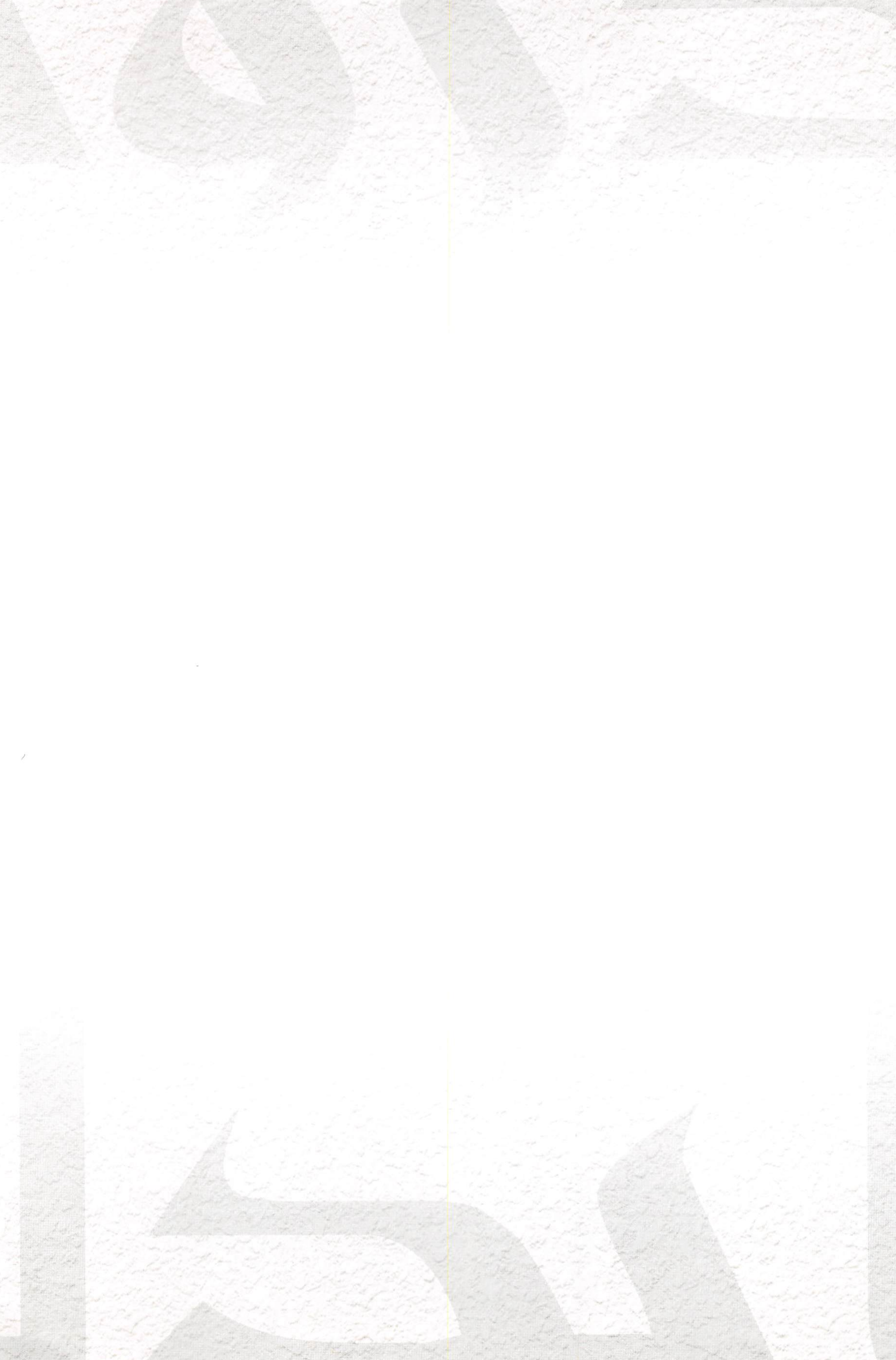
جالَ في النّفسِ مَجـالَ النّفَسِ

سدَّدَ السّهْمَ وسمّى ورَمــى

ففــؤادي نُهْبَــةُ المُفْتَــرِسِ

ندندن هذا الموشح ونحن في طريقنا، خارجين من إشبيلية، قاصدين آخر مملكة للمسلمين تنّفست على هذه الأرض... مملكة غرناطة. الدرب طويل، فندعو لزمان الوصل بالغيث، مرة أخرى!

غرناطة.. آية العربيّ الأخيرة



غرنـاطة

GRANADA

مسكين من كان أعمى في غرناطة

فرانسيسكو الاركون دي لاكازا – **شاعر فنزويلي**

أغرناطة العلياء بالله خبري...... الهائم الباكي إليك...... طريق؟

أبو الحجاج يوسف بن سعيد

هل أنت إسبانيـة؟ ساءلتها...... قالت: وفي غرناطـة.... ميلادي

لم يبقَ من غرناطةٍ
ومن بني الأحمر.. إلا ما يقول الراوية
وغيرُ «لا غالبَ إلا الله»
تلقاك في كلِّ زاوية..
لم يبقَ إلا قصرُهم
كامرأةٍ من الرخام عارية..
تعيشُ – لا زالت – على
قصَّةِ حُبٍّ ماضية..
مضت قرونٌ خمسة
مذ رحلَ «الخليفةُ الصغيرُ» عن إسبانيا

نزار قبـاني

عيونك نوافير أندلسية

تلعب بالأقمار والنجوم

وعندما سافرت في عيونك

صحوت في... غرناطة

غازي القصيبي

1492/12/2م

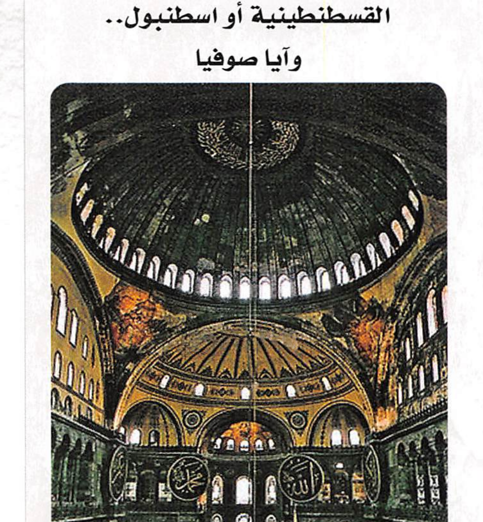
على فرسه محاطاً بحاشيته، يلتفت أبو عبدالله الصغير لفتة إلى الخلف، ناحية غرناطة، التي توارت خلف الغيوم، البرودة الشديدة تلفح الركب الملكي. تومض عيناه بدمعة، يسمع صوتاً قادماً من الطفولة يتمتم بشراسة «ابك كالنساء.. على مُلك لم تصنه كالرجال» يلتفت إلى الخلف مرةً أخرى، إلى الصوت.. وإذ بها أمه! أمي أنت تقولين هذا؟! أنت؟!. سؤال لم يخرج من فيه، ينظر إلى الأمام، يضرب الفرس ضربةً خفيفة على جنبه، ليكمل سيره منحدراً، يسير الركب الحزين خلفه إلى مكان مجهول، ضيعة من الضيع اليتيمة، التي ترقد على سفح أحد الجبال، مما بقيت من أملاك بني الأحمر. خلفهم ماضٍ لن يعود وأمامهم مستقبل بلون العدم!

أنا يا أماه الذي أضعتها؟.. أنا؟!. إلى متى تظلّ العقول الضيقة قاصرة عن الإدراك؟ وأفهامنا لا تتجاوز أطراف أنوفنا، يا أماه ألم تسمعي بالسرطان؟ بالورم الذي يبدأ صغيراً حقيراً، فلا نلقي له بالاً إلى أن يستفحل في جسومنا، ويأتي يوم ينفجر فيه، يومها لا سبيل إلى خلاص. فنعضّ على أيادينا يوم لا ينفع الندم. الأم صامتة، كصخرة صمّاء، تحدق من النافذة، إلى سلسلة جبال متراصّة، تكلّلها الثلوج، تنظر إلى مغيب الشمس الحمراء هناك في الأفق وترقب مغيب شمس بني الأحمر.

بنو الأحمر، يرجع نسبهم إلى الصحابي سعد بن عبادة رضي الله عنه. قادوا مملكتهم، مملكة غرناطة قرابة مائتي وخمسين عاماً، ما بين مدّ وجزر، في بحر لجّي من ممالك صليبية قوية في الشمال، وفي الجنوب دولة بني مرين في المغرب. واستطاعوا بحنكة سياسية - والسياسة فنّ الممكن - أن يسودوا لقرنين ونصف على بقية من مملكة الأندلس المتصدعة، في جنوب شبه الجزيرة. استخدموا كل الوسائل المشروعة واللامشروعة. إذا رأوا الغلبة للنصارى هادنوهم ودفعوا لهم الجزية بل وحاربوا معهم. وإذا شعروا بضعف النصارى واختلافهم في ما بينهم، انتفضوا عليهم واسترجعوا بعض ما خسروه من مناطق. إلى أن حانت اللحظة، لحظة النهاية.

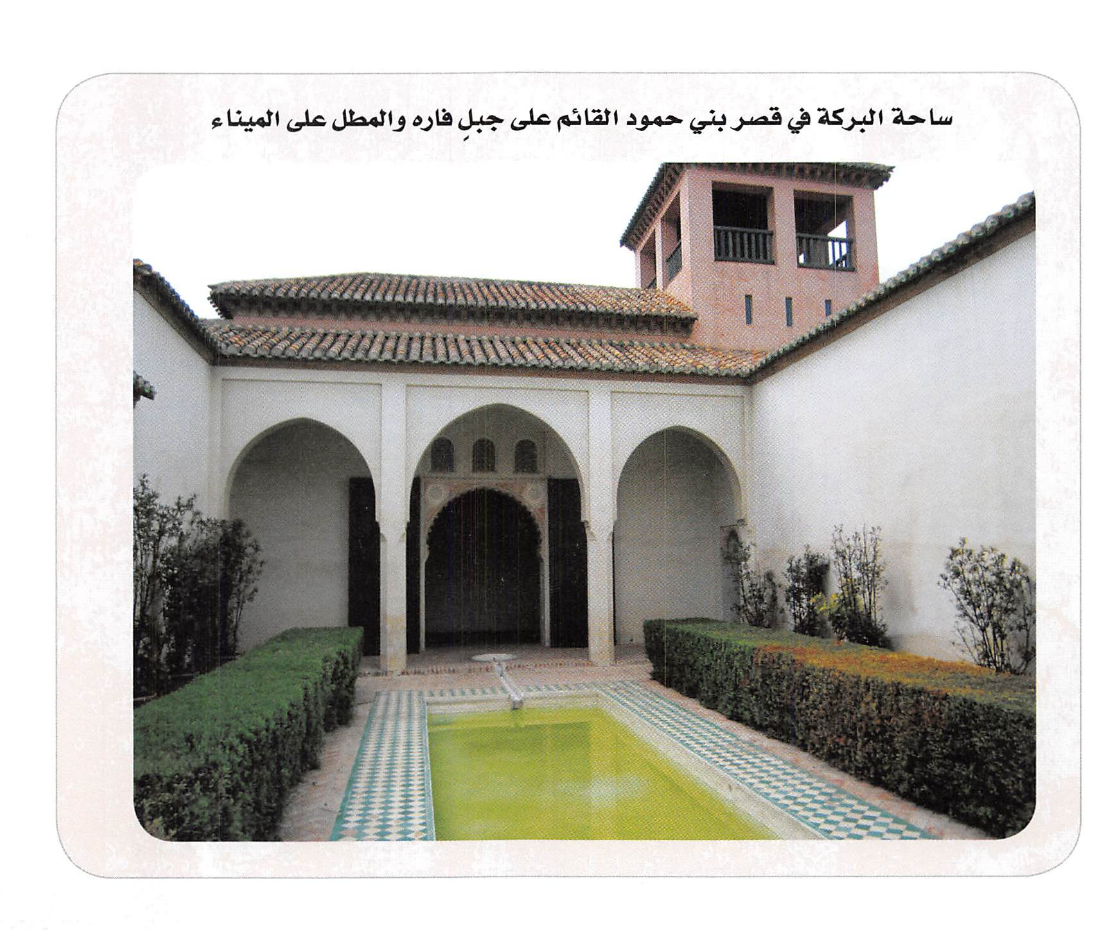
توحّدت مملكتيّ أراغون وقشتالة بزواج حاكميها فرناندو وإيزابيلا ومباركة بابا الفاتيكان المعنوية والمادية السخيّة، الذي فتح خزائن الكنائس مخرجاً كنوز الذهب والفضة، بل أنه صار يبيع صكوك الغفران لمن يطلبها بالجملة وبأسعار مدروسة.

القسطنطينية أو اسطنبول..
وآيا صوفيا



وذلك للهلع الشديد الذي أصاب العالم النصراني، فأخذ يقرع ناقوس الخطر، بعد أن سقطت عاصمته الشرقية القسطنطينية في قبضة محمد الفاتح وجيشه العثمانيّ، وما أعقبها من اندفاعهم إلى قلب أوروبا كأمواج متلاطمة، حتى سكنت سنابك خيلهم على مشارف فيينا. يومها أعلنت الحروب الصليبية المقدّسة لاستئصال الإسلام من الأندلس، ضربت الطبول، فانهمر المرتزقة كطوفان من فرنسا وبريطانيا ومعظم أرجاء أوروبا، نحو غرناطة، طمعاً بالمغانم والثروات المتراكمة فيها. فمملكة غرناطة كانت ممراً تجارياً يصل بين أفريقيا وأوروبا، وذات موانئ مزدهرة، تروح وتجيء فيها السفن بجميع أنواع السلع والمواد الخام، خصوصاً الذهب القادم من جمهورية بنين. وطوال فترة ازدهار مملكة غرناطة التجاري والصناعي والزراعي، كان احتلالها مشروعاً مؤجلاً، لأنها تدفع كل ما تفرضه الخزانة النصرانية من ضرائب متصاعدة وباهظة. عندما بدأ العد التنازلي، واقتربت الساعة، وكانت نُذرها قد لاحت في الأفق منذ أمد، وأولى علاماتها، انخفاض تدفق الذهب القادم من إفريقيا عبر مينائي ملقا ومرسية وكسادهما. الذي قابله نشاط موانئ البندقية وجنوا في ايطاليا. وساهم في تسارع وتيرة الانهيار، الأوضاع السياسية المزعزعة في غرناطة،

ساحة البركة في قصر بني حمود القائم على جبلِ فاره والمطل على الميناء



قصر طليطلة الذي بني على أنقاض قصر ذي النون

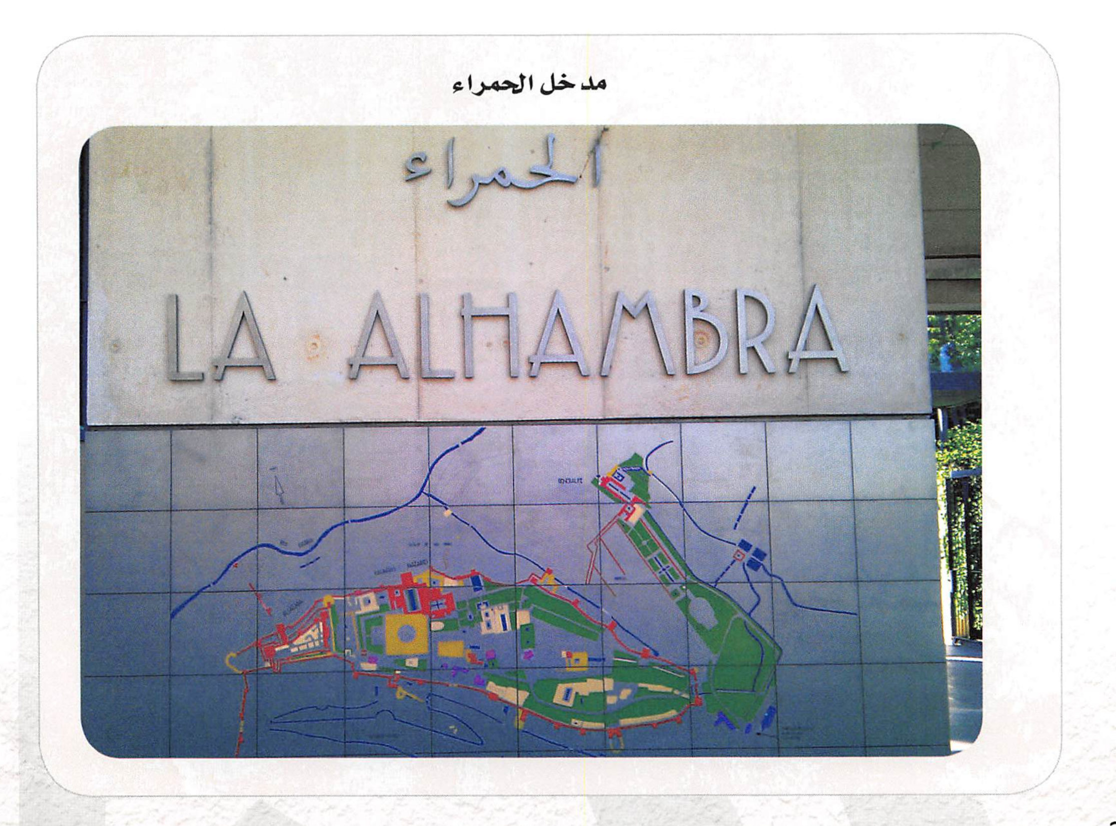


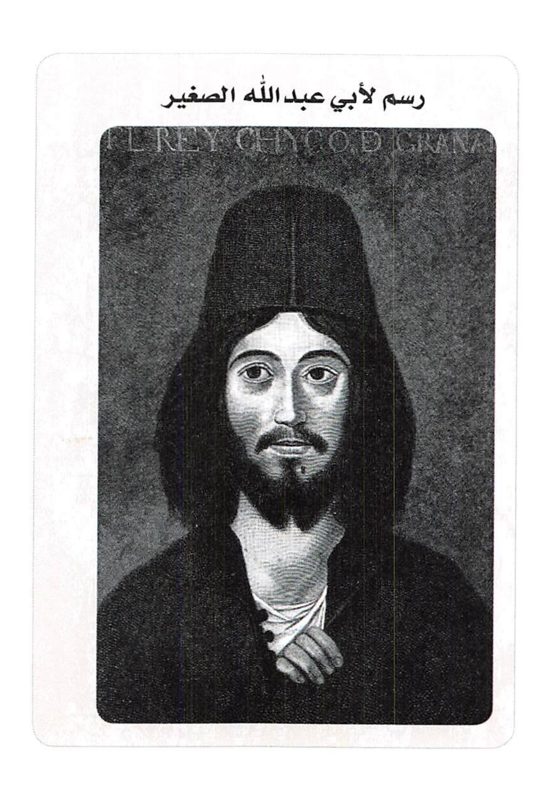


من جرّاء صراع مراكز القوى بين العائلات الغرناطية الغنية طمعاً بالسلطة. حينها بدأت عيون النبلاء الإسبان الطامعة ترنو نحو غرناطة، عاصمة المملكة، المكتنزة بالثروات، وكانت كصندوق نقود امتلأ ولا سبيل إلى فتحه... سوى الكسر!.

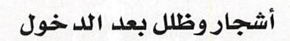
خروج الإسلام من شبة الجزيرة الأندلسية لم يكن صدفةً لكل ذي لب وبصيرة، ولمن ينظر إلى العالم بعيون العقل لا بعيون العاطفة والشعارات، ولا تخدعه البوقات والطبول بضجيجها، بل هو النتيجة الحتمية، لتراكم العديد من الأخطاء الإستراتيجية والأحداث المأساوية التي أصابت الوجود الإسلامي في مقتل. نذكر منها أن عاصمة الأندلس للثلاثمائة عاماً الأولى من التواجد الإسلامي على شبة الجزيرة قبل عصر الطوائف كانت قرطبة، وهي تقع في الرقعة الجنوبية من شبة الجزيرة، ولا يستطيع من يحكم منها أن يبسط يده على الرقعه الأندلسية إلا بصعوبة ومشقة بالغة، ذلك لطبيعة شبه الجزيرة الجغرافية ذات المساحات الشاسعة، التي تتوسطها تضاريس قاسية من سلاسل جبال ثلجية وعرة، أنهكت الجيوش الإسلامية ذهاباً وإياباً لتدعيم أركان الدولة. وهي التي أمّنت الملاذ الآمن خلفها للممالك النصرانية كي تنمو وتزدهر على الرغم من حجمها الصغير في بداية تأسيسها قياسا للرقعة التي احتلتها

مدخل الحمراء





رسم لأبي عبدالله الصغير

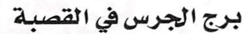


أشجار وظلل بعد الدخول

الأندلس من شبه الجزيرة. لكن تلك الرقع الصغيرة في الشمال تمتعت بتربة زراعية خصبة، والتي أنتجت حينها قمحاً يكاد يعادل ما أنتجته أوروبا آنذاك!. لذا فقد توفر الغذاء لممالك النصارى في الشمال بسهولة على الرغم من تخلّفهم في علوم الزراعة وكسلهم الذي اشتهروا به، وتفوق المسلمين في هذا المجال. لكن الأراضي الأندلسية في الغالب لم تكن بخصوبة المناطق الشمالية.

لذا كان لاحتلال طليطلة في عهد الطوائف على يد ألفونسو السادس دور كبير في السقوط، وذلك لموقع طليطلة المتميّز في قلب شبه الجزيرة، وبالتالي فمن يسيّطر على طليطلة، يستطيع بيسر السيّطرة على شبه الجزيرة. وقد أخطأ المرابطون خطأً إستراتيجياً خطيراً بعدم استعادتهم طليطلة، بعد انتصارهم المدّوي في معركة الزلّاقة. الخطأ الآخر، كان خطأً إستراتيجياً أيضاً لا يغتفر عندما تهاون المسلمون ولم يسترجعوا جبل طارق عندما وقع في أيدي النصارى، وهو الذي يعتبر نقطة الوصل ومصدر إغاثة الوجود الإسلامي في شبة الجزيرة عبر التاريخ، فمنه دخل المرابطون، وبعدهم الموحدون، وفي عصر مملكة غرناطة دخل منه بنو مرين استجابة لدعوة بني

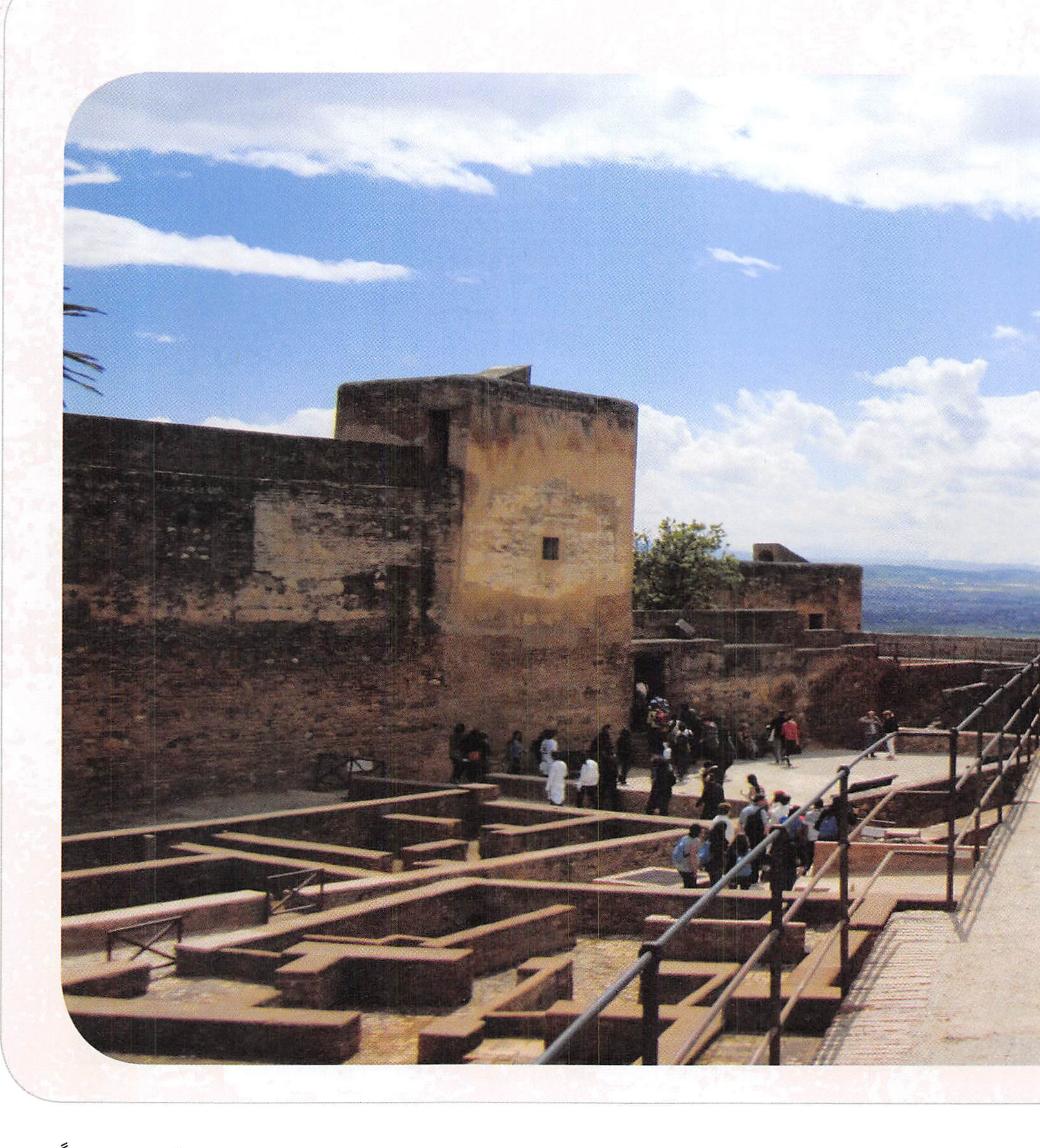




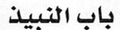
برج الجرس في القصبة

الأحمر، وبإغلاق هذا المضيق أصبح من الصعب على أي قوة إسلامية أن تلبي أي صرخة استغاثة أندلسية.

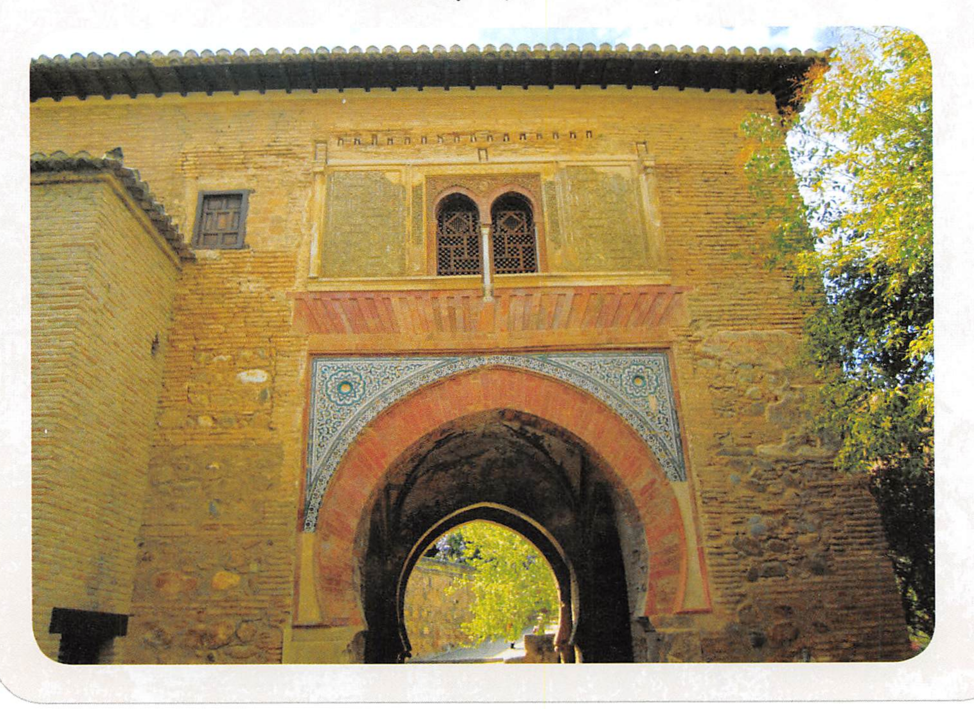
تتكرر بعض الأخطاء في التاريخ الإسلامي بشكل ممل لقارئ هذا التاريخ والراصد لحركته، منها عدم وجود رؤية واضحة لتسلسل الحكام وفقدان اللوائح والقوانين التي تضمن توريث الحكم بسهولة ويسر!. وهي في الحقيقة مشكلة عربية إسلامية، لا تزال موجودة، وظني - المتواضع - أنها باقية ولن تزول بسهولة. وقد مرّ بنا ما جرى بعد وفاة الحكم المستنصر عندما تولى ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً الحكم!



وماجت البلاد بالاضطرابات، وانقلب الحاجب المنصور على البيت الأموي منهياً حكم بني أمية، ومورثاً لأبنائه الحكم من بعده لعدة أعوام كانت كفيلة بانفراط عقد الدولة. بعدها لم تستطع الكيانات الوليدة من ممالك الطوائف أن تعقد اتفاقيات للتعاون فيما بينها، على نمط ما جرى في الإقطاعيات الأوروبية، التي تعاونت فيما بينها وغلبّوا مصالحهم المشتركة على ما عداها، حتى أتى اليوم الذي توحدت فيه وتشكلت الدول الحديثة التي نراها اليوم ملء السمع والبصر، فالمصالح المشتركة في بنية العقل العربي هي آخر الهم دائماً، وحديث الفيدرالية والحكم الذاتي يكون



باب النبيذ



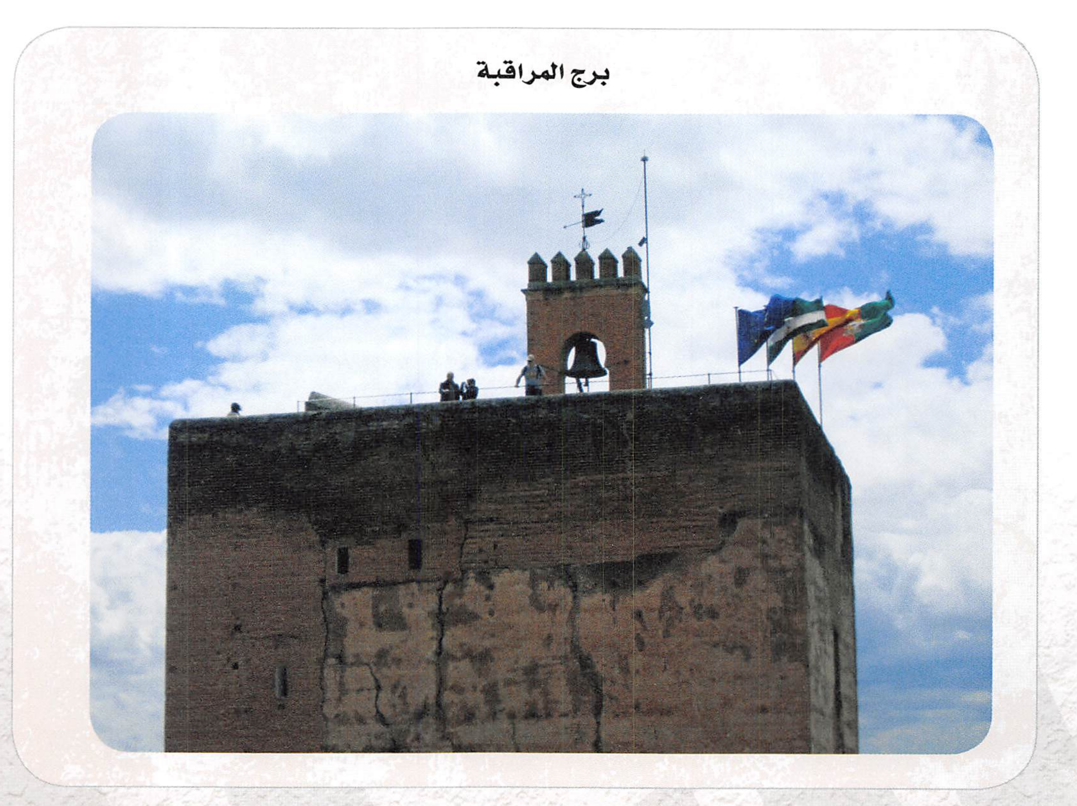
حديث زندقة وكفر. وطبعاً... النكاية دائماً هي شغل العرب الشاغل!.

انجاب الظلام عن ضوء شمس النهضة الأوروبية قبل قرنين ونيف من سقوط غرناطة، وساهم العلم في تطور الآلة العسكرية النصرانية التي كانت لها الكلمة الفصل... ولا زالت. إلى جانب ذلك تسارعت وتيرة النهضة العمرانية والصناعية والأدبية. ولا ريب فقد حملوا مشعل العلم الذي انتقل مع الكتب التي كانت تترجم من العربية إلى اللغات الأجنبية في مراكز للترجمة في طليطلة وسرقسطة، حدث ذلك بعد قرون من سيّطرة الكنيسة وإحكام قبضتها على العلم، ومحاربة العلماء وسجنهم بل وحرقهم!.

أبو عبدالله الصغير، جالس على الأرض، يسند ظهره على الحائط،تجول هذه الأفكار في رأسه، فيبتسم بسخرية ويتمتم: ويقولون أنا السبب! هه! أنا الذي جئتهم باتفاقية حقنت دماء المسلمين التي أريقت أنهاراً في مدن أخرى احتلت قبل غرناطة. أنهيت حصاراً طال، ومقاومة لن تجدي. ونظرت إلى المصالح والمفاسد. حفظت لهم أموالهم وأعراضهم ما استطعت، لكن لا أحد يريد أن يفهم أنها كانت لعبة شطرنج، أطول لعبة شطرنج في التاريخ، استمرّت لثمانية قرون!.

ينظر من نافذة في بيته من عدوة المغرب إلى الأفق وراء البحر، حيث ملاعب الطفولة والشباب، يشتم النسيم القادم من هناك. يغمض عينيه ليستريح، ولن يتركوه يستريح!
غرناطة GRANADA إحدى أشهر مدن الأندلس الباقية ليومنا هذا لسببين: أوّلهما احتضانها لجوهرة الهندسة الأندلسية الباهرة الباقية قصر الحمراء رحيق الذوق والفن الأندلسي. وثانيهما لأن مملكة غرناطة كانت آخر معاقل الإسلام سقوطاً في شبه الجزيرة، لذا فالطابع المعماري الأندلسي ظاهرٌ فيها وبيّن.
كان قصر الحمراء في البداية، مجرّد قصبة على تلّة، بنيت في القرن العاشر الميلادي، ولمّا غلب محمد بن الأحمر النصري أول سلاطين بني الأحمر على غرناطة، اتخذ من قصبة الحمراء مقرّاً للحكم. وسّع القصبة وزاد فيها مبانٍ عديدة، حتى صيّرها مدينة ملكيّة تضم قصور حكام غرناطة وجامعها الكبير. وأحيطت بسور عظيم، يحتوي أبراجاً للحراسة، لا تزال قائمةً، وبحالة جيّدة. ولكل برج اسم، لكن هذه الأسماء محدثة من صنع الإسبان. اختلف في سبب تسميته بقصر الحمراء، فمن الباحثين من يعزو سبب التسمية إلى اسم الأسرة الحاكمة بني الأحمر، ومنهم من يرجعه إلى اللون الأحمر الذي يغلب على القصر من الخارج.

برج المراقبة



من حديقة الشرفة

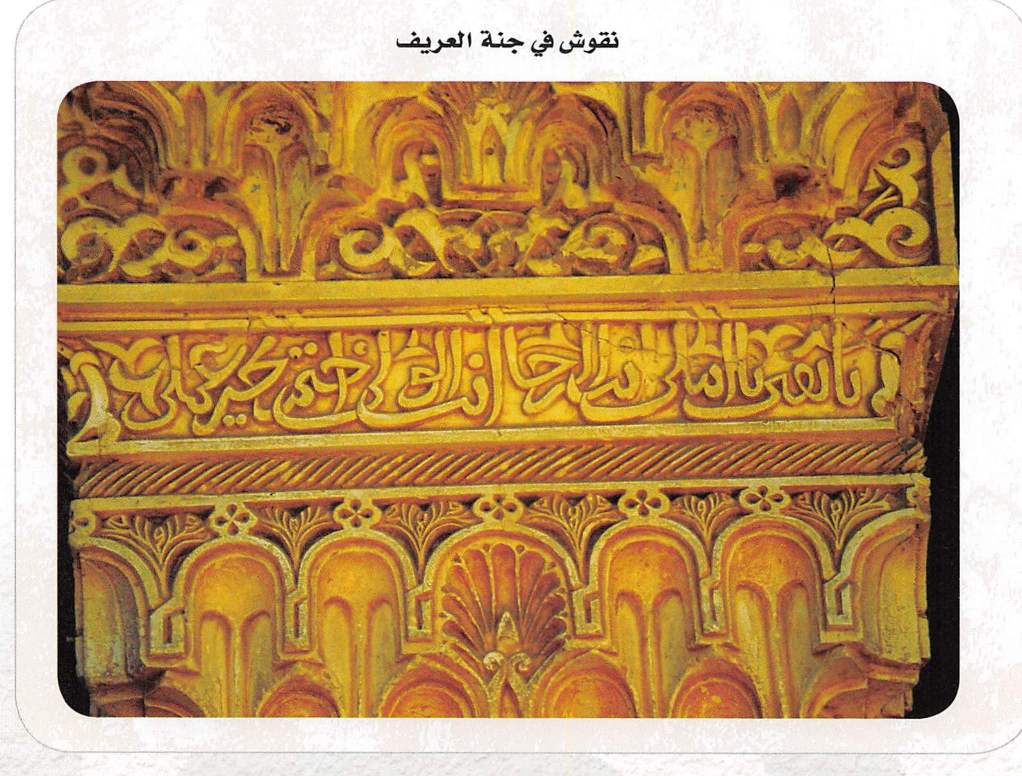




جاء اسم غرناطة GRANADA وتعني الرمانة، من ثمرة الرمان التي اشتهرت غرناطة منذ القديم بزراعتها. في الأعوام الأولى للفتح الإسلامي، كانت غرناطة قريةً مغمورة من ضواحي مدينة البيرة Alvera. ومع دوران الزمن، ترهّلت البيرة فورثتها غرناطة، وانتقل إليها علية القوم... فتبعهم القوم، وذاع صيتها كمركز تجمع عمراني وسكاني كبير.

تقع غرناطة علىقمة أحد التلال بين جبال SEIRRA NEVADA[13] والطريق إليها طريق جبلي، يلتفّ صاعداً إلى الأعلى. ولك أن تتخيّل وعورة الطريق في ذلك الزمن، وهذا من أسباب تأخر سقوطها، ما اضطر الجيوش الصليبية لحصارها لفترة طويلة حتى أنهم أسسوا مدينة أسموها SANTA FEE – الإيمان المقدس – لتكون مقر قيادة للجيش ومعسكراً. تغطي قمم SEIRRA NEVADA الثلوج معظم أيام السنة وهي من مصادر المياه الرئيسة لغرناطة، لذا ازدهرت الزراعة والصناعة واكتفت بما تزرع وتصنع، وهذا أيضاً سبب آخر لتأخر سقوط غرناطة. بعد تساقط وتهاوي الحواضر

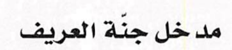
نقوش في جنة العريف



13 وهو الذي أسماه العرب جبل شلير أو البشرات.



نوافيرجنة العريف



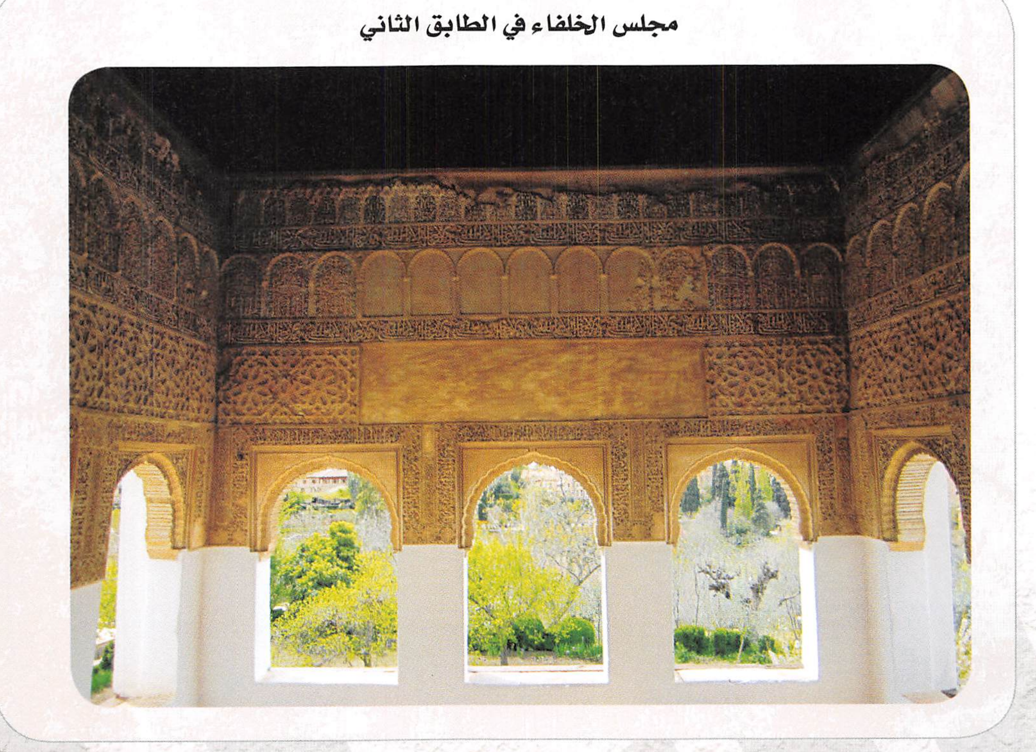
مدخل جنّة العريف

الإسلامية في شبه الجزيرة الواحدة تلو الأخرى، نزح أغلب سكان هذه المدن، وفيهم صفوة الحرفيين والمزارعين والعلماء والأدباء وغيرهم جنوباً نحو غرناطة، حتى قدّر عدد سكان مملكة غرناطة آنذاك بخمسة ملايين، تختص غرناطة لوحدها منهم بخمسمائة ألف نسمة!.

نصل إلى مواقف المركبات التابعة للقصر... ولم نرَ القصر! كأنه جوهرة أخفيت عن أعين الناس، وحتى لو ذهبنا إلى حي البيازين القريب ونظرنا إلى قصر الحمراء، سنرى بناءً بلون الطين الأحمر لا يكشف عن ما يكتنف القصر من جمال. نعبر بين أشجار السرو الطويلة، وعطر الياسمين يقودنا نحو القصر، نخترق الجموع التي اصطفّت منذ الصباح الباكر للحصول على بطاقات الدخول، لتجلو أعينها وتغسلها بخلاصة الجمال والفن الأندلسي وما انتهى عليه بعد ثمانية قرون من التوهّج.

الدخول إلى قصر الحمراء يتطلب حجز بطاقات الدخول مسبقاً، إما من خلال موقع مخصص لذلك على شبكة الإنترنت، أو من أفرع أحد البنوك، أو من إحدى الشركات السياحية المنتشرة بكثرة، أو... الاصطفاف لساعات طوال في طوابير للحصول على تذكرة، وقد لا يكون!. عند باب الدخول نرى حائطاً كتب عليه ALHAMBRA ومكتوب

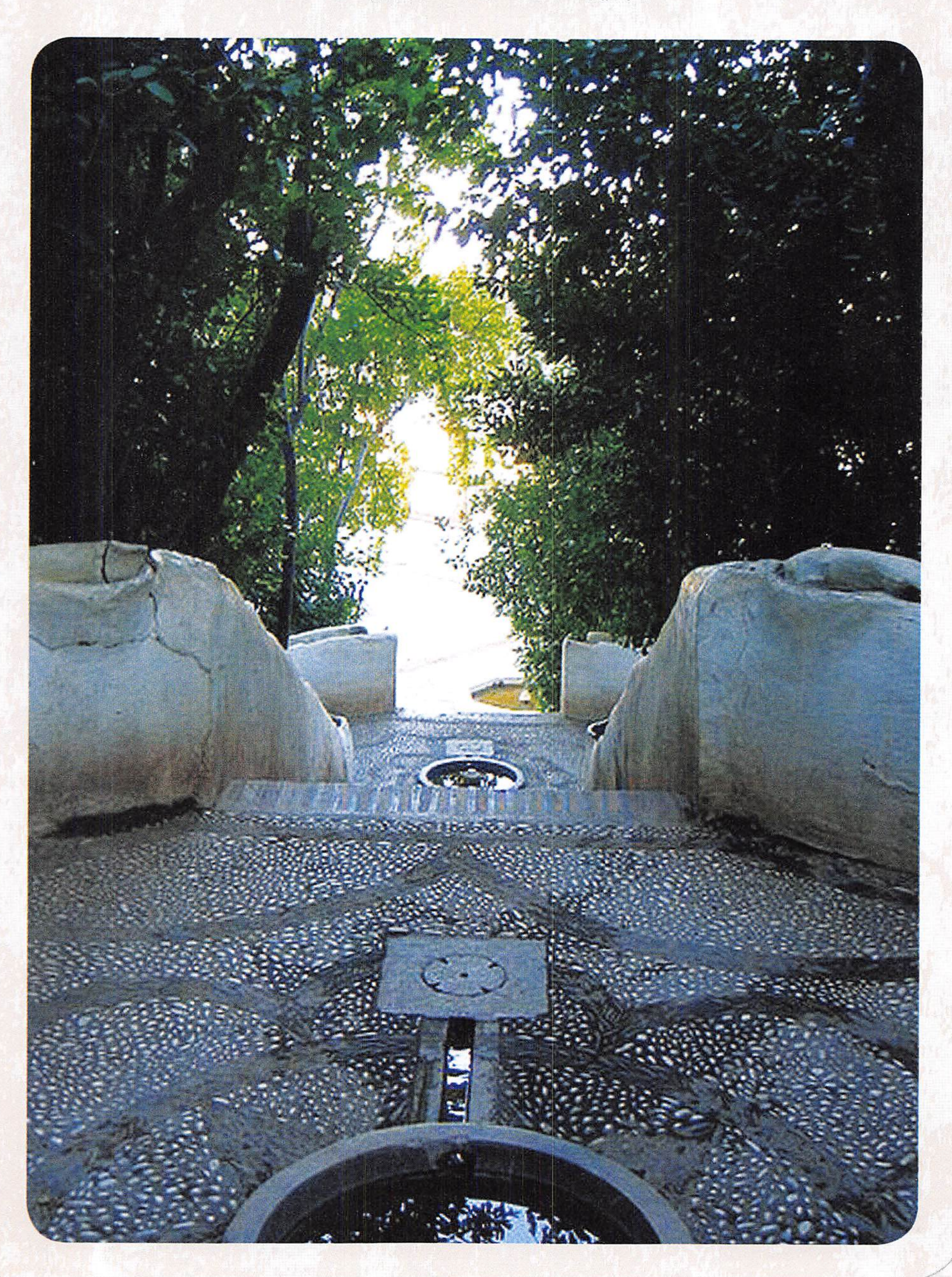
مجلس الخلفاء في الطابق الثاني



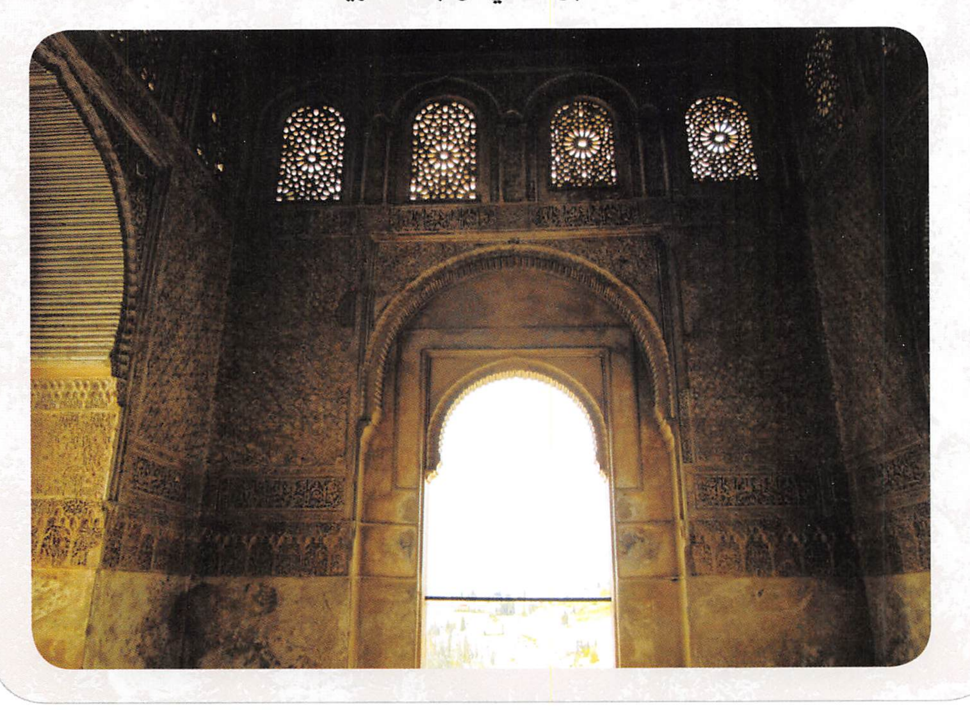
تحتها باللغة العربية الحمراء فيتسلّل الفخر يدبّ في عروقنا، الفخر المتدثّر بعباءة من الحزن. نتوقف للحظات كأنها الدهر، لحظات تفلتت من زمن تحكمه العقارب وتسحقنا فيه الأرقام، إلى زمن يغري بالسرمدية، يغوي بالانسلاخ عن واقع، والاحتماء خلف صور وكلمات، ألسنا نقف حيث وقف الأوّلون؟ هل صمت الكون في تلكم اللحظة؟ أم أنها أضغاث عاشق مدنف؟ لعمري أنها لصنو ما تنزّل على شاعر آخر ملئ الدنيا وشغل الناس في زماننا، الفتى الدمشقي، نزار قباني، يومها تفجّر طوفاناً من الزهر، هجر النثر والتفعيلة عندها، وأمسك العروض من خطامها وأنشد:

في مدخل الحمراء كـان لقاؤنـا
ما أطـيب اللقـيا بلا ميعـاد
عينـان سـوداوان في حجريهمـا
تتوالـد الأبعـاد مـن أبعـاد
هـل أنت إسبـانية؟ سـاءلـتهـا
قالت: وفي غـرناطة ميـلادي
غرنـاطـة؟ وصحت قرون سبعة
في تينـك العينـين.. بعد رقـاد
وأمـيـة راياتـهـا مرفـوعـة
وجيـادهـا موصـولة بجيـاد
ما أغـرب التاريخ كيف أعادنـي
لحفيـدة سمراء من أحفـادي
وجه دمشقـي رأيت خـلالـه
أجفـان بلقيس وجيـد سعـاد
ورأيت منـزلنـا القديم وحجـرة
كانت بهـا أمـي تمد وسـادي
واليـاسمينة رصعت بنـجومهـا
والبـركـة الذهبيـة الإنشـاد

الدرابزين المجوف والماء يجري من خلاله



الطابق الثاني من جنة العريف



ودمشق، أين تكون؟ قلت ترينها

في شعرك المنساب.. نهر سواد

في وجهك العربي، في الثغر الذي

ما زال مختزناً شموس بلادي

في طيب «جنات العريف» ومائها

في الفل، في الريحان، في الكباد

سارت معي.. والشعر يلهث خلفها

كسنابل تركت بغير حصاد

يتألق القرط الطويل بجيدها

مثل الشموع بليلة الميلاد..

ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي

وورائي التاريخ كوم رماد

الزخرفات.. أكاد أسمع نبضها

والزركشات على السقوف تنادي

قالت: هنا «الحمراء» زهو جدودنا
فاقـرأ على جدرانهـا أمجادي
أمجادها؟ ومسحت جرحاً نازفـاً
ومسحت جرحـاً ثانيـاً بفـؤادي
يا ليت وارثتـي الجميلة أدركـت
أن الـذيـن عنتـهـم أجـدادي
عـانقت فيهـا عنـدمـا ودعتهـا
رجلاً يسمـى «طـارق بـن زيـاد»

ندلف من الباب الرئيسي فنبصر جنّةً أرضيةً، الأشجار العالية والممرات المظللة بالزروع والخمائل، وحدائق الورود، وأصوات العصافير المختلطة بصوت الماء الخارج من النوافير يصب في الأحواض في تناغم عظيم، تطيب للأذن سماعه، ويصافحها برقّةٍ وتلذ الأعين بالنظر إليها. نمشي هوناً، فلا نريد لأي لحظة أن تفر منّا.

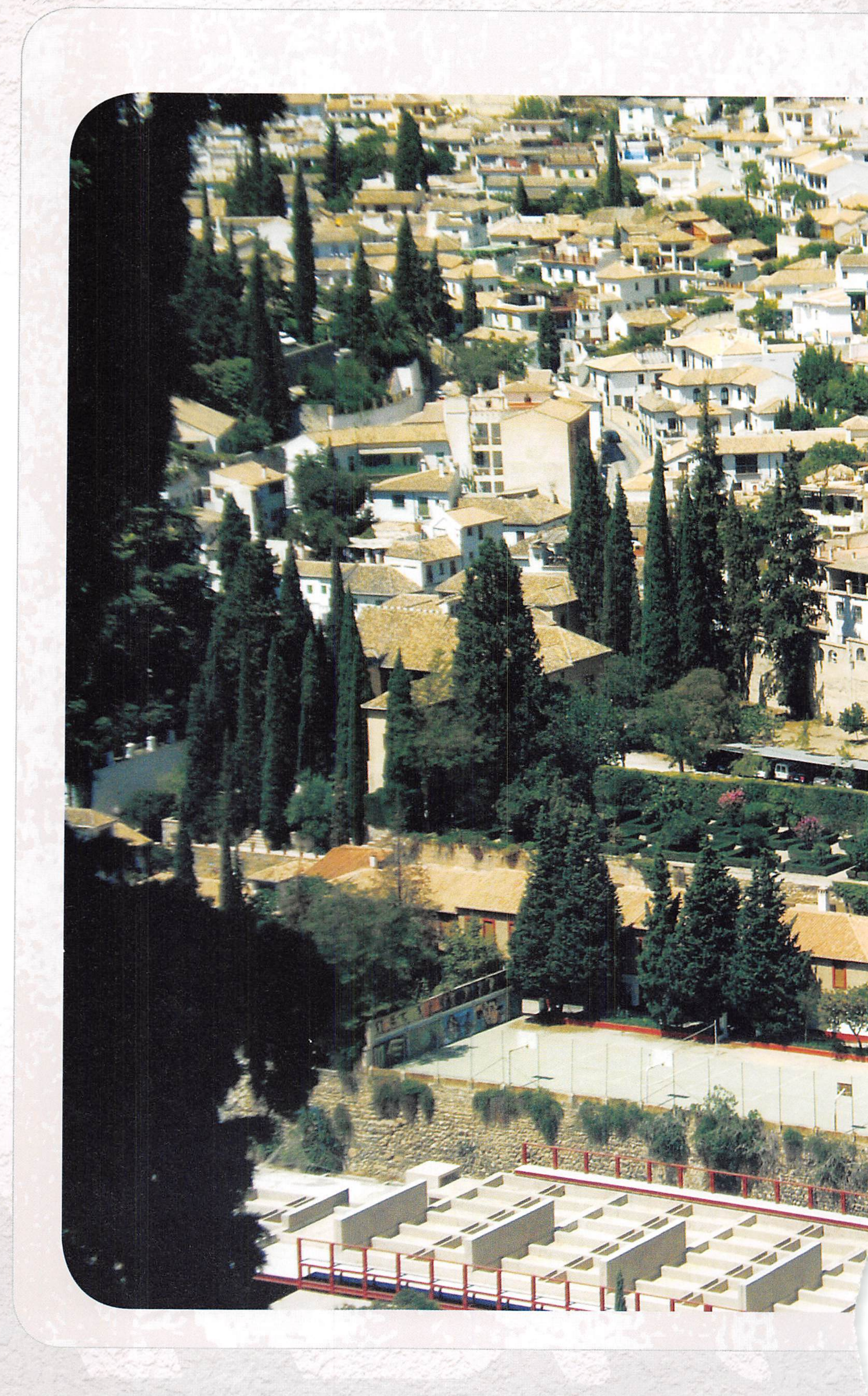
ينقسم القصر إلى ثلاثة أجزاء رئيسة، هي القصبة ALCAZABA. وجنة العريف GENERALIFE وقصور بني نصر - بني الأحمر NASRID PALACES.

الحمراء من جنة العريف



غرناطة من القاعة





القصبة Alcazaba هي أقدم بناءٍ بُني على تل الحمراء، ويعرف بابها بباب النبيذ، ولها ثلاثة أبراج من أعلاها نبصر المدينة والقصر من زوايا بديعة. يعلو أحدها صليب وجرس، رفع الأول وقرع الثاني في يوم سقوط غرناطة، ويسمى ببرج المراقبة Watch tower. في وسط القصبة ساحة الجند، حيث تقوم بقايا حيطان غرف الجند، فقد خصص هذا البناء للحراسة وكمبنى للجنود، ولها مطل جميل ذو ظل ظليل وماء يترقرق، يسمى حديقة الشرفة Garden parapet.

أما جنّة العريف فهي القصر الصيفي لملوك بني الأحمر، يمتاز بالبساطة المبهرة، وكلمة البساطة هنا كلمة مجازية، لأن جنة العريف هي جنةٌ بالفعل. عندما ندخل نرى بركة الماء المستطيلة الطويلة تتوسط باحتها الرئيسة، والنوافير عن يمينها وشمالها متقابلتين، تقذف الماء فيزيد البهاء بهاءً، ويحيطها تنسيقٌ بديع للزهور وحدائق غنّاء مبهجة تهنأ بها العين وتأنس. نكمل نحو المبنى الواقع بعد البركة فنرى النقوش على الأعمدة والحيطان من آيات قرآنية وأشعار وشعارات بني الأحمر خاصة شعارهم الشهير «لا غالب إلا الله». نطوف ونتأمل ونمعن النظر، ثم نصعد الدرج إلى الدور العلوي، وعن يميننا وشمائلنا درابزين من جبس مجوف يجري به الماء البارد إلى

باب دخول قصر الحمراء

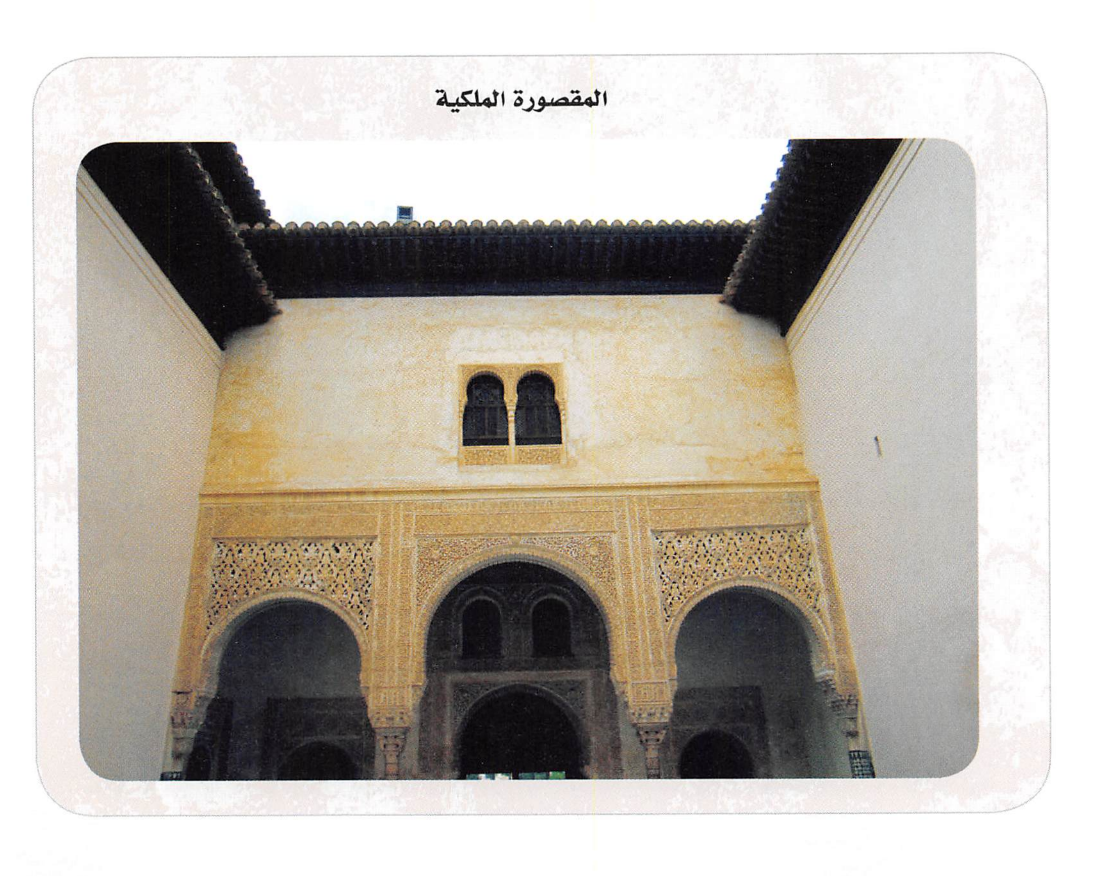


قاعة المشور



الأسفل، منظر الماء الذي يجري يدفعك إلى مدّ كفك لتغسلها فتسري نشوة صوفية في روحك لا تدري من أي سماء هبطت عليك. والغاية التي صنع مجرى الماء لها هي تمكين السلطان ومن معه، من الوضوء قبل الصلاة. نصل إلى الطابق الثاني من المبنى الرئيسي في جنة العريف الذي تطل نوافذه على غرناطة، فنفرح بمنظر بديع. نبصر بيوتها البيضاء ذات الأسطح التي كساها القرميد الأحمر والأخضر، والجبال خلفها في منظر قلّ من لا ينتبه له، وجلّ من صوّره. نتجوّل ومع كل خطوة ينتابنا شعورين متضادين، الفرح والحزن، الفرح بما تراه أعيننا من الجنان. والحزن، فبكل خطوة نخطوها نقترب من مفارقتنا لهذه الجنان، نحاول أن نملأ أبصارنا من هذا الجمال، وصدورنا بهواء استنشقه الشعراء، علّ الأوزان تستقيم لنا وتنهمر القوافي. لكن مهما سرت ببطء وتؤدة، ستدفعك كف الوقت باتجاه الخروج. أمرٌ واحد يسليك ويفرحك، وهو أنك بخروجك من جنة العريف ستكون وجهتك التالية جنّةٌ أخرى... قصور بني نصر- بني الأحمر - المسماة... قصر الحمـراء.

تلج من باب متواضع، ذي طراز أندلسي غرناطي هادئ، لا يوحي بما ورائه من بديع النفائس، وهو باب قاعة المشور MEXUAR وهي أول قاعة نلج إليها، حيث تحفّك



المقصورة الملكية

النقوش البديعة بالخط الأندلسي الشهير وعبارة ولا غالب إلا الله تطالعك أينما توجّهت، وبها محرابٌ جميل وقبّة خشبية نقشت بنقوش إسلامية أندلسية، وقاعة المشور هي قاعة القضاء، حيث كانت تحلّ المنازعات وتنتهي الخصومات ويخرج المتنازعون كلٌّ من باب القاعة، أحدها إما هو آخذ حقّه في يمينه، أو قابضٌ على قطعة من نار. نخرج منها إلى ساحة المشور حيث نجد على شمالنا حائطاً تحمله ثلاثة أقواس تحملها أربعة أعمدة بتناسق هندسي، ندلف من البوابة التي أسفل القوس الأوسط، فندخل إلى المقصورة الملكية The Golden Chamber وهي مما استحدث في القصر بعد سقوط غرناطة، نرجع إلى ساحة المشور، ونقف خاشعين أمام واجهة برج قمارش البديعة، حيث النقوش كحنّاء على يد حسناء أملود. وللبرج بابان يفضيان إلى بهو الرياحين PATIO DEL LOS ARRAYANES وفيه بركة ماء، تسبح فيها أسماك حمراء اللون. وبالإضافة إلى الآيات القرآنية وشعار بني الأحمر الشهير، نجد شعارات أخرى منقوشة على الأعمدة والحوائط من مثل النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين ونجد أبياتاً من الشعر لوزير وشاعر البلاط ابن زمرك. ولا نفرغ من التأمل حتى نصل إلى باب في الجانب الآخر من البركة، يقودنا إلى قاعة السفراء Sala de embajadores حيث تستقبل الوفود الوافدة على بلاط بني الأحمر، ولا يزال السقف يحتفظ بنقوشه الأصلية المبهرة التي لا شك كانت تسلب ألباب السفراء ومن جاء معهم كما سلبت ألبابنا. وعلى باب القاعة نجد نقش «الحمد لله على نعمة الإسلام والعز لمولانا أبي الحجاج عز نصره» وأيضاً نجد العديد من الآيات القرآنية وأبيات الشعر لوزير البلاط وشاعره ابن زمرك منقوشةً كأروع ما تكون النقوش، حتى حقّ لأحد كبار المستشرقين الإسبان وهو جارثيا جوميث أن يقول: «إنّ الشعر الأندلسي انتهى به المطاف في غرناطة، ليموت على جدران الحمراء بأبهى صورة» ووصف النقوش الشعرية على الجدران بأنها «هي أجمل طبعة لديوان شعر». وترى المجموعات السياحية القادمة من أقصى الشرق إلى أقصى المغرب، ومنهم من هو واقف يحمل آلة التصوير يريد أن يقنص هذه اللحظات ويخلّدها، ومنهم من هو يمسك بمنظار مقرّب يقرأ سورة تبارك التي تحفّ قبة قاعة السفراء، وبيده كتاب يشرح له ما تحوي من آيات نقشت بإبداع قلّ نظيره من حسنٍ وجودة. وأنت ترنو ببصرك إلى السقف لتقرأها لا تملك إلا الخشوع وأنت تتلو «تبارك الذي بيده الملك

وهو على كل شي قدير» ثم تحاول التبصر بهذه الآية وما بعدها من آيات الفرقان.
ولسان حالك يردد مع أبي البقاء الرندي:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي «الأيامُ» كما شاهدتها دُولٌ
مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ

نخرج لنجد أنفسنا في بهو الأسود Patio de los leones الشهير، حيث يربض إثنا عشر أسداً بشكل دائري حول حوض في وسطه نافورة، تنبع المياه من أفواههم

بهو الرياحين ويبدو برج قمارش

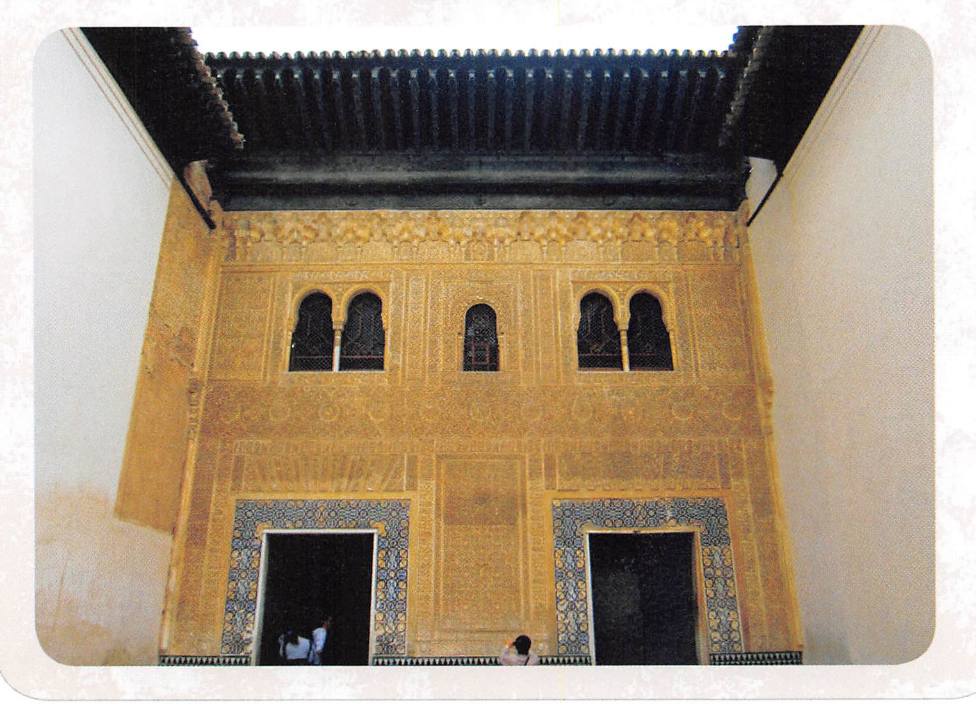


بانسياب جميل، ونقشت على أطراف الحوض أبيات من أحد أجمل قصائد ابن زمرك ويقول فيها:

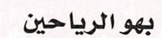
تبـارك من أعطى الإمام محمدا
مغانٍ زانت في الجمال المغانيـــــا
وإلا فهذا الـروض فيـه بـــدائع
أبى الله أن يلفى لها الحسن ثانيـا
ومنحوتة من لـؤلؤ شف نورهـا
تحلـى بمرفض الجمـان النواحيـا



واجهة قمارش

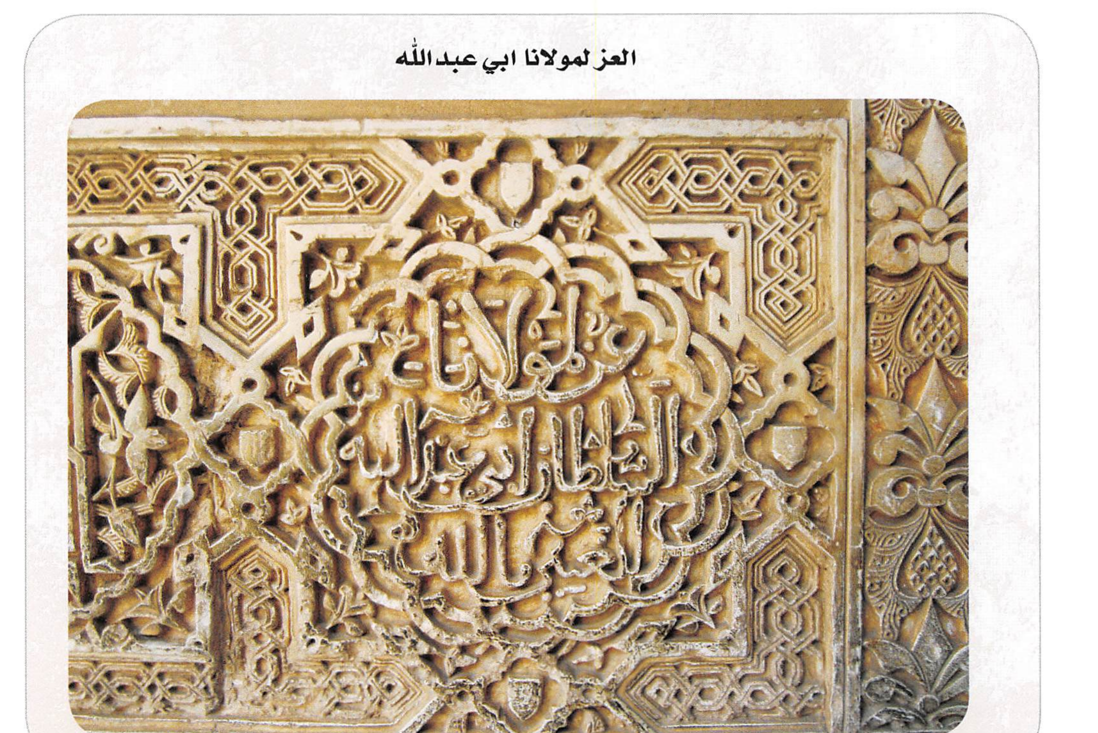


يذوب لجين سال بين جواهـــر
غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابـــه جار للعيون بجامد
فلم ندر أي منهمـا كــان جاريــا
ألم تر أن الماء يجري بصحفهـا
ولكنهـا سدت عليه المجاريـــا
كمثل محب فاض بالدمع جفنـه
وغيض ذاك الدمع إذ خاف واشيـا
وهل هي في التحقيق غير غمامة
تفيض إلـى الآساد منها السواقيـا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت
تفيض إلـى أسد الجهاد الأياديـا
فيا من رأى الآساد وهــي روابض
عداهــا الحيــا أن تكون عواديـا



بهو الرياحين

العز لمولانا ابي عبدالله



ويا وارث الأنصـــار لا عن كلالــة

تــراث جلال يستخف الرواسيــا

عليك سلام الله فاسلم مخلـــدا

تجــدد أعيـــادا وتبلـي أعـاديـا

وهذه الساحة من أجمل ساحات القصر وأشهرها حيث تجد القبب ذات القرميد الأخضر، والمباني الضخمة ذات الزخارف الرائعة، تحملها الأعمدة الرشيقة المغطاة بالنقوش المختلفة ذات الخط الأندلسي الفريد.

للماء، الذي يجري أينما نظرنا، ويشنف آذاننا بصوته المترقرق، قصة مع قصر الحمراء، ذلك أن المسلمين في غرناطة احتاجوا لكميات كبيرة من المياه تغذي القصر الملكي والأعداد المتزايدة من قاطنيه، فاهتدى المسلمون إلى أن صنعوا مجرى للمياه، يغذيه نهر حدرة، واختاروا له مكاناً بين الجبال يعلو عن القصر وبعيداً عنه، ليستغلوا الجاذبية خير استغلال، ثم عبر أنابيب مخفية في باطن الأرض، يجري الماء ليصب في خزان القصر، بعدها يتدفق في الشرايين المنتشرة تحت القصر، وما فاض عن

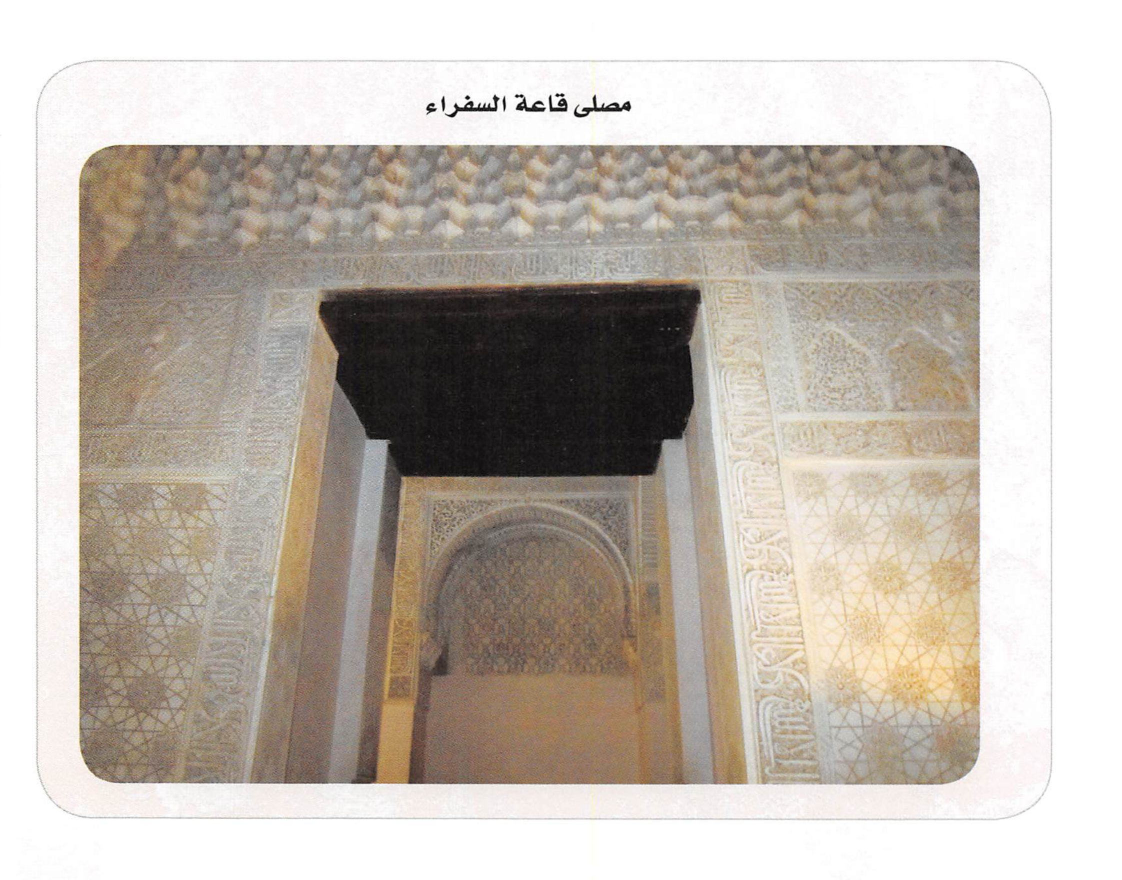
لاغالب إلا الله

نقش أندلسي رائع




ولا غالب إلا الله

مصلى قاعة السفراء

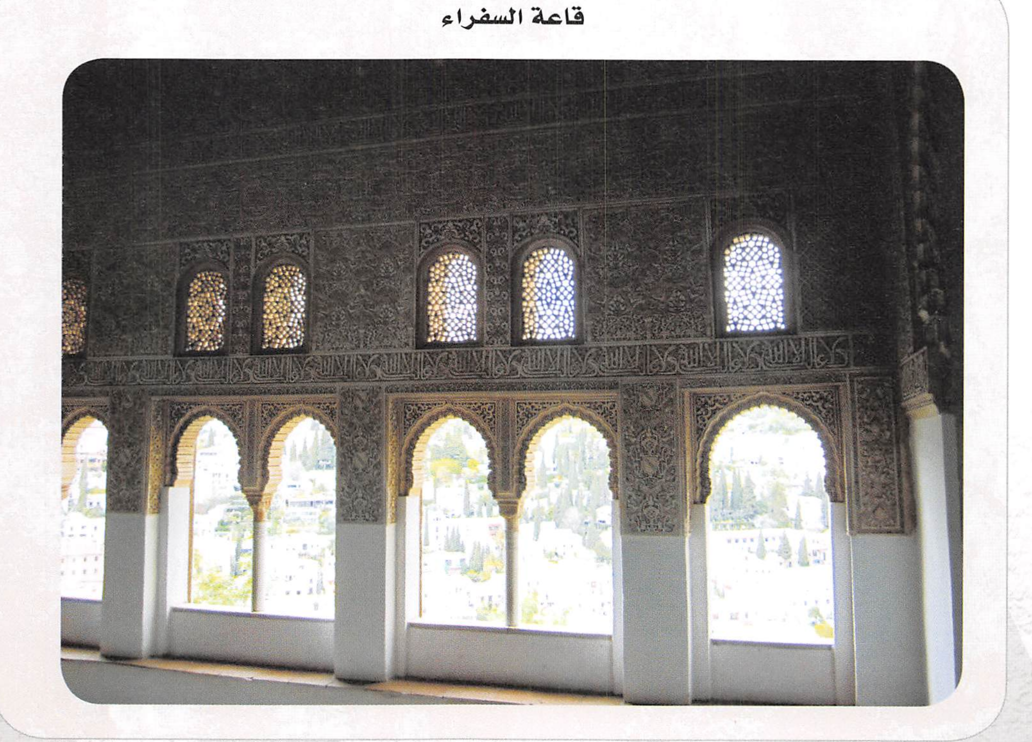


الحاجة، يخرج من ميزاب أعلى السور المحاذي للمنحدر الذي يقودنا إلى أسفل تل الحمراء حيث يرجع ليتحد في مجرى نهر حدرة. والشيء المدهش، أن نظام توزيع المياة الرئيس للقصر لا يزال كما صنعه أولئك، وكل ما فعله الإسبان أنهم استبدلوا كل ما صنع من مواد يبليها الدهر، بإسمنت ومواد إنشائية معمّرة.

على يمين هذه الساحة تقع قاعة بني السراج Sala de los Abencarrajes، يتوسطها نافورة على جانبها آثار لبقع داكنة يعتقد أنها آثار دماء للمذبحة قام بها أحد سلاطين بني الأحمر ضد عائلة بني السراج، ذلك أن إشاعة سرت في نواحي القصر عن علاقة عشق بين شاب من أسرة بني السّراج الأرستقراطية وإحدى أميرات بني الأحمر، وقيل أن السبب الحقيقي، هو القضاء على أحلام أسرة بني السراج بالانقلاب على حكم بني الأحمر والظفر بالحكم. يزعم من كتب حكايات عن الحمراء، أن أموراً غامضة تجري في هذه القاعة أثناء الليل عندما يجنّ الظلام، فتسمع أصوات أشباح القتلى من بني سرّاج وهي تصرخ برعب!

ندخل إلى قاعة الملوك SALA DE LOS REYES والمسمّاة بحسب بعض المصادر بقاعة العدالة، وفي سقفها نجد رسماً ملّوناً يظهر عشرة شيوخ معممين ملتحين، منخرطين

قاعة السفراء



في حوار وجدل، ويعتقد أنها تمثل ملوك بني الأحمر، الذين حكموا مملكة غرناطة قبل أبي عبدالله الصغير.

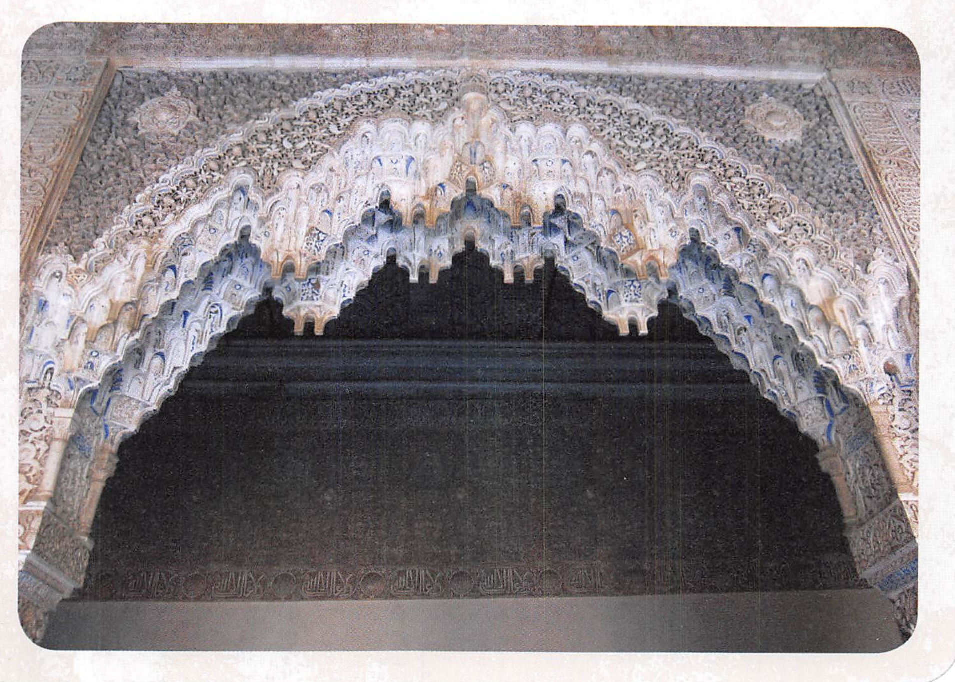
نخرج من قاعة الملوك لندخل إلى قاعة الأختين SALA DE LOS HERMANOS والتي سميت بهذا الاسم لاحتواء أرضيتها الرخامية، على قطعتيّ رخام ضخمتين متقابلتين ومتماثلتين، والنقوش في هذه القاعة ككل النقوش في الحمراء مدهشةٌ وتسلب الأبصار، لكن يجب أن نلاحظ أن قسماً كبيراً من نقوش القصر مرمم بسبب تلفها والخراب الذي لحق بها متأثرةٌ بعوامل عدة منها تقلّب الأيام وتعاقب السنين.

وقد يلاحظ الزائر بشكل جليّ التعديلات التي أدخلها ملوك الإسبان على القصر وإن أردنا الدقة لقلنا التشويهات التي أدخلت على القصر الفريد، فمثلاً شارلكان (كارلوس الخامس)، هدم القصر الرئيسي من قصور الحمراء ليبتني مكانه قصر شارلكان، ذي الطراز الأوروبي، والذي يظهر كقمامة وسط حديقة غنّاء! لا نقول هذا الكلام تعصّباً بل من ملاحظتنا أن جلّ السياح يعرضون عن الدخول إليه، ويطيلون تواجدهم في الحمراء، لرغبتهم في الاستثمار الأمثل لأوقاتهم. وكذا نلحظ أن ما

الطابق العلوي من حمامات القصر



قوس محفور ولمسة أندلسية غرناطية



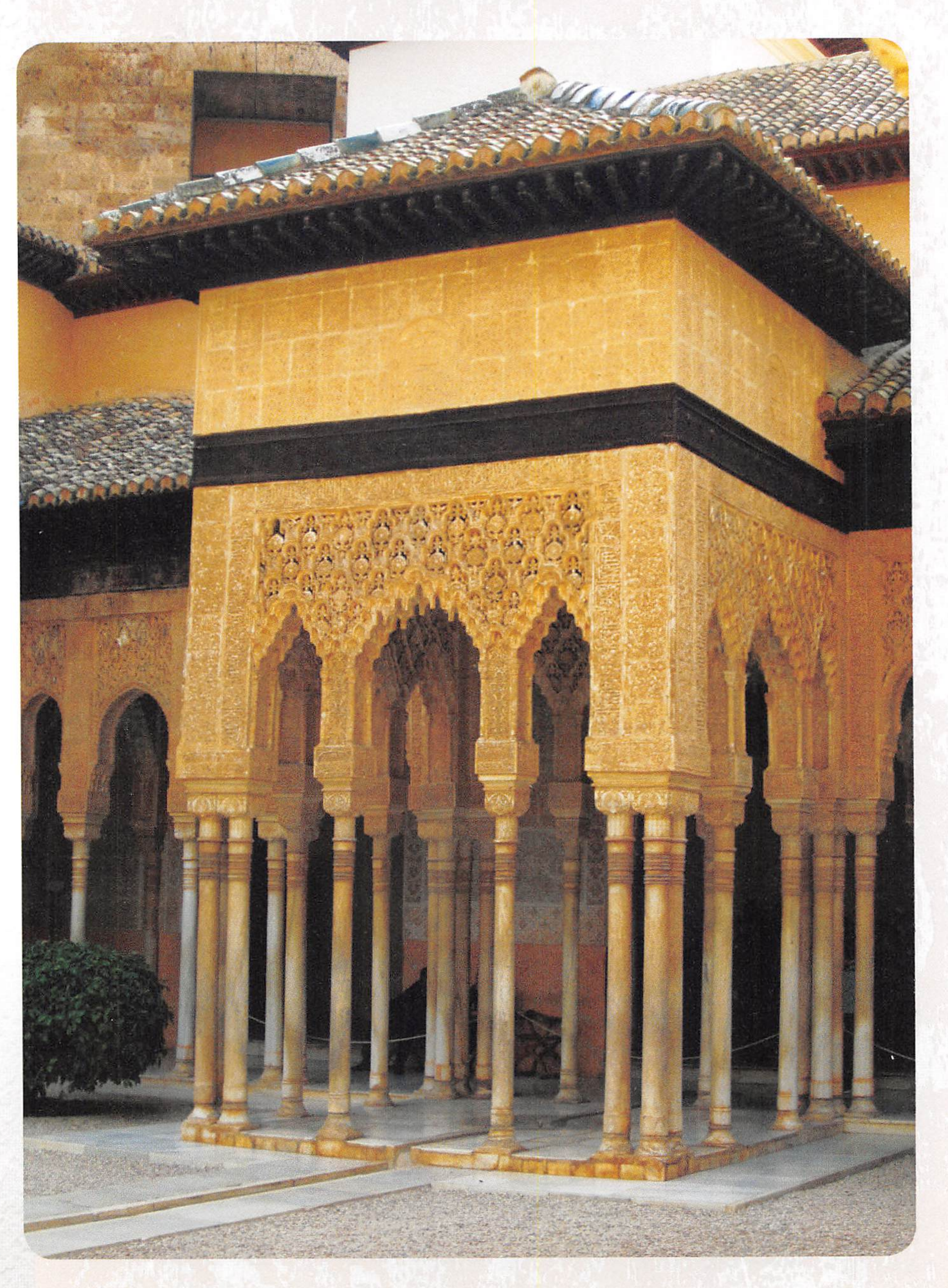
فعله ألفونسو العالم حين نزع بعض النقوش ووضع مكانها نقوشاً ايطالية متنافرة مع الجمال العام، تنبو عنها العين التي تشرّبت من جمال الحمراء. ناهيك عن تعرّض القصر لعدة قرون من الإهمال حتى صار عرضةً للنهب، ومرتعاً للصوص والغجر والحيوانات الضّالة. وقد فجّر برج من أبراج المراقبة بواسطة قوات نابليون إبّان احتلاله لإسبانيا، ولم يلقَ القصر العناية والاهتمام اللائقين إلا بمنتصف القرن التاسع عشر حيث بدأت محاولات الترميم، لذا نجد أن بعضاً من النقوش ليست نقوشاً أصلية، بل هي محدثة بواسطة المرممين الإسبان، تحت إشراف صفوة المستشرقين. ومع كلّ هذه الجهود المبذولة، حدثت الكثير من الأخطاء في بعض النقوش القرآنية وأبيات الشعر. ويذكر أيضاً أنّ الحديقة الواقعة بين جنّة العريف وقصر الحمراء هي أيضاً من صنع الإسبان بوحي واستلهام من التصاميم الأندلسية. الإهمال الذي ذكرناه له أسباب منها: عدم وضوح ونضوج مفهوم السياحة في العالم الحديث إلا في منتصف القرن العشرين، وحينما تشكّل هذا المفهوم بهيئته المعروفة، وصارت السياحة مصدر دخل رئيسي للدول سارعت الهيئات السياحية لتدارك ما غفلوا عنه. ومن الأسباب أيضاً ذلك الشعور العنصري المتعصّب ضد الإسلام بعد إجلائه من

بهو الأسود





مقصورة قاعة الأسود



شبة الجزيرة، ومحاكم التفتيش التي هوت بقبضة من حديد على كل من ترك أثراً يدل على الإسلام وشعائره. وما أعقبها من احتلال نابليون لإسبانيا، ودخول شبة الجزيرة في دوامة حروب وعنف، كل هذا ساهم بهذا التهميش وعدم الأكتراث. ناهيك عمّا تعرّضت له إسبانيا من حروب أهلية ورغبة بعض المقاطعات بالانفصال. لكن في هذا الزمن نجد رغبةً ظاهرةً لدى السلطات الإسبانية، ولدى محافظة الأندلس في إحياء هذا التاريخ واستنهاضه من بين الركام، بل والفخر به وإظهاره للعالم، ذلك لأنه يظهر إسبانيا كأرضٍ جمعت بين الحضارات والأديان، ومزاراً يجذب الناس من أقاصي العالم ومصدر دخل مهم. ولعلّ مما يذكر في هذا الجانب - وإن كان شيئاً رمزياً - وضعهم نصباً تذكارياً يمثل عبدالرحمن الداخل وهو يلبس اللباس العربي من غطاء للرأس وعقال، وهو يمسك بسيف، على ساحل نفس المدينة التي دخل منها إلى الأندلس وهي مدينة المنكب ALMUNICAR.

نخرج من دار عائشة ذات المطلّ الجميل، الذي نقش أعلى نافذته «فاللّه خيرا حافظاً وهو أرحم الراحمين» مارّين بحمامات القصر ذات قاعة المياه الباردة والدافئة، إلى حديقة دار عائشة الصغيرة بحجمها، الكبيرة بجمالياتها والتي توسطتها نافورة

مقصورة قاعة الأسود



قبة قاعة بني سراج



وعلى كل جانب من جوانبها، توزّعت مقاعد خشبية. نجلس نلتقط من عليها أنفاسنا، نعيش نشوة خمر حلال شربته أعيننا فحلّقنا في سماء الجمال.

نخرج فيتلقفنا قصر البرطل الجميل PARTAL PALACE ذو المطلّ الجميل على غرناطة، وأمامه بركة، محاطه بزروع وورود، وإلى شماله مصلّى البرطل الرائع. وبالقرب من القصر، توجد كنيسة سانتا ماريا التي بنيت على أنقاض مسجد غرناطة وإلى جانبها حمامات المسجد موجودة حيث كان المسلمون يغتسلون للصلاة. تنتهي جولتنا في قصر الحمراء، فنخرج منه بأجسادنا وتظلّ أرواحنا وعقولنا وقلوبنا تتجول هناك، تفتش في الزوايا عن بقايا مجد رائع..

عندمـــا افتــرقنـــا

كنت أنزف من الداخل

أسداً حجرياً جريحاً

مــن أسود الحمــراء

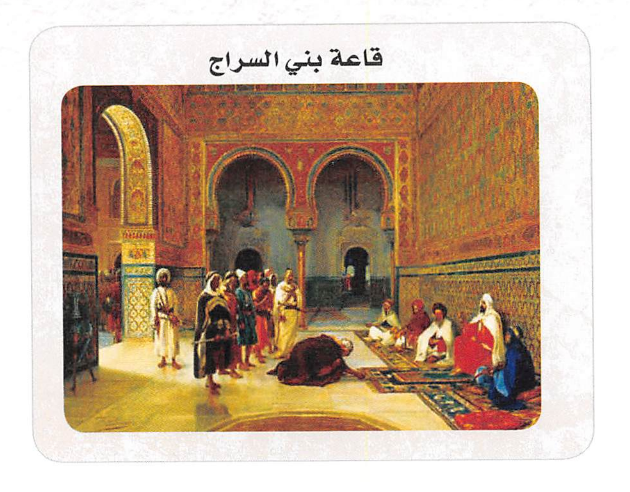
غازي القصيبي

نخرج من القصر، ونحاذي أسواره عن يميننا وننحدر التلّة لنبلغ أسفلها، يحفنا عن

قاعة الأختين



قاعة بني السراج



حديقة عائشة

شمالنا مجرى الماء الفائض، الذي يصب من ميزاب يعلو السور؛ الماء الشبمُ يلوب وينحدر بصفاء، يجري ليتحد مع مجرى نهر حدرة (Darro) مجدداً، تظللنا الأشجار العالية وأسوار الحمراء الضخمة، حتى نصل إلى ساحة انتشرت فيها مقاهٍ مطلة على نهر حدرة الذي يجري عن شمالنا. نلتفت إلى الخلف فنرى قصر الحمراء شامخاً بجلال وبهاء يربض فوق التل. نغذ السير صاعدين إلى حي البياسين، ليتسنى لنا أن نرى القصر من مطل كنيسة سانت نيكولاس؛ وحي البياسين هو الحي الذي اتخذه أهل غرناطة محلاً للسكن بعد أن ارتفع الصليب فوق الحمراء. عندما وصلنا، علمنا - ويا لفرحتنا - أن المطل الذي بجانبه هو مطل مسجد غرناطة، الذي قام بأيدٍ خليجية، ويسمع الأذان من مئذنته خمس مرات في اليوم، ويعمر المسجد بالمسلمين من مقيمين وسائحين. أخبرنا أحد القيمين عليه، بأنهم يعدون وجبة غداء بعد كل صلاة جمعة على نفقة من أقام المسجد. نعود هابطين إلى الساحة بعد أن التقطنا صوراً جميلة وأجلنا النظر مرات ومرات ومرات إلى القصر الأحمر نودعه ونوّدع الصّبر معه.

نودع هذه الأرض ونحن في طريقنا نحو الوطن، الشوق يحدونا للرجوع وتجديد اللقاء،

تمثال الداخل على شاطئ المنكب



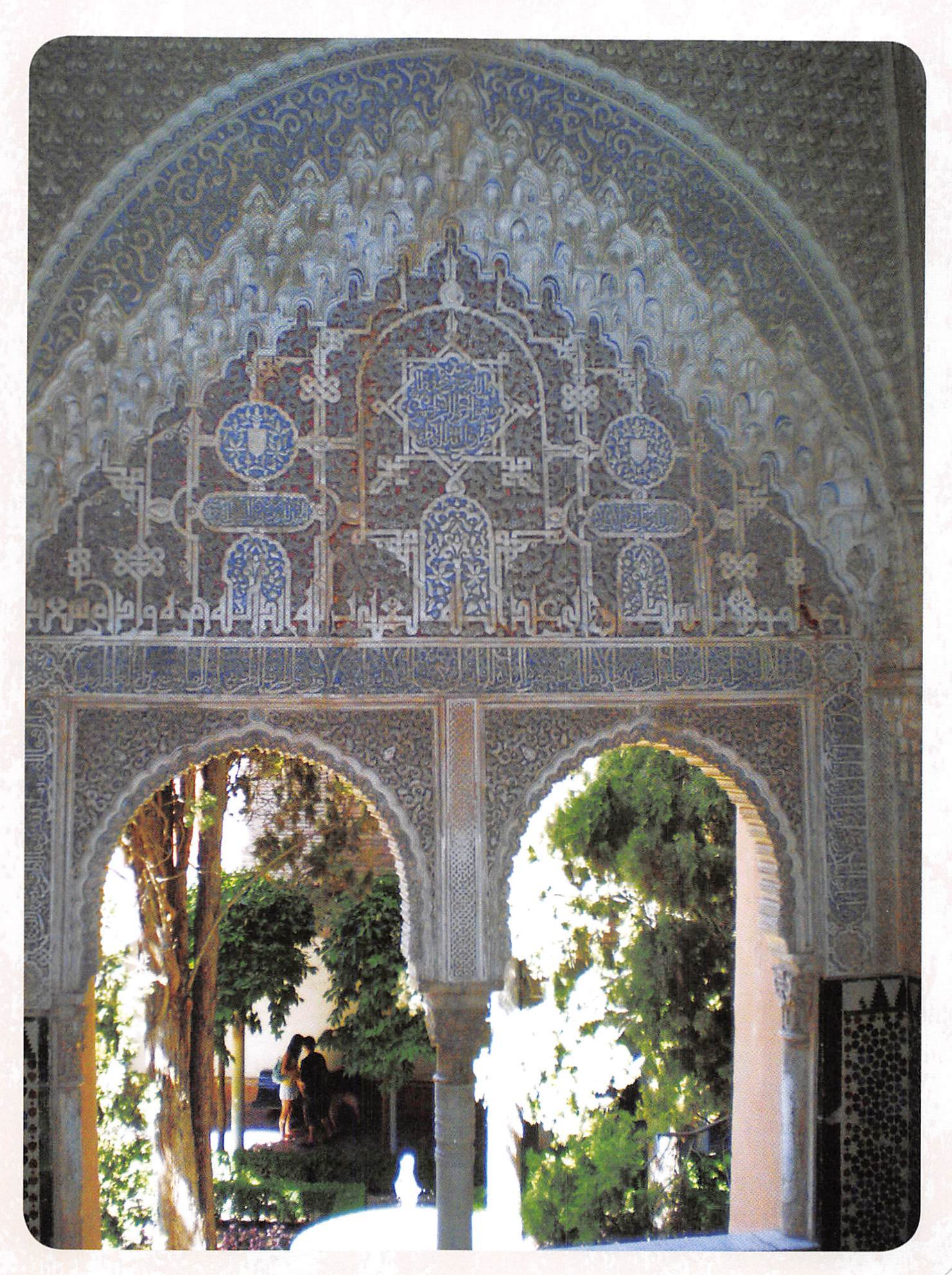
حتى خلنا أن الجوامد تبكي لفراقنا، كما دمعنا لفراقها. وتظل الكلمة الصادقة خير بيان عما يختلج النفس من أحاسيس، فكيف إن كانت الكلمات... شعراً! وأصدق الشعر شعر الرثاء، فهو ينزف من القلب ليبلغ القلب. وأصدق رثاء قيل بالأندلس، هو ما أنشده أبو البقاء الرندي، الذي كتب لقصيدته الخلود، للحكمة التي خامرت سطورها، وسلاسة ألفاظها، والمشاعر الجياشة التي فاضت بين ثناياها، قال الرندي:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ
مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد
ولا يدوم على حالٍ لها شان
يُمزق الدهر حتمًا كل سابغة
إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ

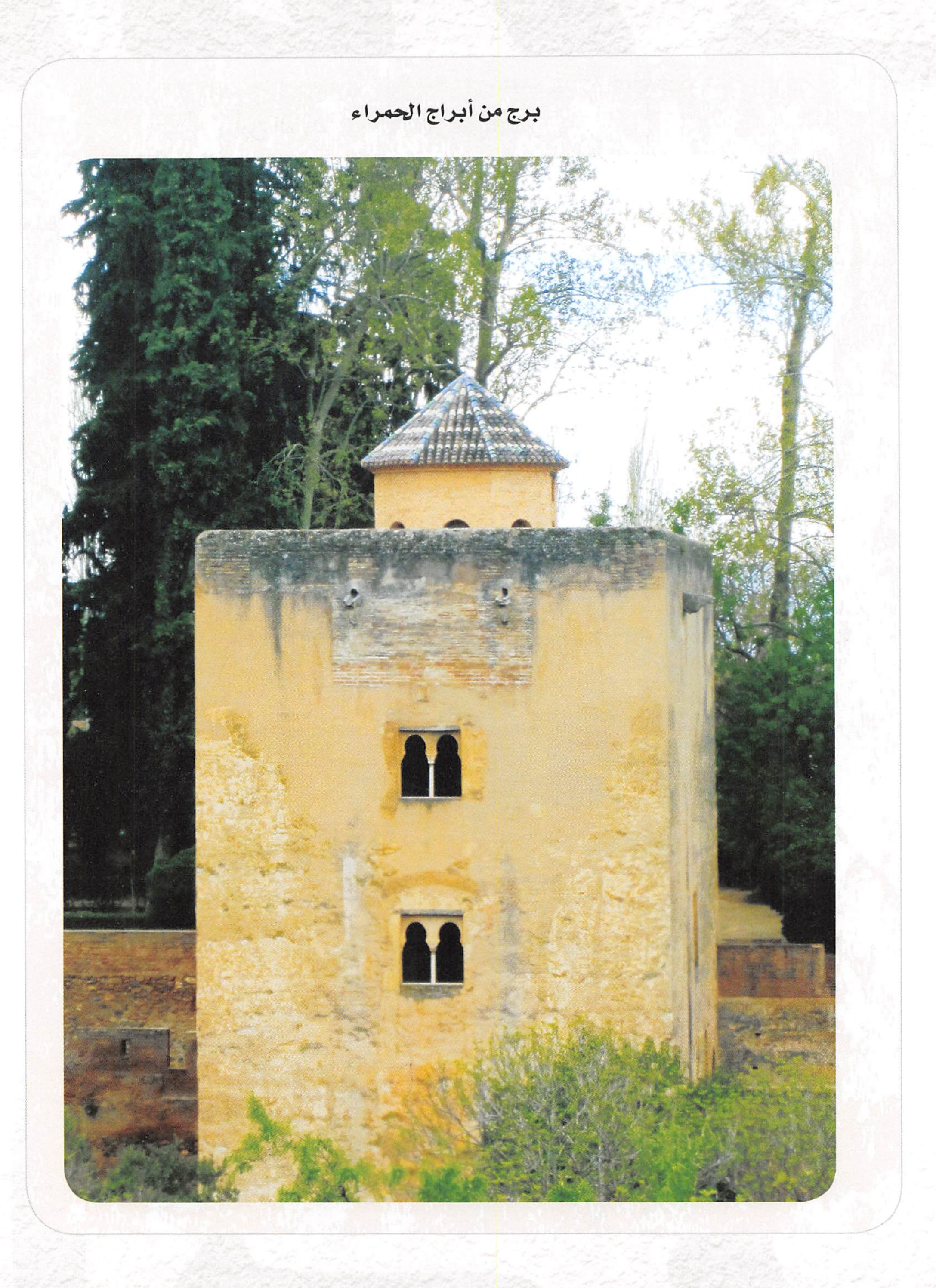
قصر البرطل والبركة من أمامه



نقوش قاعة عائشة

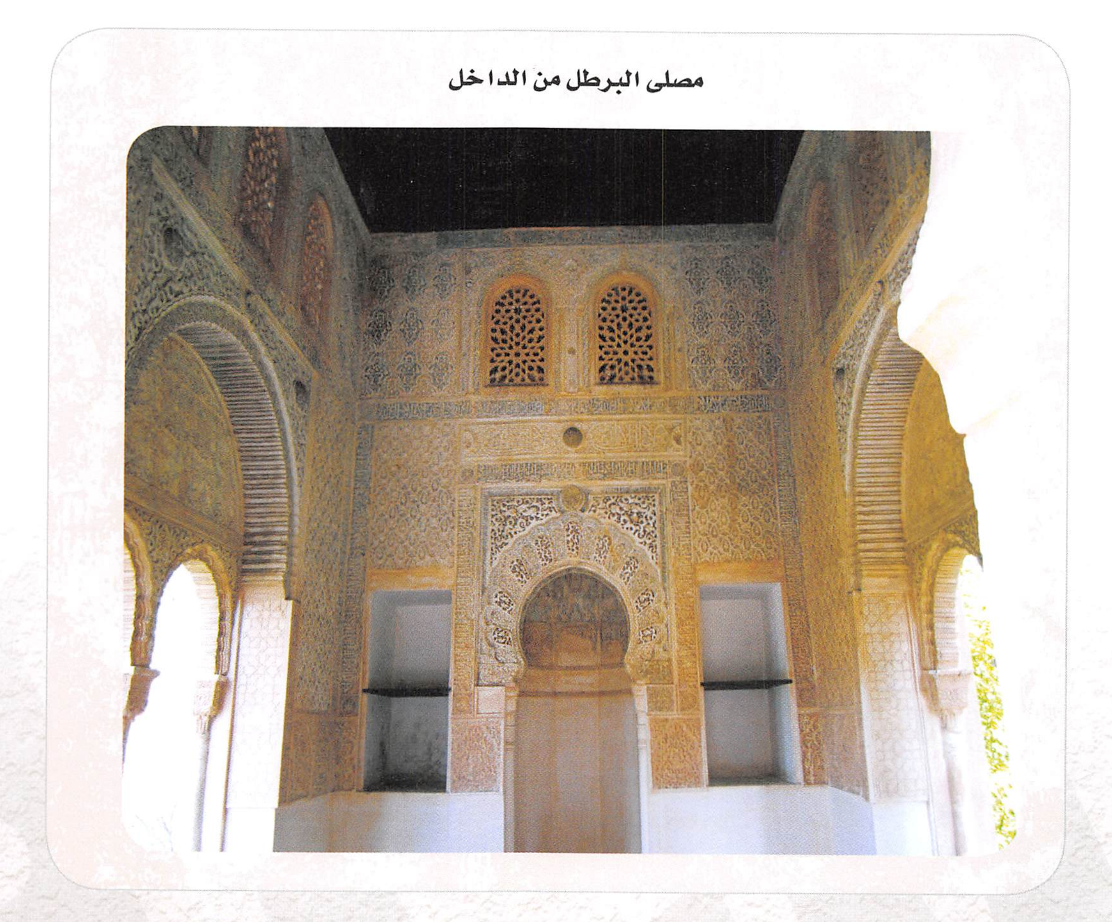


برج من أبراج الحمراء



وينتضي كلّ سيف للفناء ولـوْ
كان ابنَ ذي يزَن والـغمـدَ غُمدان
أين الملوك ذَوو التيجان من يمـن
وأيــن منهـم أكاليلٌ وتيجـانُ؟
وأين مـا شـاده شدَّادُ فـي إرم
وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟
وأين ما حازه قارون مـــن ذهب
وأيــن عـادٌ وشـدادٌ وقحـطـانُ؟
أتى على الكُل أمر لا مَـرد لـــه
حتى قَضَوا فكأن القوم مـا كانـوا
وصـار مـا كان من مُلك ومن مَلِك
كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ

مصلى البرطل من الداخل

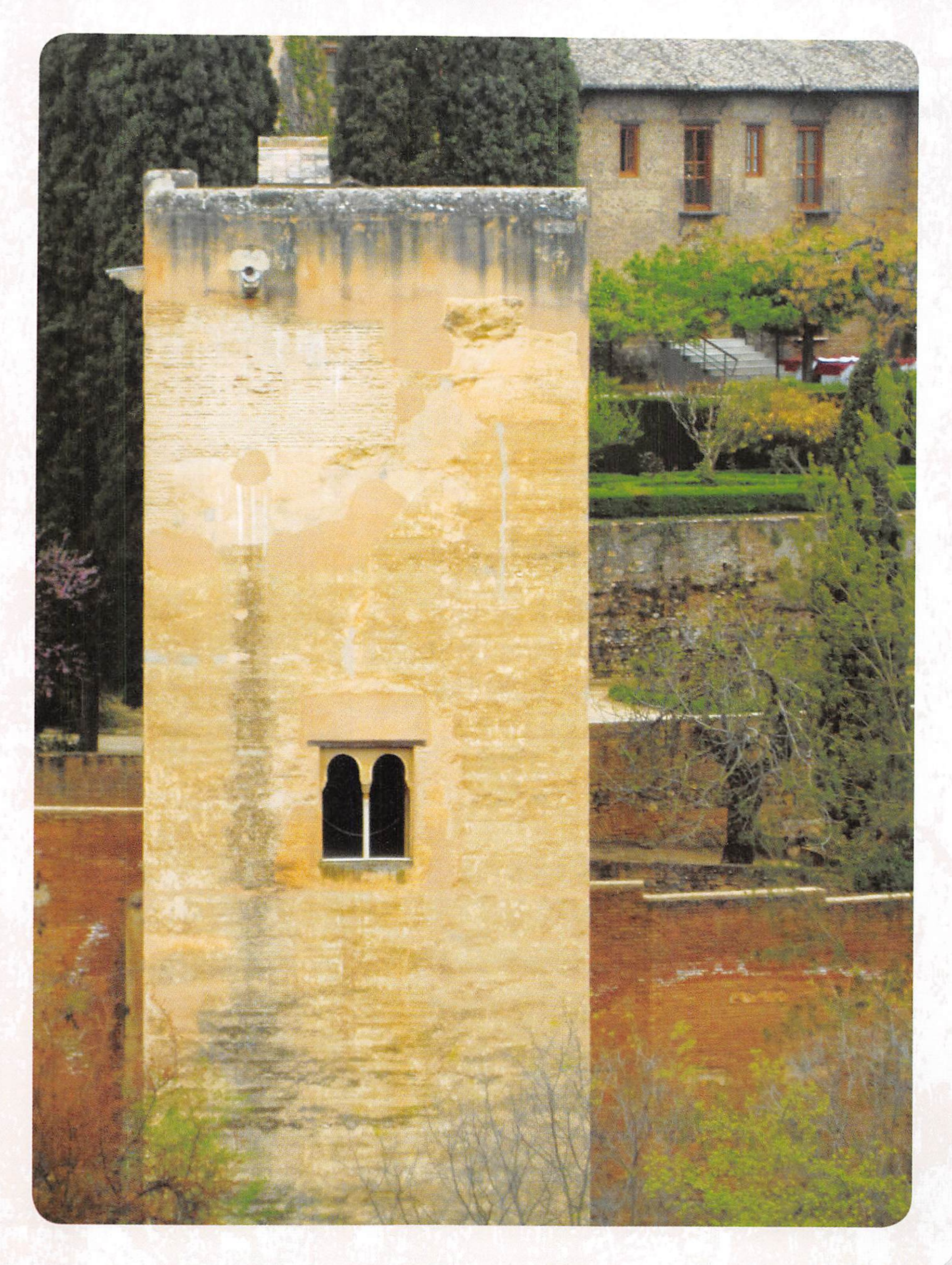


الحمام العربي



دارَ الزّمانُ على (دارا) وقاتِلِه
وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ
كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببٌ
يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ
فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة
وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوان يسهلها
وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له
هوى له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ
حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل «بلنسيةً» ما شأنُ «مُرسيةً»
وأينَ «شاطبةٌ» أمْ أينَ «جَيَّانُ»

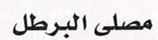
برج من أبراج الحمراء



قصر شارلكان







مصلى البرطل

مجرى ماء يقصد نهر حدرة



وأين «قُرطبـةٌ؟» دارُ العلوم فكـم

من عالمٍ قد سمـا فيهـا لـه شـانُ

وأين «حمصُ»؟ وما تحويه من نزهٍ

ونهـرهُـا العَـذبُ فيـاضٌ ومـلآنُ

قـواعدٌ كـنَّ أركـانَ البـلاد فمـا

عسى البقـاءُ إذا لـم تبـقَ أركـانُ

تبكي الحنيفيةَ البيضـاءُ من أسفٍ

كما بكـى لفـراق الإلفِ هيمـانُ

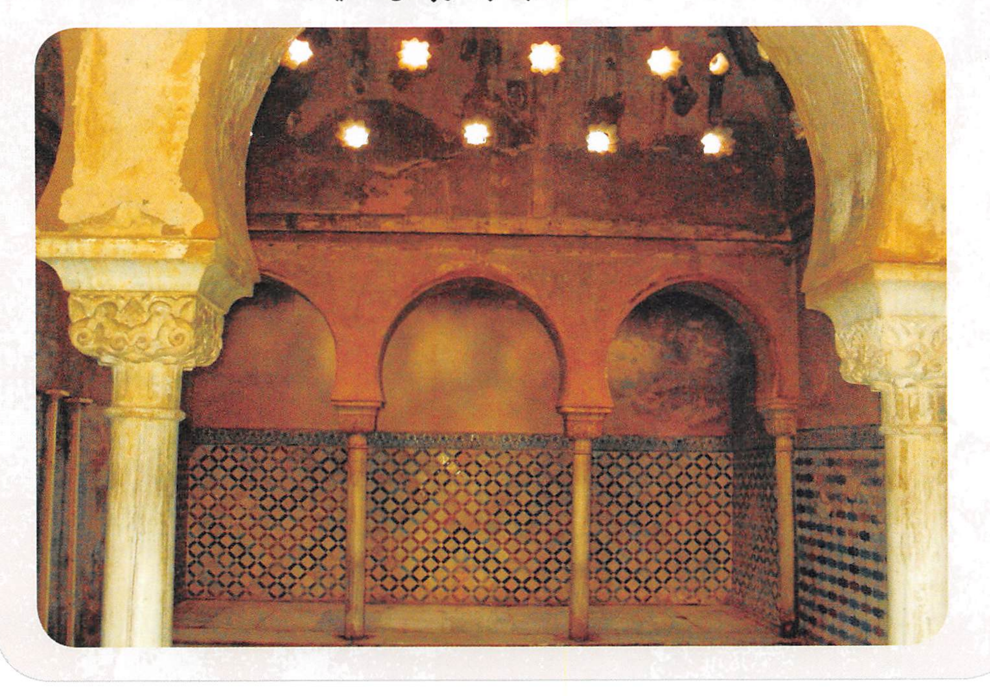
علـى ديار مـن الإسـلام خاليـة

قد أقفرت ولهـا بالكفر عُمـرانُ

حيث المسـاجد قد صارت كنائسَ

مافيهـنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبـانُ

حمامات المسجد بالقرب من الكنيسة



حتى المحاريبُ تبكي وهـي جامدةٌ

حتى المنابرُ ترثي وهـي عيدانُ

يا غافلاً وله في الدهـرِ موعظـةٌ

إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظـانُ

وماشيًـا مرحًـا يلهيه موطنـه

أبعد حمص تَغرُّ المرءَ أوطـانُ؟

تلك المصيبةُ أنستْ مـا تقدمهـا

وما لها مع طـولَ الدهرِ نسيـانُ

يـا راكبين عتاق الخيلِ ضامـرةً

كأنها في مجـال السبقِ عقبانُ

وحـاملين سيُوفَ الهندِ مرهفـةً

كأنها فـي ظـلام النقـع نيرانُ

وراتعين وراء البـحر فـي دعـة

لهـم بأوطانهم عـزٌّ وسلطـانُ

الحمراء نزولاً إلى اسفل التل

النزول إلى أسفل تل الحمراء

الحمراء يربض فوق التل





أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ
فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ؟
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان؟
ماذا التقاطُع في الإسلام بينكمُ
وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ؟
ألا نفوسٌ أبَّاتٌ لها هممٌ
أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

مسجد غرناطة - حي البياسين



يا مـــن لذلةِ قوم بعدَ عزِّهـم

أحاَل حالهـمْ جـورٌ وطُغيـانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منـازلهـم

واليومَ هم فـي بلاد الكفـرِّ عُبدانُ

فلـو تراهم حيـارى لا دليـل لهـم

علـيهمُ مـــن ثيـابِ الذلِ ألـوانُ

ولـو رأيتَ بكـاهُـم عنـدَ بيعهـم

لهـالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحـــزانُ



من مطل المسجد



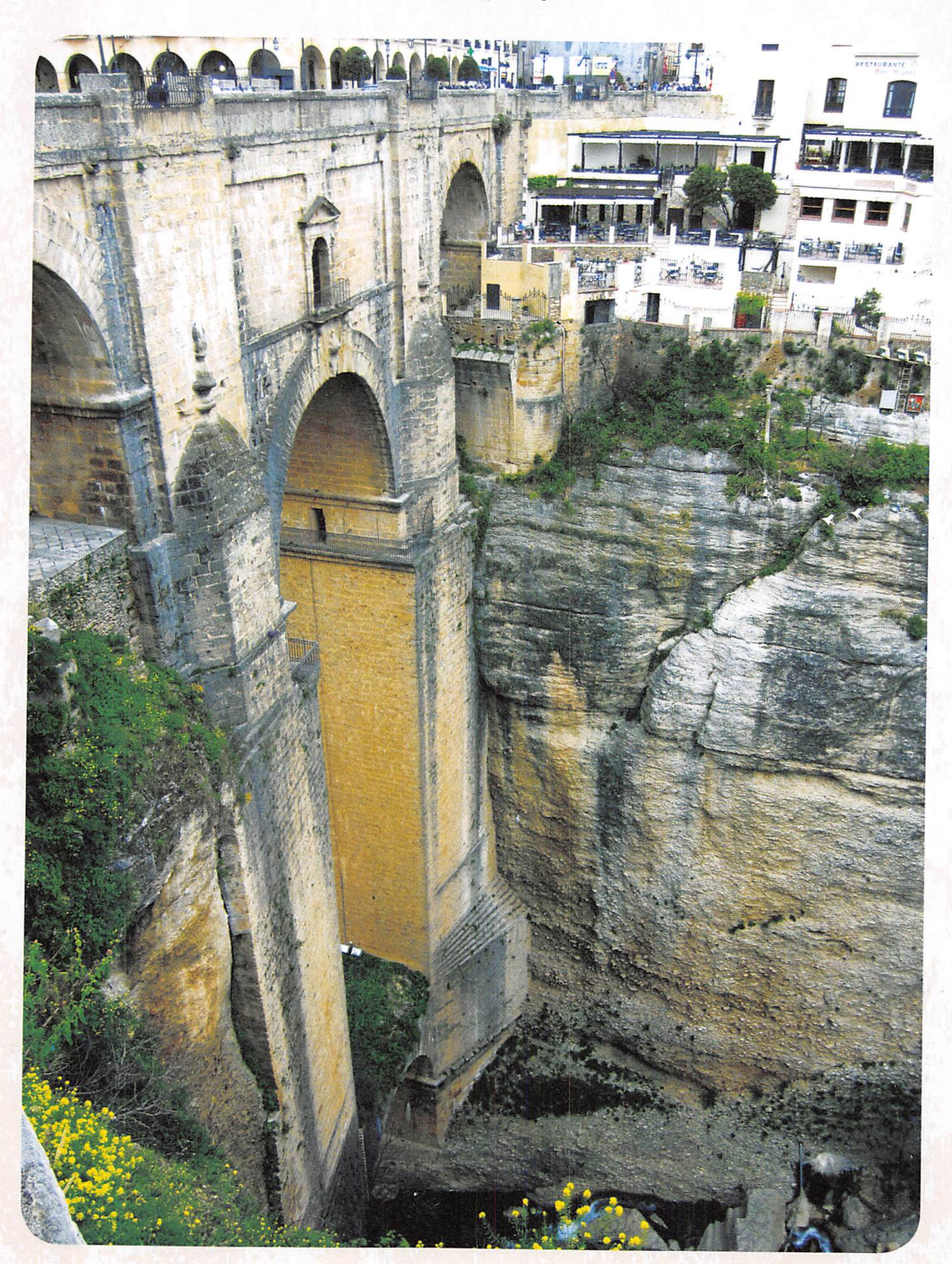


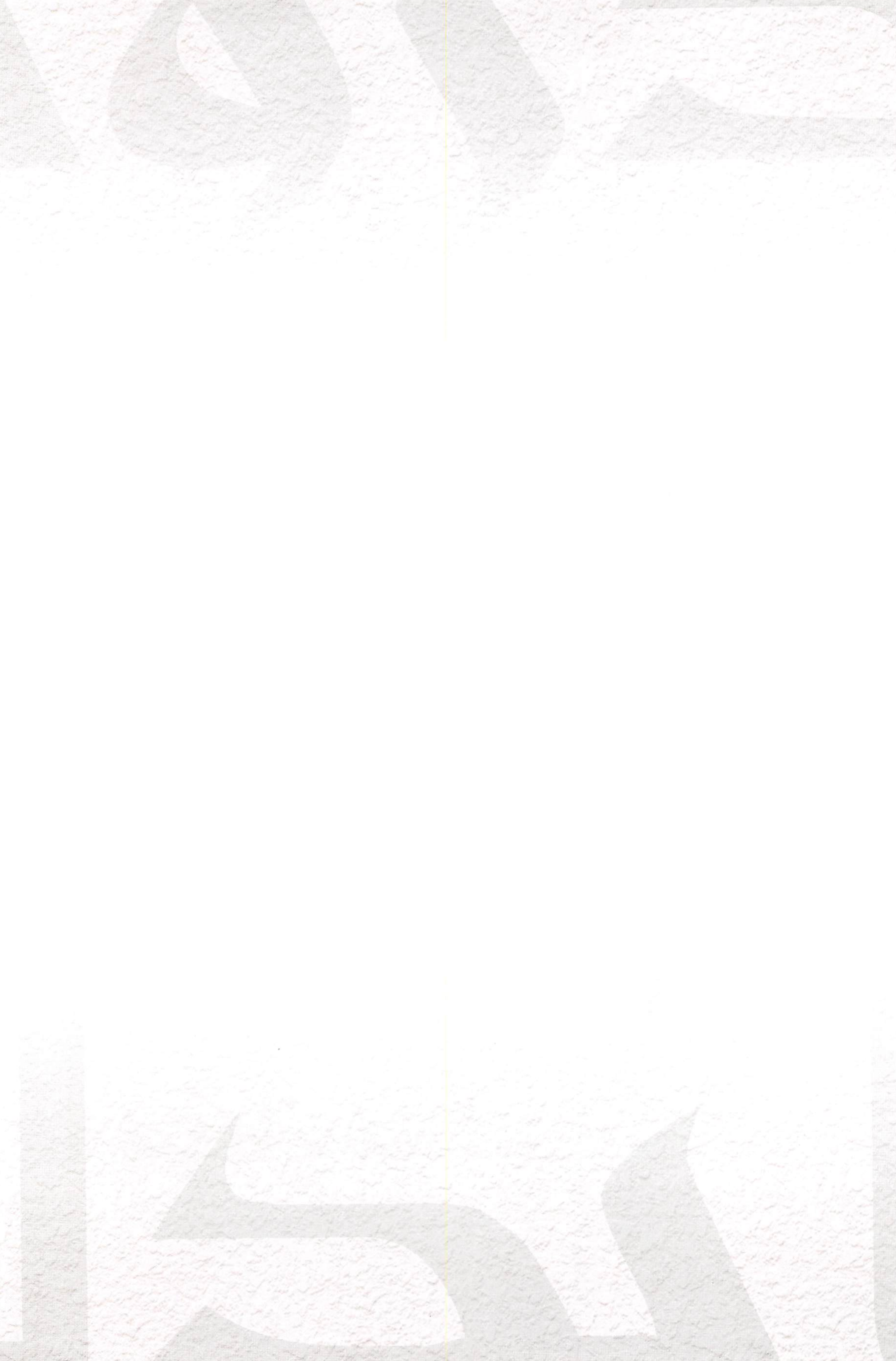
يـا ربَّ أمّ وطفـلٍ حيـلَ بينهمـا
كمــا تفــرقَ أرواحٌ وأبــدانُ
وطفلــةٍ مثــل حسنِ الشمسِ
إذ طلعت كأنما هـي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العلـجُ للمكـروه مكرهـة
والعيــنُ باكيــةٌ والقلـبُ حيـرانُ
لمثل هذا يبكـي القلبُ مـن كمـدٍ
إن كـان في القلبِ إسـلامٌ وإيمـانُ

لم نوفِ الآثار الأندلسية كافة العناية المطلوبة، فاقتصرت رحلتنا على الطواف بالحواضر الكبرى في تاريخ الأندلس، ولعل الله يمّد لنا في العمر ويفسح لنا في الأجل، لنزور ما تبقى، ونخط ما سنراه لكم، فإلى اللقاء، بإذنه تعالى...

فالله خيرا حافظا وهو أرحم الراحمين

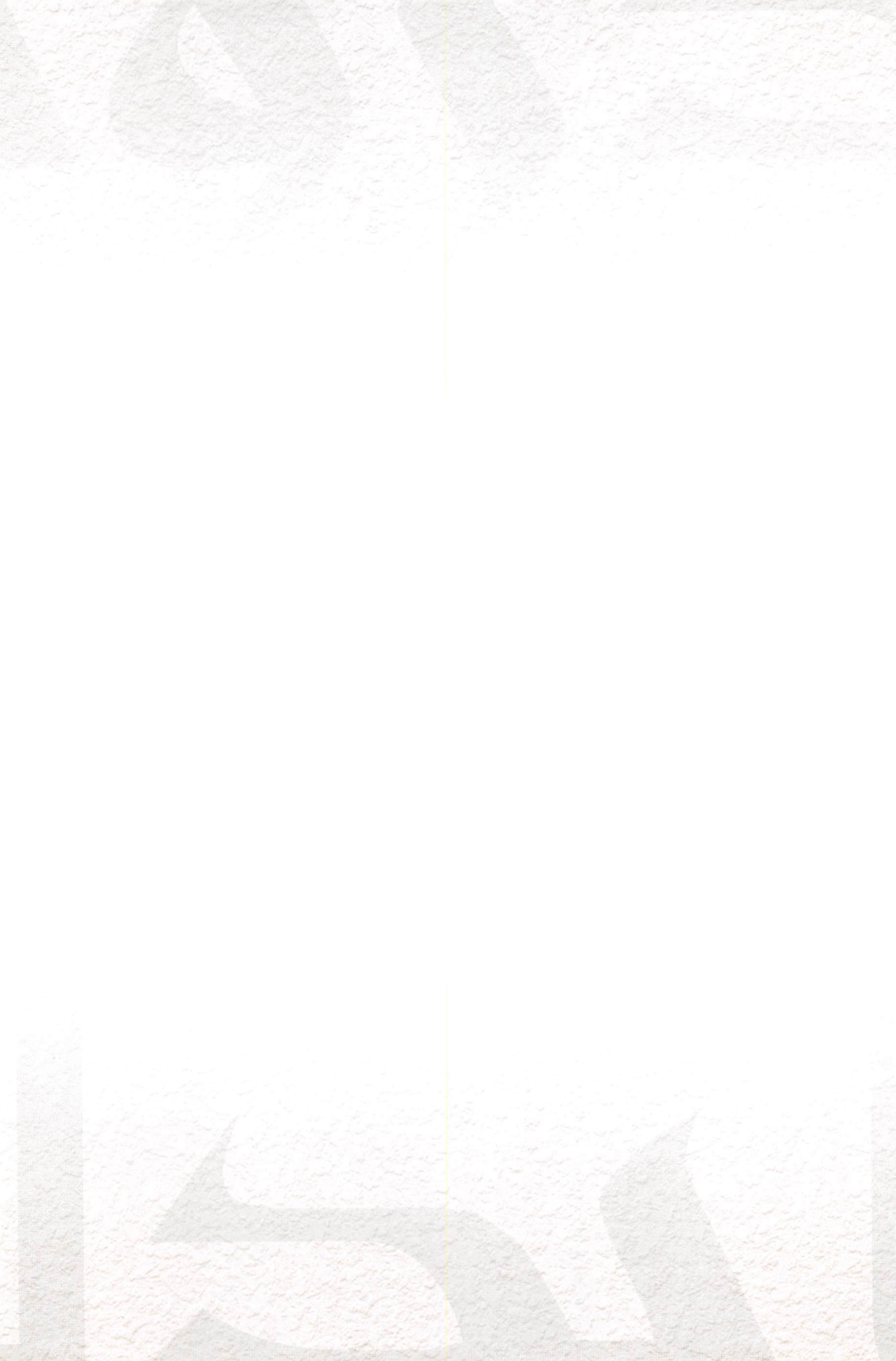
قنطرة مدينة رنده





مئذنة مسجد في مدينة رندة التي ينتسب إليها أبو البقاء





قبل الوداع... كلمة



غازي القصيبي

مخرج

جلس أديبنا غازي القصيبي يوماً على أحد الشواطئ الفرنسية، واستمع بالصدفة لنقاش بين فرنسي وأمريكي؛ الفرنسي يسأل عشرات الأسئلة عن أمريكا والأمريكي يجيب، بعدها يعود الفرنسي ويمطر الأمريكي بوابل من الأسئلة، فجأة قال الأمريكي: اسمع يا صديقي، أمريكا ليست بلداً! فرد الفرنسي باستغراب: ليست بلداً؟ ما هي إذاً؟ فقال الأمريكي: «إنها حالة ذهنية!».

وكذا الأندلس، في الذاكرة العربية، حالة ذهنية، ذهب أبطالها في غياهب التاريخ واكتنف أغلبهم ضبابه، لكنهم ظلوا وظلت حالة ذهنية، في ذاكرة العرب والمسلمين، ترمز للإبداع، والجمال، والرقّي، والتسامح وغيرها من قيم إنسانية قوّمها الدين القويم وأعادها إلى جادتها وربطها بالثواب والعقاب. فلمَ لا نخرجها من كونها حالة ذهنية نظرية؟ ونرتقي بها من مرتبة الأقوال إلى الأفعال وبذا نستعيد الحالة الأندلسية، ونعيشها على أرض الواقع، فتعود لنا أندلس الذاكرة، ونخلق أندلساً جديدة. لنقرأ معاً هذا النص للمقري في مصنّفه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» يصف أهل الأندلس: «وأهل الأندلس أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها!» فلنتأمل ونتأمل ونطيل التأمل.

